محطات تستحق التوقف

ذكريات الزمن الجميل في روسيا

موسكو - لينينغراد - سوجي

الكتاب: محطات تستحق التوقف

ذكريات الزمن الجميل في روسيا

موسكو - لينينغراد - سوجي

الكاتب: أ. د. حكمت شبر

الطبعة الأولى: 2021

جميع الحقوق محفوظة

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9933-636-19-7

9 789933 636197

الناشر: دار الزمان

للطباعة والنشر والتوزيع

فايبر وواتس أب:

0049 176 76866381

موبايل: 0049 176 76866381

E-mail:zeman005@yahoo.con

الإخراج الداخلي: دار الزمان

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

Copy Right Dar Zaman Publishing
All Right Reserved. No Part of This Publication May be Reproducecd Transmitted Without Premission in Writing From The Publisher

أ. د. حكمت شبر

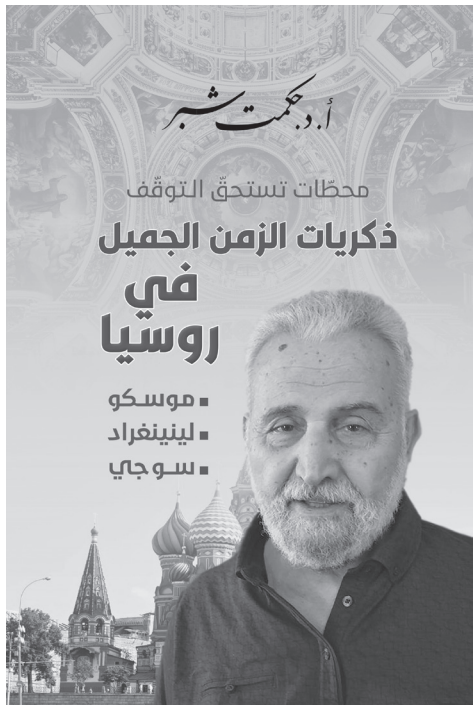

محطات تستحق التوقف

ذكريات الزمن الجميل في روسيا

موسكو - لينينغراد - سوجي

موسكو

(1)

جلست في مقعدي، وكان رقمي (13) في الطائرة الروسية المتجهة إلى لندن، كنت في حالة من الذهول التام، لا أعلم إن كانت مغادرتي لمدينة لينينغراد الساحرة حقيقة، أم أنّ الموضوع فيه شيء من الخيال؟! لعلّي لم أصدق أنّ فترة السنوات الستة التي قضيتها على الأراضي السوفيتية، مرّت بهذه السرعة، كنت أتساءل مفكراً: كيف أسرع الزمن في هذا البلد الجميل، وانقضت أحلى سنوات حياتي، بينما الوقت في بلدي يمضي ببطء شديد؟!

أخذت أتلفت يمنة ويسرة في الطائرة، لعلّني أجد مساعدة عند هذا الفتى أو تلك الفتاة، ولكن أي مساعدة أطلبها وأنا قد أنهيت دراستي، ويتوجب عليّ أن أغادر البلد؟!

مرّت الذكريات الكثيفة أمام عيني خلال السفرة التي دامت خمس ساعات، تلك الفترة التي تجاوزت ست سنوات، والمليئة بكل ما يفرح ويبهج القلب، فقد كانت تلك السنوات حافلة بالعمل الجاد، فحين وطئت بقدمي الأراضي السوفيتية في العاصمة موسكو، كنت محملاً بأثقال كثيرة، أهمها أني كنت جاهلاً بالعالم الجديد الذي انتقلت إليه، حتى وإنّ تخرّجت في كلية القانون، ولكن الجماعة استطاعت أن تغسل دماغي بالأفكار التي أشبهها بالطوباوية، مما جعل دماغي يتحجّر، ولا يعرف من الأفكار والتطلعات غير ما قرأته، وملأ دماغي المسكين بـ لا... لسارتر والوجودية، لا... لهمنغواي والأدب الحديث، لا للمتعة البريئة، وأنني يجب أن أبقى مخلصاً لفكر واحد، لا تخرقه أفكار الرأسمالية ومدارسها العديدة، التي تشوّه الاشتراكية والفكر الاشتراكي.

كان شريط الأحداث التي عشتها يمرّ بكل وضوح أمام ناظري، مستعرضاً جلّ حياتي السابقة في هذا البلد الجميل، الذي اغترفت من جماله، وعلمه، ومُتعِه الشيء الكثير، وها هو اليوم السابع من نيسان 1967، سأغادره بلا رجعة، متوجها إلى وطني الذي كان غارقاً بالدم والعنف، نتيجة الصراعات السياسية في تلك الفترة العصيبة، التي قضيتها بعيداً عن مواجهة أخطار تلك المعارك، وإن أكن عشت بعض معاناتها، لخوفي على بلدي من التمزّق والانحدار، وأصدقائي الذين هربت منهم، عارفاً بأن مصيراً مأساوياً ينتظرهم.

تركت العراق في لهيب حرّ الصيف، ووصلت إلى موسكو، وهي في قمة جوّها الخريفي المنعش، وكان بلوغي في الرابع من تشرين الأول عام 1961، كنت في القطار الذي نقلني من اليونان عبر يوغسلافيا والمجر، أفكر في المستقبل، حالماً بالكثير من الأيام والليالي المليئة بكل ما يسرّ الإنسان ويفرحه، فقد قرأت العديد من الكتب عن الحياة في روسيا، مما أشعلَ في نفسي الرغبة والشوق للتمتع بها في قادمات الأيام؛ العديدة والكثيرة، التي انتهت أخيراً بهذه الرحلة.

كان في استقبالي في محطة موسكو شقيقي الأصغر موسى، مع الصديق العزيز المرحوم حامد عجينة، وكان اللقاء بيننا حميمياً، في ذلك الجو الودي المليء بالحب، ونسائم الخريف المنعشة.

اصطحبني شقيقي عبر شوارع موسكو العريضة، إلى القسم الداخلي الخاص بمعهد النفط الذي يدرس فيه، وكانت هناك مفاجأة تنتظرني، فقد قوبلت بمجموعة من الطلبة العراقيين الدارسين في ذلك المعهد، والذين رحبوا بي، وأغرقوني بعشرات الأسئلة عن العراق، وما يدور فيه من أحداث.

وبعد استراحة قصيرة اصطحبوني إلى الحمام العام في الدار، وكنت ألاحظ وأنا أخلع ملابسي استعداداً للدخول، فقد تعرّت الجماعة المصاحبة لي تماماً، دُهشت طبعاً من ذلك المنظر، الذي لم أعتده وأعرفه من قبل، حاولوا إقناعي بالتعري مثلهم، فرفضتُ بإبائي العراقي المتزمت القادم من مطحنة الصراع في العراق.

وبقيت محتفظاً بغطاء العورة، التي بدت كما لو أنها كانت محاولة منهم لاختطاف جهازي التناسلي، ومرّت تلك اللحظات بالسخرية والضحك والملاطفات المعروفة لدى العراقيين.

وفي اليوم التالي لوصولي، وضع لي أخي الصغير برنامجاً مكثفاً لزيارة أهم المناطق في العاصمة موسكو.

ابتدأ البرنامج بزيارة إلى الساحة الحمراء، وقبل الوصول إلى هناك كنا نستقل المترو المسكوفي الفخم، الذي أدهشني بهندسته وديكوراته الجميلة، إضافة إلى أنني أعجبت كثيرا بالتماثيل المنتشرة في المحطة التي تقع بعمق خمسين متراً تحت الأرض، وكانت المحطة تشبه (كاليري) فنياً، أو متحفاً يزهو بمعروضاته، وفخامة بنائه وديكوراته الرائعة، وهذه أولى المناظر التي أدخلت السرور إلى قلبي، فلم أعرف المترو من قبل، ولم أرَ مثل تلك المحطة المتحف، التي أبهرت الدنيا كنظيراتها الأخريات، وهي من منجزات الشباب، كما قيل لي بعد الحرب العالمية الثانية.

دخلت الساحة الحمراء، وأنا في غاية الشوق للتعرّف إلى تلك الساحة، التي مر بها آلاف الجنود يستعرضهم ستالين في الحرب العالمية، وكانوا يتوجهون مباشرة إلى ساحات الحرب.

كما شهدت تلك الساحة عشرات الاستعراضات احتفالا بذكرى أول أيار، وذكرى ثورة أكتوبر.

كانت الساحة مفتوحة الذراعين لاستقبال الزوار والسوّاح، وهي تصرخ:

– تزوّدوا بجمال هذا المكان، الذي سحر نابليون عام 1812 بما فيه من بنايات مكلّلة أبراجها بالذهب اللماع، وكاتدرائيتها الضخمة المجللة بعشرات التماثيل المسيحية، من ملائكة تحتضن مريم والمسيح، إلى أبراجها المخروطية المعممة بالذهب الأصفر، الذي يعكس منذ الصباح حتى المساء شمسَ موسكو الدافئة، في ذلك الفصل المنعش.

كانت زيارتي (للمفزلين) الذي ضمَّ جثماني ستالين ولينين، هي ما كنت أطمح إليه، لكثرة ما كتب عن الزعيمين، وهما مسجّيان، وكأنهما في نومة قصيرة، سوف يهبّا منها لقيادة البروليتاريا الروسية لتحقيق أهداف الثورة الحمراء.

لقد هزني كثيرا منظر الجثمانين، وانطلقت بأفكاري وخيالي إلى زمن ثورة أكتوبر، وما حققته من تجربة رائدة في العالم.

كانت تلك الأفكار تتزاحم متسائلة، هل حقاً إنّ لينين وستالين هما من قادا الثورة نحو النجاح؟! أم هي الجماهير العمالية مع الجنود هي من صنعت ذاك النجاح؟!

وكانت هذه الرؤى تتصارع وتتزاحم حول دور الفرد والجماهير في الثورة الحمراء، ولم أستقر في أفكاري على إجابة صحيحة عن ذلك حتى هذه اللحظة من عمري!

تجولنا في الساحة الكبيرة التي تسع عشرات الآلاف من البشر، ووصلنا إلى جوار (المفزلين) الذي دُفن فيه كبار القادة البلاشفة، كان هناك العديد من اللوحات، وكانت إحدى تلك اللوحات تشير إلى

الكاتب الأمريكي (جون ريد)؛ الذي عرف، واشتهر بكتابه (عشرة أيام هزت العالم)، إذ إنه حكى بكل عفوية عن ثورة أكتوبر في أيامها الأولى، ودور (تروتسكي) في قيادة الجنود والعمال في بترسبورغ من غير إساءة أو تشهير، كما حدث بعد ذلك من خلافات ذلك القائد الفذّ مع الزعامة البلشفية في عهد لينين وستالين، الذي لم يسترح وهو يرى تروتسكي على قيد الحياة، فبعث من اغتاله في (المكسيك)، ولكن جون ريد حفظ الصفحات الأولى لنجاح الثورة مبرزاً دور تروتسكي فيها.

كان أول طلب لي ولم يمض على وجودي في موسكو سوى أيام قليلة، أن أزور مسرح (البولشوي تياتر) المسرح الكبير، وكانت موسيقا جايكوفسكي التي وضعها لبحيرة البجع لا تبارح مخيلتي.

وكانت لهذه الموسيقا ذكرى جميلة لن أنساها، فقد عرفت الطريق إلى الموسيقا الكلاسيكية من خلال بحيرة البجع.

تعرّفت وأنا طالب في الصف الخامس الثانوي إلى شخص مثقّف يخصّ زوجتي بقرابة، ولم أكن أعرف زوجتي آنذاك، وكان هو الوسيلة إلى ذلك، إذ دخلت إلى بيتهم، ورأيتها هناك، وتعلقت بها منذ زمن مراهقتي، وقبل أن أغادر إلى الاتحاد السوفيتي.

إنه حسين علوان، الذي كان عائداً لتوّه من باريس، وكنت ملتصقا به، وأستمع إلى أحاديثه المثيرة عن باريس ولياليها الحالمة، وعن العشاق في الحي اللاتيني، وكنت أقضي معه ليالي طويلة، وأنا أحلم مع أحاديثه عن العوالم السحرية في باريس ومغامرات العراقيين، وكان هو أول من حفّزني، وأثار في نفسي الرغبات الكبيرة في السفر خارج العراق، للتعرّف إلى العوالم الجميلة، واغتراف المعرفة والحب والجمال في مدن أوروبا.

كما كنت معه أستمع إلى الموسيقا الكلاسيكية، وفي مقدمتها بحيرة البجع، وكان أول عمل قمت به حين دخلت بغداد، هو شراء أسطوانة تلك الموسيقا من محل معروف في شارع سينما الخيام.

وكانت محلات الموسيقا الكلاسيكية معروفة ومتعددة في مدينة الحب والجمال (بغداد)، تقع إحدى تلك المحلات في مخزن (أورزدي باك)، والآخر قرب سينما الخيام، والثالث في شارع السعدون.

وكان الشباب المتطلع إلى الحياة المنفتحة والجميلة ممن يعشقون الموسيقا، يغترفون من تلك المحلات أجمل الألحان، ليحلقوا مع الموسيقا الكلاسيكية والأوبرا، فقد تعرّفت، وآنست إلى بيتهوفن وشوبان وباخ وشوبرت وغيرهم من كبار الموسيقيين، وكان في مقدمتهم جايكوفسكي الموسيقار الرائع.

حدثني حسين عن أدق أسراره، وأسرار رفاقه في باريس، ولياليهم الحمراء، وكان معه في تلك الفترة، خالد الجادر والشيخلي وغيره من الطلاب الدارسين لمختلف المواضيع، ولكن ما كان يثيرني وأنا في سنوات مراهقتي حديثه عن النساء الباريسيات وغنجهن وجمالهن، وما يمنحنه من حب في ليالي باريس التي لا تنام.

فقد حدثني عن أحد أصدقائه المقربين (الشيخلي)، وكيف كان في إحدى ليالي الحب مع صديقته العارية إلى جنبه يدخن، ولا يعلم أين يضع نفاضة السجائر، فوضعها في أجمل وأرقى مكان تملكه المرأة حتى يستمر في التدخين، وتشاء الصدف أن ألتقي بالرجل في حفلة من حفلاتنا الجميلة، في ليالي بغداد المؤنسة، في السبعينات، فشربنا وسكرنا، وحدثني عن تلك الليلة مع عشيقته، وأين وضع نفاضة السجائر، فأخذ يهتز من شدة الضحك.

فتلك الذكرى بعد ثلاثين عاماً أطربته، وجعلته في حال النشوة.

والذكرى لباريس الجميلة ونسائها العاشقات، وكانت ليلة جميلة قضيناها في الحديث عن صديقنا المشترك حسين علوان.

وفي الصف الثاني من كلية الحقوق تعرّفت إلى صديق، قتل بعد ثورة تموز غدراً (عزيز أبو التمن) ذلك الشخص المرح، والمتميز بسمنته المفرطة، وكنا ملتصقين أحدنا بالآخر، وكان يدعوني إلى داره للاستماع للموسيقا، وخاصة موسيقا الأوبرات المشهور منها (عايدة، كارمن) والأوبرات المشهورة الأخرى، وكان يطلق الصوت إلى أعلى مدى، وحين سألته لماذا هذا الصوت المرتفع جدا؟ أجابني بأن سماع الأوبرا يتطلب رفع الصوت، لقد تعلقت كثيراً بسماع الأوبرا، وجلبت معي من روسيا مئات الأسطوانات الكلاسيكية، لا سيما الأوبرات العالمية، ولعلّي لا أبالغ عندما أقول إن سماعي للأوبرا يثير حزناً عميقاً، وينقلني إلى عوالم العشق والحرمان الحزينة، ولعل ذلك مرجعه إلى الحزن الحسيني الذي تملكني، ولا زال، لكثرة ما بكينا، وثكلنا الحزن على مأساة الحسين (عليه السلام).

وكم يؤسفني أن تلك الأسطوانات الكثيرة ترقد حاليا في حالة حزن وشوق، لكن الزمن تغير، ودخلت تكنولوجيا جديدة لا علاقة لها بعالم الأسطوانات القديمة، وهي تهجع في مخزن مهجور لا أستطيع أن أمر بها، فالحزن يلاحقني ويهزني عندما أتذكر، وأنا أمرّ بجنب تلك المجموعات الموسيقية بالليالي الحسان، وأجواء الحرية والجمال التي عشتها في روسيا والبلدان الأوربية.

رجوت أخي أن يحصل على بطاقتين في (البولشوي) لمشاهدة بحيرة البجع، وحصل ذلك بعد ثلاثة أيام من وصولي إلى موسكو.

توجهنا، وأنا في غاية الفرح، لإحياء تلك الليلة الخالدة من الليالي التي عشتها في عاصمة الفن التاريخي العظيم (الباليه

الروسية)، توجهنا عن طريق المترو، ومن محطة جامعة موسكو، وأنا في نشوة مما يحيطني من أجواء، تصرخ الألوان في تلك المحطة الكبيرة المليئة بالتماثيل المختلفة، من أبطال الحرب العالمية الثانية، ونساء راقصات وحسان، يحطن ببحيرة صغيرة، وهذه المحطة كمثيلاتها في بقية بقاع العاصمة، تعجّ بالنساء الفاتنات، وما أكثرهن.

توجهنا إلى البولشوي، وكان يقع وسط بقعة مركزية في العاصمة، تزيّنه العمدان الباسقة، ويتوسط واجهته تمثال رمزي للمركبة الشتوية الأسطورية الروسية، التي تجرها أربعة جياد في برد روسيا، والتي تزينه وتجمله الثلوج البيضاء الناصعة.

جلسنا في تلك القاعة التاريخية لمسرح البولشوي، الذي بني قبل حوالي (200) عام، وكانت الكراسي حمراء وثيرة، تثير الدفء في النفوس، وكانت صفوف الكراسي موضوعة بهيئة نصف قوس، ويتجاوز تعدادها المئات في تلك القاعة التي تزينها الثريات التاريخية الكبيرة، وكانت الألواح القيصرية مزينة بأنواع النقوش المتعددة الألوان، التي تحفّ بالقاعة من كافة أطرافها، كم كانت تلك القاعة التي لا نملك مثيلتها في بغداد جميلة، فلم يكن لدينا أي مسرح في العراق، في تلك الفترة!

وأتذكر أن الزعيم عبد الكريم قاسم أمر بأن تخصص الأموال اللازمة، لبناء دار للأوبرا وسط بغداد، فكم كان خيال وطموح ذلك الزعيم كبيراً، وكانت دوافعه الثقافية الوطنية بارزة للعيان، فهو الذي أمر أيضا ببناء جامعة جديدة لبغداد، في منطقة الكرادة، مطلة على نهر دجلة الخالد، وتم بناء البرج، ولكن لم يتم بناء الجامعة، فقد أطاح انقلاب شباط 1963 بالجمهورية الوليدة، بمؤامرة كبرى قضت على جميع منجزات ثورة 14 تموز الخالدة.

كان الموسيقيون يعدون آلاتهم الموسيقية، وكان عددهم كبيراً، لم أشاهد مثله سابقاً فالموسيقا الشرقية لا تتجاوز آلاتها خمس أو ست آلات.

وبعد قليل سمعنا الدقات المؤذنة بافتتاح الباليه، وخرجت البجعات الجميلات، بزيّهن الوردي، وهن يتماوجن مع موسيقا جايكوفسكي، ويتزلقن بكل مرونة كبجعات حقيقية، يزين أطرافهن ريش البجع الجميل.

ولا أظنني خاطئاً، بأن الموسيقار الكبير جايكوفسكي استمد مسرحيته واضعاً تلك الموسيقا السحرية، من بجع مدينة كمبردج، التي عشت فيها بعض الأعوام، وكنت أرى البجعات وهنّ تتمرجحن بجمال وخفة في نهر (الكامب)، فتبهجنَ الناظرين بتلك الحركات، وهنّ تتمازحن برقابهن الطويلة، وكأنهن تتراشقن القبلات، ونحن مسحورون بتلك اللقطات المعبرة، عن الجمال والحب، والتي تثير في نفوسنا أعمق وأجمل المشاعر.

كنت منسجماً مع الرقص الفني الرائع، ولا أستطيع أن أتحرك، وأحيانا أحبس أنفاسي أمام الخطوات الخطيرة والجميلة، حين تتقافز البجعات الإنسانية، لتشكل منظراً فنياً في لوحة لا يمكن وصف جمالها.

كنت في تلك الساعة أتذكر حدثاً فريداً في عام 1917، حين وصلت راقصة الباليه الأمريكية المشهورة جداً (دونكان)، إلى عاصمة البلاشفة لتحيي ثورتهم الشعبية.

وهي ترقص في البولشوي رقصات بجعة (جايكوفسكي)، وكان وجودها حدثاً عالمياً مثيراً في تلك الفترة، التي قاطع، وحارب فيها المعسكر الرأسمالي برمته الثورة البلشفية، فكيف تتجرأ راقصة باليه

أمريكية مشهورة بتحية الثورة الوليدة، ودعمها فنياً أمام عتاة الرأسماليين، كانت دونكان بذاتها قطعة فنية جميلة جداً، أثارت الشعب الروسي وجعلته في غيبوبة سحرية، وهي تمثل الدور الجميل بحيرة البجع.

ولعل أهم ذكرى لتلك الفنانة العظيمة ما حصل لها مع شاعر روسيا الشهير (يسينين)، حين التقيا في محفل ثقافي، فعشق أحدهما الآخر، والتقى الشعر بالرقص والموسيقا، فكوّنا لوحة فنية رائعة، سحرت جميع الموجودين في ذلك التجمع الثقافي، وكان يسينين - وهو في سكرته - يكتب على جدران الملتقى الثقافي (أحبك يا دونكان) مالئاً جميع الجدران بتلك الكلمات، وكانا يرقصان ويشربان الفودكا وهما في عالم النشوة والعشق حتى الصباح.

كان حديث المجتمع الروسي عن لقاء العشق بين شاعرهم والراقصة العالمية دونكان، وكانت البهجة تشرق في نفوس الجميع، من ذلك التوافق والتلاؤم بين الفنانين شاعرهم وراقصة أمريكا .

لكن الزمن لم يرحم يسينين الشاعر الملائكي، والمتمرد على تعاليم الثورة الجامدة، التي أعاقت انطلاقة الشاعر الملهم، الذي كان رومانسياً في فترة ثورة وجمود يخنقان كل التوجهات الحية والمعبرة عن المشاعر العميقة للفن، الذي يريد الانطلاق والتعبير بكل ما يملك من قدرات فنية.

كتب الشاعر قصيدة وهو في حال إلهام سماها (شاكنيه)، وهو يعبر فيها عن عشقة لدونكان، تلك القصيدة التي حفظها الروس بمختلف فئاتهم ولأزمان طويلة، وكم سمعتها مئات المرات، بالرغم من منع أشعار ذلك الشاعر العظيم.

ولن أنسى مطلقا، إحدى ليالي سوجي الجميلة، ونحن الطلاب

الأجانب نحتفل بذكريات أوطاننا، قام (قاسم محمد) ذلك الشخص الملهم، ليقرأ قصيدة يسينين بصوته الجهوري الساحر، الذي سيطر به على جمهور المستمعين، وهم في حالة انفعال من شخصه وصوته، الممزوج بمعاني تلك القصيدة، التي ملأت قلوبهم بالفرح.

وعند انتهائه من إلقائها بقي الجمهور يصفق بعنف لعدة دقائق، طالبين منه تكرارها، أي فخر وأي فرحة ملأت أنفسنا نحن الطلبة العراقيون، ونحن نشاهد تلك الحفاوة والتقدير لفناننا الكبير (قاسم محمد)، ذلك الفنان الذي عمل عند عودته إلى العراق على تجديد فن المسرح، وأخرج مع فرقة الفنان يوسف العاني أحلى وأجمل المسرحيات العالمية والمحلية، وفي مقدمتها (النخلة والجيران)، محولا رواية كاتبنا الكبير (غائب طعمة فرمان) إلى مسرحية، حازت إعجاب جمهورنا العراقي، وبقيت خالدة في نفوس العراقيين، حتى الوقت الحاضر، بفنانها المخرج قاسم محمد، وممثليها الكبار، وممثلاتها (زينب، ناهدة الرماحي.. إلخ)، ولكن ذلك الفنان لم يلق من البعث السابق، أي احترام أو تقدير لفنه، بل عومل معاملة قاسية، مما اضطره إلى الهجرة لدولة الإمارات العربية، وتوفي هناك، وسجي في التراب، شأنه شأن المهاجرين الكبار، من فنانين وشعراء كالجواهري وغيره، الذين وافتهم المنية، ودفنوا في تربة غريبة عن التربة التي عاشوا عليها، وأحبوها، ونذروا نفوسهم لها، لكن الحاكم القاسي لم يستطع أن يفهم عمق وحب الشاعر والفنان لوطنه، فحولهم إلى مهاجرين يبكون في البعد وطنهم الحبيب.

كتبت قصيدة مهمة فور وفاة شاعرنا الكبير، أناجي بها دمشق أن تحترم روح وجسد الشاعر في أرضها، وهذه بعض أبيات القصيدة التي قاربت المائة بيت.

قسما دمشق حضنت أعظم شاعر فتشرفت دنياك وانبهر الثرى

أسكنتموه جوار زينب مرقداً قبل المقام تأدباً وتحضرا

فمقامه جنب الإمام بروضة شرف يضاف لشاعر ما غيرا

(2)

دخلت في منتصف تشرين الأول معهد اللغة الروسية، في محلة جميلة تدعى (الجريومشكي)، وسألت عن معنى هذه الكلمة صعبة الحفظ، وكنت مبتدئا في تعلم اللغة، فلم يجبني أحد، حتى حدث في أحد أيام إقامتي في مدينة (لينينغراد) وكنت في سياحة لإحدى المدن القريبة، وتدعى (زيلينوكورسك) أي المدينة الخضراء.

وسرت مع صديقتي خلال غابات تلك المدينة البهيجة، ذات الأشجار التي تلامس الغيوم، وبطول أشجار الصنوبر ذات الروائح الزكية، فجأة شممنا رائحة قوية يكاد أن يدور الرأس لها؛ لتغلغلها السريع في أنوفنا، قالت مرافقتي: إنها شجرة (الجريومخ) وجمعها الجريومشكي، وكانت زهورها صفراء تملأ الأغصان من الأعلى إلى الأسفل بعطرها الفواح، في ذلك الفضاء المليء بروائح الأشجار العديدة، غير أنها تتميز عن تلك الروائح بقوتها، ورائحتها السحرية التي تصل أحاسيسنا وتنعشنا بدون إنذار، عرفت آنذاك ما معنى (الجريومشكي)، التي لا أعلم ترجمتها إلى اللغة العربية، فلا أعتقد أننا نملك في عوالمنا الحارة مثل تلك الزهرة اليانعة، ذات العطر النفاذ.

تعرّفت إلى مدير المعهد الكهل والطيب، كان وجهه يوحي بالثقة، وكانت المترجمة تنقل لي الترحيب الحار في ذلك المعهد الذي دقّ قلبي عندما تخطيت عتبة بابه، فلم أكن أتصور يوماً أن أجيد معرفة اللغة الروسية الصعبة، التي تثير عجبي معرفتها من قبل أصدقائي، وحديثهم الطلق بها، وكنت أسأل نفسي، هل سيأتي اليوم الذي أجيد فيه الكلام بتلك الرصانة الغريبة على مسامعي.

تذكرت ما قاله أحد المسافرين – وكان قبرصي الجنسية – مستغرباً

لي، حين كنت راكباً في القطار الذي كان يقلّني من اليونان إلى يوغسلافيا، حين أخبرته بأنني مسافر للدراسة في روسيا، فقال: يا أخي الأفضل لك أن تعود إلى لندن، فمعرفتك الإنكليزية تسهل عليك دراسة الموضوع الذي تريده، طبعاً لم أستمع لنصيحته، وها أنا أدخل المعهد المختص بتعليمنا اللغة، الذي تخرّج فيه الكثير من الإخوان والأصدقاء.

دخلت الغرفة المخصصة لنا، وكانت تحتوي على سريرين، أحدهما مخصص لي، وشغل السرير الآخر (جمال) القادم من مدينة الموصل، وكانت الغرفة فقيرة الأثاث، لا تحتوي على شيء سوى خزانة نضع فيها ملابسنا، وطاولة للكتابة مع كرسيين من الخشب الأحمر.

في الصباح دخلنا الصف، وكان عددنا خمسة طلاب (حكيم الداعي، سامي، حسين، عبد الواحد، وحياة شرارة)، سلمنا على المعلمة الجميلة، التي بدت أصغر من أعمارنا بالسلام الروسي (زدراستفوتي)، الذي رددناه مراراً، كي نحفظه ونحييها نظراً لصعوبة تهجئته.

استقبلتنا (لودا) معلمتنا بابتسامة جميلة، تفصح عن طيبتها، واستعدادها لتعليمنا اللغة الصعبة، وهي تقول حتماً في نفسها: ما هذا الرهط الكبير السن، الذي سأقوم بتعليمه، وهل أنا قادرة على ذلك؟!

كان اليوم الأول في غاية الصعوبة، ونحن نحاول أن نتعلم الحروف الروسية، التي تختلف كثيراً عن الحروف الإنكليزية شكلاً ولفظاً.

في ذلك المساء، جلست في الغرفة وحيداً، متفكراً بأحوالي، ومتسائلاً: هل خطوتي التي خطوتها للدراسة في روسيا صحيحة؟ وهل أتيت إلى روسيا بحجة الدراسة، هارباً من وطني، الذي يقف على حافة حريق هائل، ومعارك كنت أتنبأ بها؟

بعد تفكير طويل، وجدت نفسي أنني اخترت الطريق الصحيح في قدومي إلى روسيا لتكملة دراستي العليا.

واعترفت بأنني جئت هارباً من العراق، ومن الحزب الذي انتسبت إليه (الحزب الشيوعي)، فقد كان حدسي وعقلي وتربيتي البرجوازية تحذرني وتملؤني خوفاً، من الاستمرار في ذلك الطريق، غير الملائم لأمثالي من أبناء الطبقة البرجوازية، وكنت قبل الانتساب للحزب أساهم في فعالية كبيرة في النشاطات الوطنية في النجف وبغداد، وكم عرضوا عليّ الانتساب للحزب، ولكنني رفضت، كنت أرفض الارتباط لمعرفتي بأن الانضباط الصارم والنقد الذاتي لا يتلاءمان مع طبيعتي ونهجي في الحرية، والتحرر من كل القيود، مهما كان نوعها، وبعد الثورة انتميت إلى الحزب، واكتشفت بعد فترة قصيرة أنني لا أصلح للعمل في الحزب الشيوعي، ذي المركزية الشديدة والانضباط الذي لا يطاق، ولم أرضَ أن أكون ترسا في تلك الماكنة الكبيرة، التي تدير المنتمين، وكأنهم (روبوتات) تتحرك وفقاً لأوامر عليا، لا يجوز مناقشتها بل يسمح بعد التنفيذ بالحديث والمناقشة، ولكن بعد فوات الأوان، وكنت أتضايق كثيراً من العمل في خلية، فهي تحتوي على أناس مليئين بالعُقد، وهمّهم الرئيس هو توجيه الانتقادات إلى سلوكي وسلوك الآخرين، وكنت لا أرتضي بالإنذارات المتوالية، بوجود مؤامرات ضد الجمهورية، وكم بتنا في شوارع الأعظمية، تحسباً لمؤامرة قادمة، وبعد ذلك يتبين أن لا مؤامرة هناك، فما المقصود من إهدار طاقتنا وتجميد نشاطاتنا الأكاديمية، وعدم دخول المحاضرات، والمبيت في نادي الكلية؟ كل ذلك ليس من أجل الإطاحة بالمؤامرات المزعومة، وإنما من أجل الانضباط، والربط الذي يجمد نشاطك وعقلك، لتكون عبارة عن (روبوت) يسير كما يريد الحزب.

تجمعت لديّ كل هذه التناقضات والصراعات، من أجل التحرر من تلك القيود المفروضة على حياتي وحركتي، فقررت الخروج والاستقالة من الحزب، والتوجه نحو الدارسة الجدية والأكاديمية لخدمة بلدي وشعبي، وهذا ما يتلاءم مع أفكاري وسلوكي البرجوازي، كما كانوا

يسمونه، وكان من الأمور المهمة التي جعلتني أنفر من التنظيم الحزبي، وصرامته غير المبررة، ما كنت أتلمسه من القادة القادمين من السجن وسلوكياتهم غير المقبولة من قبلي، فقد كان الغرور هو السائد في تلك السلوكيات، حيث يتصورون؛ وهذا كان دين الأغلبية، أنهم أفضل وأكثر ثقافة ووطنية منا، لذلك يجب علينا طاعتهم، وعدم المناقشة بأية مواضيع خطيرة ومطروحة في الساحة.

وكانت السياسة القاتلة في الأحزاب التوليتارية: نفذ ثم ناقش، ولكن متى تناقش بعد أن يحصل ما لا يمكن مناقشته من أخطاء.

واسترعى انتباهي أولئك الرفاق، وهم يؤدون الامتحانات لعبور مرحلة دراسية، وكيف كانوا يمارسون الغش العلني، وهذا يتنافى كلياً مع تضحياتهم ومواقفهم السابقة، ومعاناتهم في السجون، فكيف يمارس من ضحى بحياته وحريته الغش في الدراسة، لنيل الشهادة بسرعة.

كما إن ما أثارني كثيراً، هو ما كنّا نمارسه إزاء أعضاء الأحزاب القومية، ومحاولة فرض إيديولوجيتنا عليهم بالقوة، وهذا ما زاد من نفورهم ومقاومتهم لنا، ولم نكن ندرك أهمية التوقف عن تلك الممارسات غير المقبولة.

كنت في حالة فزع، مما سيحدث في مستقبل البلد، بعد تلك الصدامات الدامية والخلافات العميقة بعد سني الخمسينات قبل الثورة، من التوافق والتفاهم والاتحاد في جبهة واحدة، وكنت أستيقظ قبل سفري كل يوم مرعوباً، من حصول انقلاب دامٍ وقاتل، نذهب جميعاً ضحية له، ولذلك عندما حانت فرصة السفر والهروب لم أتردد في استغلالها والسفر بعيداً عن ذلك العالم المرعب الذي لف بلدي.

ولا يمكنني أن أمر مرور الكرام على بعض الشخصيات الثورية والوطنية، فكيف يمكنني نسيان (عدنان البراك)، ذلك الشاب النحيل

الأسمر الذي رافقنا طيلة عام كامل في كلية الحقوق، عضواً في لجنة اتحاد الطلبة، كان مثقّفا عميق الفكر، مقتدراً ومتواضعاً، لم يكن مغروراً بكونه أحد السجناء الخارجين لتوهم من السجن، بل كان يعمل معنا نحن الطلبة في هذا الحقل.

ولكن لم يكن بعيداً عن الصحافة الحزبية، فقد كان صحفياً موهوباً، حيث يكتب يومياً مقالتين، إحداهما لجريدة اتحاد الشعب والأخرى لصوت الأحرار.

كان عدنان خطيباً مفوهاً ومقنعاً في خطابته، فكم كان يلعب دوراً في تخفيض حدة التوتر بيننا وبين البعثيين، حيث يشتد الصراع ويوشك أن يتحول إلى معركة، فكنا نخرج من القاعة أصدقاء متفاهمين، لعمق ما يطرحه عدنان من طروحات وطنية تفضي إلى التفاهم بأهمية الصداقة، فقد كنا بحاجة - نحن الطلبة اليساريون - إلى الوعي لإدراك الأخطاء التي كنا نرتكبها يومياً، بفعل سلوك القادة الجهلة من كافة الأطراف.

كنت صديقاً لعدنان، وكنا نخرج من الكلية، مشياً على الأقدام، من سكة القطار حتى باب المعظم، وكان يحدثني بكل تواضع عن عواطفه الرقيقة، بعيداً عن السياسة وهمومها.

حدثني مرة عندما شاهد تمثيلية (أنا أمك يا شاكر) للفنان يوسف العاني، وتمثيل الراحلة زينب، وكيف كانت دموعه تنهمر، عندما تتحدث زينب عن فقد أبيها بأسلوبها الحزين، فلم يتمالك نفسه عن البكاء، ذلك المناضل الصلب الذي لم يبك مرة واحدة في سجن (نكرة السلمان)، كما أنه لم يبكِ عندما عذبه الجلادون في قصر النهاية حتى الموت، فقد علموا أن أمثال عدنان من المناضلين هم ذخر الشعب العراقي، فقاموا بتصفيته وتصفية الأبطال الصامدين تحت التعذيب، وهكذا فقدنا ذلك البطل المثقّف والمقدام والصحفي الموهوب والإنساني الرائع.

التقيت بزوجته سهيلة (أم مازن) في موسكو، وكانت معالم الحزن تغطي وجهها وتكتنف كلامها، وكان زوجها عدنان قد فارق الدنيا حين المقابلة منذ زمن طويل، فسألتها وأنا أمزح معها وهي الشابة:

– ألم تتزوجي بعد عدنان؟ وأنت المرأة الجميلة والمرغوبة من قبل الشباب؟! أجابتني والعبرة تخنقها:

– كيف تسألني مثل هذا السؤال المهين؟ أأتزوج من بعد ذلك الإنسان الرائع الذي قضيت معه أجمل أيام حياتي؟! وهو بالرغم من مهامه الحزبية والصحفية كان يدللني ويرعاني، كما يرعى أطفاله، فكيف يمكن أن أتزوج بل أنظر إلى رجل آخر ليحل محل ذلك الإنسان البطل عدنان.

بدأنا الدراسة في الطابق الرابع من المعهد، في قاعة صغيرة تحتوي على خمس رحلات وسبورة، وكان معي خليط من طلاب أكبر سنّاً من عمري، وهم سامي، عبد الواحد، حسين قاسم، حياة شرارة وأنا.

جلسنا كما يفترض من الطالب مهما كبر سنه، وعلا شأنه، أن يكون ملتزماً ومؤدباً ومصغياً لما يقوله المعلم.

كانت معلمتنا فتاة لا يتجاوز عمرها العشرين عاماً، كانت فتاة شقراء جميلة الملامح عيونها زرقاء وخدودها حمراء كتفاحتين (ارادن الكردية الحمراء)، وكانت رشيقة بامتلاء، تثير وهي تتلوى أمامنا كل الغرائز والمشاعر نحن المحرومون في بلد اسمه العراق، فكنا موزعين بين التعلم والهيام في عالم حب تلك الفتاة الجميلة، مدرستنا واسمها (لودا).

لعلّي لا أبالغ إذا قلت: إن وجودها الساحر المؤثر كان أحد أسباب اجتهادي ومحاولتي الحصول على رضاها، بحفظ الدرس الذي تطلبه منا، بالرغم من صرف الساعات الطويلة، في محاولة فك رموز الكلمات الروسية الصعبة، في الكتابة والقراءة والتهجي في أيامنا الأولى.

كنا نتبارى في حفظ الدرس أنا وحياة، رغبة في التعلم والغوص في آداب وعلوم المجتمع المتطور علمياً وسياسياً وثقافياً، وهذا ما خدمنا أنا والمرحومة حياة في تطوير إمكاناتنا الدراسية والثقافية، وبذل الجهود الكبيرة للتعلم، فاللغة الروسية من أصعب اللغات العالمية، وبالفعل أثبت كلانا صحة ما انتهجناه من مواصلة وجدية في الدراسة والتعلم، سواء كان ذلك في روسيا حيث أنهينا دراستنا بتفوق، أو في العراق في الدراسات الأكاديمية في جامعة بغداد.

بخلاف جديتنا، أنا وحياة، كان الثلاثة الآخرون يجهدون ويحاولون التعلم، ولكن بدون رغبة أحيانا، أو الاستسلام أمام صعوبة دراسة وتعلم اللغة الروسية، فلم يستطع عبد الواحد أن يتعلم اللغة، أو يتعلم المنهج الذي اختاره لتكملة دراسته.

رافقني الشخص المذكور عبد الواحد إلى مدينة لينينغراد، للالتحاق بكلية القانون في جامعة لينينغراد، هو وشخص آخر يدعي (محسن) التحقنا بالكلية، وتمت مقابلتنا من قبل الأساتذة في الاختصاصات المختلفة، وكان لقاءً ودّياً وعلمياً، طلبوا منا دراسة بعض الكتيبات والعودة بعد أسبوع لمناقشة المواضيع الموجودة في الكراسات، جلست لساعات طويلة لدراسة الكرّاس (التعايش السلمي)، وعدت لمقابلة الأساتذة المذكورين أعلاه.

لم يحضر معي عبد الواحد، والشخص الثاني محسن، وتحدثت معهم بكل صراحة عن الصعوبة التي واجهتني بدراسة الكرّاس، ولكنني لم أنهزم أمام الصعاب كما لم أنهزم من تعلم اللغة الروسية الصعبة جداً، وعندما سألوني عن زملائي، لم أجبهم بصراحة، إنهم غير قادرين على استيعاب ما أعطي لهم، لكن ما حصل بعد أسبوعين وأنا مستمر في لقاءاتي بقسم القانون الدولي، أن عبد الواحد غادر لينينغراد، قائلاً كلمة فجّة لا علاقة لها في عالم الدراسة مدعياً (إنه لا يستطيع أن

يعيش في البلد الذي يدرس فيه حكيم)، غادر ولا أعلم كيف استطاع أن يكمل دراسته، ويحصل على شهادة الدكتوراه، التي أشهد أنه غير مؤهل لأية دراسة جدية أو علمية، فقد كان زميلي في كلية القانون لأربع سنوات، ولم يستطع النجاح طيلة تلك السنوات، في الفصل الأول، بل كان يمتحن في الفصل الثاني في الدروس التي لم يجتزها، وكان معدله عند التخرج متواضعاً جداً، فكيف استطاع أن يحصل على زمالة الدراسة في الاتحاد السوفيتي؟!

وهنا لا بدّ من قول الحقيقة، بشأن مستوى العدد الكبير من الطلاب، الذين التحقوا بالدراسة في روسيا، فلم يكونوا مؤهلين لتلك الدراسات العلمية والصعبة، بل كان الكثير منهم من خريجي الثانويات ممن نجح بسنة (الزحف)، التي منحها عبد الكريم قاسم سياسياً للطلاب الراسبين، ولم يرعَ الروس هذه الحقيقة، لكي يتشددوا مع القادمين من العراق، كما أنهم – أي الروس– تساهلوا كثيراً مع الطلاب العراقيين، ومنحوا كثيرا منهم شهادات بدون استحقاق، خصوصاً في المجال الطبي، مما لعب دوراً في تشويه سمعة الدراسة في روسيا، بسبب الفشل من الخريجين، في مستقبل أعمالهم الطبية والعلمية والإدارية، وكان أحدهم عبد الواحد الذي لم يستطع مواصلة التدريس بنجاح في كلية القانون، ولا أنسى أنه درس معي في الجامعة المستنصرية موضوع الإصلاح الزراعي، وفي نهاية العام منح جميع الطلاب المستحق منهم وغير المستحق درجات عالية (90 – 95)، بينما لم يحقق أغلبهم النجاح في الدراسة، وحصلوا على درجات منخفضة جداً، مما اضطرنا إلى الاستغناء عنه في السنة الثانية، وبان ضعفه وعدم معرفته اللغة الروسية جيداً، عندما اكتشفت ذلك في ترجمته كتاب (قانون الكلخوزات) الذي أحيل لي لتقييمي ترجمته، لقد كانت الترجمة مضحكة وركيكة جداً، وقد قدمت تقريراً يتألف من حوالي مئة

صفحة فاضحاً جهل الرجل بالقانون واللغة معاً، وقد تعجبت الموظفة في الجامعة عندما استلمت مني التقرير، متسائلة وهي تضحك، أيهما الترجمة وأيهما التقرير؟! لضخامة أوراق التدقيق، وهذا هو مثال الطلبة الضعفاء الذين أساءوا لبلدهم، وللبلد الذي تعلموا فيه ويشترك في هذه الخطيئة رجال التربية والتعليم من العراقيين والروس.

والشخص الآخر في مجموعتي هو (حسين)، وكان الرجل كبيرا في السن، لا يستطيع حفظ الكلمات أو التلفظ بها، وكانت المدرسة تؤنبه على عدم قدرته على التعلم، وأتذكر مرة أنه أراد لفظ كلمة إنسان بالروسي (جيلافيك) فحفظها على نسق (جلبي) بالعربية، ولكنه لم يستطع إيصال المعنى للروس لهذه الكلمة؛ فالتعبير بتلفظ الكلمات بغير الطريقة واللكنة الروسية يشوّه معناها أو يغيرها، فلا غرابة أن هذا الرجل كتب أطروحته للدكتوراه بالعربية، وهذا غير مقبول من الناحية الأكاديمية؛ ولكن الروس تساهلوا لأن الشخص كان شيوعياً معروفاً.

والشخص الثالث في مجموعتنا هو (سامي)، هذا الإنسان الذي عرفته منذ دخولنا كلية القانون، وكانت تجمعني به صداقة جيدة، فلم يتمكن هو الآخر بالرغم من جديته من تعلم اللغة الروسية كما يجب، ولكنه تعلمها كتابة وقراءة، إلا أنه لم يسيطر على (الفونوتيكا)، فقد كانت اللهجة العراقية والتعثر في نطق الكلمات، مصاحبة له حتى الأيام الأخيرة من لقاءاتنا، التي انتهت في المغرب، ولذلك قصة أخرى أودت بعلاقتنا من جانبه، فقد كنا خلال وجودنا في الجامعة أصدقاء لا ينفرط عقد صداقتهم، وكنت نصيراً له في جميع مواقفه المعنوية والمادية بكل أشكالها، ولكنني وبعد إبعادي من الجامعة لميولي اليسارية، وعدم انتمائي لحزب البعث، سافرت إلى المغرب للتدريس، إلا أنني وجدت صديقي قد تغيرت مبادئه وسلوكياته، حتى إنه كان يتحدث بكلام غير منطقي، لإبعادي عن المغرب، فقد كانت له علاقة ودّية مع

السفارة العراقية، وقد تسبب في إحدى المرات بمرض زوجتي الخطير، بعد أن ادّعى أنّ السفير العراقي قال إني أقود تنظيما معاديا للعراق، بين الطلبة العراقيين، وكان ذلك افتراءً خطيراً، ما زلت أذكره بعد أن غادرت زوجتي مع أولادي المغرب، ولا زال ذاك الصديق الذي عشنا أيام شبابنا أحلى الأوقات يقاطعني، ولا يريد إعادة العلاقة معي، فقد تغيّر جوهرياً، ولم يكن يريد التواصل معي، ومع جميع أصدقائه في العراق، فقد قطع جميع الأواصر والجذور مع وطنه، ولم يحاول الاطمئنان علينا، وقد مرّت حروب ثلاثة عشناها كأبشع ما يكون، متعرضين إلى الموت الزؤام، بسبب مغامرات رئيسنا الراحل.

والشخص الخامس في مجموعتنا كانت الراحلة حياة شرارة، وكنت أتبارى معها في حفظ الدروس التي كنت أقضي في حفظها وتعلمها أكثر من عشر ساعات يومياً، وكانت حياة مثال الإنسان الجدّي والطيب، وقد حصلنا في نهاية الكورس الدراسي على درجة خمسة من خمسة، هذه هي درجات المعمول بها في التدريس في روسيا، كانت حياة مولعة بالقراءة ومتابعة العروض الفنية لموسيقا الأوبرا، والباليه، والمسرح، وقد استفادت كثيراً من تلك الأماسي، ومن المطالعات في كتب الروس القدماء والمحدثين، وحين عادت إلى العراق، وعملت في الجامعة، قدمت الكثير للطلاب العراقيين، من تراجم لكبار الكتاب السوفييت والروس، كما أنها كتبت رواية بعنوان (إذا الدنيا أغسقت) قبل انتحارها، واصفة الحياة بعمق في ظل النظام الفاشي، وخصوصاً ما كان يتعرض له المثقّفون العراقيون، في ظل حكم البعث، وما أبدعه صدام في قياس وزن الأساتذة وغيرهم من الموظفين الكبار، بغية إهانتهم وتطويعهم وجعلهم عبيداً يخدمون النظام.

كما أنها كتبت كتاباً جيداً عن الشاعرة الموهوبة (نازك الملائكة)، وقد نال الكتاب الإعجاب من المثقّفين العراقيين.

(3)

جلست في غرفتي، في الطابق الخامس من معهد اللغة الروسية، سارحاً بأفكاري بعيداً إلى وطني، كنت أقارن بين حياتي السابقة وحياتي الحالية، وجدت أن الفرصة التي أُتيحت لي، غيّرت بشكل دراماتيكي حياتي، وبدأت أنظر للحياة من منظور آخر.

كانت سنة 1962 سنة مهمة ومنعطفاً كبيراً في حياتي المقبلة، أدركتُ أن بعض السنوات في حياة الإنسان تملك أهمية كبرى؛ لما تحمله في طياتها من انقلابات إيجابية أو سلبية، فقد غيّرت بعض السنوات التي عشتها في روسيا وخارجها الكثير من حياتي وعاداتي وعلاقاتي الإنسانية، ومن هذه السنوات المهمة سنة 1966، 1968، 1981، التي عشتها بكل طاقاتي ومسراتي أحيانا، وأحيانا أخرى قاسيت الكثير في سني 1980 – 1981 نتيجة لما قامت به حكومة البعث من تصرفات خرقاء، لا تدل على حكمة ودراية، وسأفصل ذلك في الصفحات القادمة.

بدأت بالتحول في المجال الفكري والثقافي، فقد انفتحت أمامي آفاق كبيرة في الثقافات الإنسانية الواسعة، وقد تركت الجمود العقائدي السابق، وانفتحت أمامي سبل الحياة المختلفة، ثقافياً وإنسانياً وواقعياً، بعد أن كنت في بغداد مغمض العينين، لا أرى كما يرى (البغل المربوط في الناعور) سوى نافذة صغيرة، أطلّ من خلالها على نهج واحد، وطريق واحد، لا نعرف غير أننا كنا في حذر من التعلم من المدارس الثقافية الأخرى، خشية التحول الفكري، الذي قد يحصل نتيجة معرفة المدارس الثقافية والأدبية، ونتحول من مناضلين جامدي التفكير، لا نرى سوى ما يُعطى لنا من كراسات أو كتب.

وهنا وجدت الكثير من جماليات الحياة الأدبية والفنية، وتعرّفت إلى مدارس أخرى في الثقافة، وهي المدرسة الوجودية التي كنا نخاف

ولوجها، لأنها كما كان يقال لنا عنها، إنها سوف تجرفنا عن طريقنا في النضال الثوري.

كان لوجود شاب معنا في القسم الداخلي وهو (محمد كامل) أثرٌ مهم وكبير في معرفة الوجودية، وكنت قد تعرّفت إلى محمد في بغداد، يوم حضرت إلى نادي الخريجين، وكانت ليلة أدبية، ألقى فيها محمد قصة قصيرة حازت على رضا الجموع المثقّفة، من الدول المختلفة، ومن ضمن الحاضرين عرّفني محمد إلى الصديق الراحل رشدي العامل، في تلك الأمسية، التي بقيت راسخة في ذهني، وكانت لقاءاتنا طويلة وصاخبة، فقد كان محمد ملتزماً، ولم أفهم ذلك إلا بعد التبحر في المذهب الوجودي، كنا نجتمع في غرفتي مرتين في الأسبوع، نعاقر الخمرة ونستمع إلى الموسيقا والغناء الفيروزي، ويستمر الحديث والجدل إلى ساعة متأخرة من الليل، وكنت أجادله منتقداً أفكاره الوجودية، ولم يكن ضجراً من جدلي حتى استطاع أن يقنعني أن الجمود الذي جئت به من العراق، لا يصلح لعالمنا الغني بالفكر المنوّع والأدب الإنساني الواسع، وبدأ يقدم لي الكتب الثرية بالمعلومات والأفكار الإنسانية، وكان في مقدمة تلك الكتب التي أخذت تغيّر أفكاري وحياتي، كتاب سارتر (دروب الحرب).

نعم كانت دروب الحرب الجميلة والمليئة بالتناقضات الحياتية هي التي فتحت أبواب مخّي، لتقبل الفكر الوجودي الملتزم لدى ذلك الكاتب العظيم.

سهرت الليالي مع الكتاب، بالرغم من انشغالي ساعات طويلة في التحضير لدراسة اللغة الروسية، إلا أن المتعة والمعرفة أغنتا حياتي، ودفعتا بي إلى ألّا أنام سوى سويعات قليلة، للانتهاء من ذلك الأدب الفني المليء بالدروب الرائعة، التي يسلكها أبطال سارتر في الحياة

العامة والجنسية والأدبية، بدأت مداركي تتفتح منذ قراءتي لدروب الحرية.

بدأت بالانتقال من الدرب الضيق إلى رحاب العوالم الجديدة، التي تعرّفت إليها وبدأت أنشدها، وأحاول أن أسير في دروب الحرية الجديدة، التي هبطت على عقلي وقلبي وغيّرت حياتي الفكرية والعاطفية والجنسية، وأخذت أسير مفتوح العينين في حياة جميلة، حياة الحرية التي أتاحت لي أن أنهل من عيون الأدب والفكر العالمي الروسي والسوفيتي والفرنسي والإنكليزي، وكلما وقعت في يدي كتب أدبية تلقفتها بشوق، وأخذت أقرأها بكل جدية ومتعة جديدة لم أكن أعرفها أبداً، من قبل تعرّفت إلى شخصيتين أدبيتين عراقيتين هما عبد الوهاب البياتي، وغائب طعمة فرمان، كان عبد الوهاب مقيماً في موسكو وعند زيارتي له وجدت أنه يحتل شقة فاخرة، أكرمه السوفييت بها، وكانوا يهتمون به كثيراً نظراً لمكانته الشعرية وأشعاره القابلة للترجمة الروسية، ولعلّي لا أذيع سراً إذا قلت إن دواوينه ترجمت إلى اللغة الروسية، وإحدى تلك الدواوين قدم لها شاعر التركي الكبير (ناظم حكمت).

وجدت هذه المقدمة مدحاً كثيراً لشعر البياتي، كما وجدت هناك معلومات غير صحيحة ادّعاها الشاعر، فقد ورد أنه كان محكوماً بالإعدام في العراق، واستطاع الهروب واللجوء إلى الاتحاد السوفيتي، وهذا الكلام غير صحيح، ولم يتعرض أحد لشخص الشاعر، الذي واكب جميع الأنظمة، وكان في عهد حكم البعث ملحقاً ثقافياً في إسبانيا.

في إحدى الجلسات المسائية في شقة الشاعر البياتي، قال لنا: إنه نظّم شعراً بالإنكليزية، وعندما بدأ يلقي الشعر، (كركر) ضحك صديقنا فائق أبو الحب، فما كان من الشاعر إلا ورماه بكأس الفودكا.

بعد تلك الحادثة انفضّت الجلسة، ولم أعد إلى مجلس الرجل ثانية، وهناك حقيقة لا بدّ لي من ذكرها عن الشاعر، فقد ترك الاتحاد السوفيتي طوعا متجها إلى القاهرة، وكانت القاهرة آنذاك في خصومة سياسية في بداية الستينات من القرن الماضي مع الاتحاد السوفيتي، فانتهز شاعرنا الفرصة ليشتم وينتقد السوفييت، مدّعياً أنهم ضايقوه ولم يقدموا له ما يستحق من العناية، وهذا يخالف الحقيقة، إذ لم تقدم العناية لأديب أو شاعر كما قدمت للشاعر العراقي البياتي.

والأديب الثاني الذي تعرّفت إليه هو غائب طعمة فرمان، ذلك الروائي العراقي الموهوب والمعبر بكل أمانة وشفافية وجمال عن مجتمعنا العراقي، بما كتب من روايات تدور كلها عن المجتمع العراقي، وفي مقدمتها، القربان، النخلة والجيران، خمسة أصوات، وغيرها من الروايات التي أخذت مكاناً متميزاً في الأدب العراقي والعربي.

كان غائب إنساناً طيباً ومتواضعاً جداً، وهو عندما يحدثك يتكلم بكل بساطة، ولا يشعرك بأنه ذلك الكاتب الكبير والمشهور وطنياً وعربياً، وكانت جلسته فكرية وصريحة، ولكنه كان يعاقر (الفودكا) بشكل مستمر، ويومياً، لدرجة أنه أودى بحياته، فضلا عما كان يعانيه من غربة، بعيداً عن الوطن، مع الأسف، قضى نحبه قبل الأوان بسبب هاتين الآفتين.

تلك اللقاءات والقراءات الشعرية والأدبية وجمال الطبيعة الموسكوفية، خلقت مني إنساناً مهتماً ومنطلقاً، وواسع الأفق، فلم أكن جامداً محدود الأحاسيس والتفكير كما كنت في العراق.

وكنت أبحث عن مواقع الجمال في الفن والأدب، كما وأبحث عن النساء الجميلات اللاتي حرمنا كثيراً من مرافقتهن واستضافتهن في قسمنا الداخلي، فقد كان ممنوعا علينا إدخال النساء عموما، وهذا

التطبيق حرمنا من مصاحبة الشقراوات الروسيات، وكنت أحياناً أصادق بعضهن وأرافقهن إلى المطاعم والمتنزهات، وأحياناً يستضيفني صديق عزيز (حميد)، فيتنازل لي عن غرفته في القسم الداخلي، الذي يعيش فيه أخي الصغير.

فكنت آنس برفقة إحدى الفتيات (لوسا)، ولكن تلك اللقاءات كانت متباعدة، فكنت أشعر بالحرمان الجنسي، خصوصاً وأنّ المغريات في موسكو كثيرة ومتنوعة بتنوع النساء الشقراوات والسمراوات من كل الأجناس، الروسية، الطاجيكية، الكازاخية، وبقية الجمهوريات الآسيوية، وكانت لدى الشباب حرية جنسية لا تلاقيها في مدن الغرب الأوربية، ما عدانا نحن المحرومون الساكنون في (الجريومشكي).

انفتحت الآفاق الكبيرة أمامي، لأنهل من الأدب والفن في هذه المدينة، والعاصمة المرموقة في العالم (موسكو)، فتوجهت بكل طاقاتي ودوافعي الجديدة نحو التعرّف إلى الفن والأدب بتنوعه، موسيقا، باليه، مسرح، سينما، فتعرّفت إلى عوالم جميلة لم أكن أطمح في الوصول إليها.

كان المسرح الموسكوفي متطوراً من الناحية الفنية، والقدرات الإنسانية، فقد حضرت العديدة من المسرحيات المأخوذة من كتابات الكتاب الروس، وكان في مقدمة هذه المسرحيات مسرحية (أنّا كارنينا) للكاتب العظيم تولستوي، وهي إحدى أروع رواياته، وكان المسرح الذي اعتدتُ على حضور مسرحياته (مخات)، ولا بدّ لي أن أعلّق على هذا العنوان الغريب على العراقيين، الذين لم يطأوا أرضه، ولم يعرفوا اسمه، وكان أحد الخريجين من حملة شهادة الدكتوراه، التي منحت بكل سهولة ويسر لمن لا يستحقها في الكلية، أتحدث معه عن المسرح الروسي وجرني الحديث إلى ذكر اسم المسرح (مخات)، فضحك

الدكتور (س) ساخراً من كلماتي، وأطراني إلى (مخاط)، وهذه الكلمة النابية باللغة العربية، فهي السوائل التي يطرحها الأنف، أجبته:

- ألم تتعرّف يا صديقي إلى (مخات)؟

فضحك مرة أخرى، قائلاً:

- أرجوك لا تسخر مني.

- يا عزيزي إن مخات عبارة عن حروف رمزية، لأكبر مسارح روسيا، فهي الحروف الأوائل (موسكوفسكي خودوشتفني أكاديميمجيكي تياتر) أي بالعربي المسرح الفني الأكاديمي الموسكوفي، فتصور أن هذا الرجل الذي قضى ست سنوات في موسكو، ولم يطأ بقدميه هذا المسرح العظيم، فأي مسخرة جاء بها أمثال هذا الجاهل؟!

وشاهدت على هذا المسرح مسرحية (الأبله) لدستويفسكي، وهي إحدى رواياته المهمة، تمتعت كثيراً بها وبعظمة كاتبها، وهو يقدّم النماذج المتعارضة في هذه الرواية، فالأمير الأبله والطيب القلب وحبيبته اللعوبة التي كانت تسخر منه أحياناً وتحبه أحياناً أخرى.

ولعل أجمل لقطة بقيت راسخة في ذهني، هي عندما كان الأمير في مشفى في إحدى المدن السويسرية، وزارته حبيبته الكونتيسة، وبينما هم جالسون في حديقة المشفى لاحظ الأمير عبور حمار بجانبهم، فخاطب الأميرة: انظري سيدتي، إن هذا أطيب إنسان في العالم، وهو يشير إلى الحمار، فما أروع تعبير دستويفسكي عن طيبة الأمير، الذي شبّه الحمار بأطيب إنسان في العالم، ومعنى المعاناة التي كابدها الأمير خلال حياته من معاشرة البشر، وسخريتهم منه، ومن مثاليته، فاعتبر الحمار أفضل إنسان.

كان الكاتب العظيم دستويفسكي محطتي الأولى في التعرّف إلى

الأدب الروسي وقراءته، وكم سهرت الليالي التي وضعت الأحجار الأساسية في حياتي المستقبلية، وتطوير معاريفي الأدبية، وخصوصا الأدب الروسي والسوفيتي، وقرأت أيضا للكاتب الأخوة كارامازوفا، الجريمة والعقاب، المقامر، الأبله، والليالي البيضاء، وكنت أغوص في عوالم هذا الكاتب، وفي أجوائه النفسية، في الأخوة كارامازوفا، الذي جمع بين أفراد تلك العائلة والمتخاصمين إلى درجة ارتكاب جريمة القتل للأب واتهام الابن الكبير، وكانت البطلة المنحلة الأخلاق وراء تلك الجريمة التي صورها دستويفسكي بمهارته وقدرته النفسية والأدبية.

كانت الرواية من أبدع ما قرأت في حياتي، فلم تكن قراءاتي السابقة تتعدى الروايات العربية للكتّاب المصريين.

وكانت رواية الجريمة والعقاب هي الثانية، كنت لا أستطيع النوم وأنا أبحث عن أسباب الجريمة التي ارتكبها بحق العجوز المرابية، وكيف وقفت حبيبته إلى جنبه قاطعة المسافة معه إلى المنفى في سيبيريا، كانت المعاني العميقة والنفسية في هذه الرواية من أمتع وأعظم ما تعرّفت إليه لدى الكاتب العظيم.

وكان تولستوي (النبي) الروحي للروس، وهو الكاتب الثالث الذي تعرّفت إليه، لقد سحرني بأدبه وفلسفته الروحية، وتنكره لعالم الشهوة والإنس، ذلك الأمير الكبير الذي تنازل عن أملاكه ومزارعه للفلاحين، واختار حياة الزهد والتصعيد في المجالات الصوفية والروحية.

كان مؤلف الكاتب (تولستوي) الذي انتشر وترجم إلى جميع لغات العالم (الحرب والسلام)، عبارة عن ملحمة كبيرة للتضحيات الإنسانية، وعرض هائل لمعاناة الشعب الروسي، وهو يقاوم جيوش نابليون، التي دحرها بمختلف وسائل المقاومة، وساعده في ذلك (الجنرال الجليد) الذي أمات آلاف الجنود الفرنسيين، وهم ينسحبون من موسكو بعد أن

أحرقها القائد الروسي العظيم (كوتوزوف)، وحرّم نابليون من التمتع بنسائها، وذهب كنائسها، وجمال طبيعتها، وكانت خسارة نابليون التي وصفها تولستوي بأجمل العبارات، هي مفتاح تدهور وانهيار نابليون.

وكان غرام العقيد ابن العائلة الميسورة عائلة الأمراء، الذي ضحى في سبيل وطنه وشعبه مثالا للوطنية الروسية، وكانت (ناتاشا) وهي ترافقه وتطيعه تلك الفتاة الجميلة التي كان مجالها حفلات (الباليه)، والحياة المرفّهة والرغيدة، وكيف كانت إلى جانبه تشجعه وتواسيه، وكان تولستوي في غاية الإبداع، وهو يتحدث عن الروسية وما يقدمه الروس من تضحيات في سبيل الوطن، وتمتعت بروايته (أناستاسيا) التي شاهدتها مسرحيا، وكانت من أعظم كتب تولستوي، وقد برز حب البطلة من كبير مستشاري القيصر، التي ضحت بسمعتها، ومن ثم بحياتها عشقاً لذلك الضابط الذي أحبته، متناسية حياتها والنعيم الذي عاشته وأولادها، ورمت بنفسها تحت عجلات القطار، منهية حياتها في سبيل من أحبته، ولم تستطع العيش معه.

أعد لنا المعهد سفرة بديعة إلى سوجي، بعد إكمالنا السنة الدراسية، التي أعطتنا الأسس المهمة لمعرفة اللغة الروسية، وكانت السفرة بالقطار، إلى تلك المدينة الساحرة، وكان الطريق بهيجاً وجميلاً، فقد مررنا بغابات روسيا العظيمة بأشجارها السامقة، أشجار البريوزة المستقيمة والبيضاء، وأشجار الصنوبر المعمرة الخضراء على طول السنة، وكان وجودنا نحن الطلبة العراقيون مع بقية طلبة جامعة موسكو أجمل ما قضيناه في مرابع (بوريفسنك) المطلة على البحر الأسود.

كانت لياليا ممتعة وبهيجة، بما وفّره لنا المسؤولون في المنتجع، فكنا نقضي الليالي في باحة الرقص، متمتعين بمراقصة الفتيات من القوميات المختلفة، ألمان، تشيك، بولونيات، بلغار، رومانيين، وآسيويين،

ومن دول إفريقية، وكانت لنا غزوات ممتعة مع الفتيات الروسيات، وفي النهار كنا نقضي الوقت في أجمل بحار الدنيا، البحر الأسود وشواطئه الممتعة، فما أحلى تلك الأيام التي مرّت سريعاً، ونحن لا نشعر بها، فكم تمتعنا وقضينا وقتا رائعا في مدينة سوجي، المدينة المصيف التي كانت سابقاً مصيفاً للطبقة البرجوازية والملكية، فتحولت إلى مصيف للكادحين والطلاب الروس والأجانب.

عند عودتي مع بقية الطلبة من (سوجي) وجدت أخي الصغير في استقبالي، في محطة موسكو، وبعد إجراءات التحية فاجأني أخي بشيء لم أكن أتوقعه، قال:

– هيا تهيأ لسفرة طويلة في أوروبا ولندن، لزيارة شقيقنا الأكبر سليم.

قلت له:

– هل سنذهب حقا لزيارة لندن، ونرى الإنكليز بلحمهم ودمهم؟ وهل يستقبلنا هؤلاء الناس؟! نحن (خدمهم) في أيام الاستعمار كما كانوا يصفوننا؟ إنها لمعجزة أن أرى في عام واحد موسكو ولندن وبقية العواصم الأوروبية.

كان لي موقف إزاء الإنكليز المستعمرين السابقين الذين سرقوا ثروات بلدي، وتسببوا بتخلفها ولم يتوقفوا عن محاولاتهم في العودة إلى العراق بعد أن خرجوا مضطرين بعد نجاح ثورة (14 تموز) 1958، حيث عادوا مرة أخرى لاحتلال العراق مع حلفائهم الأمريكان، وتسببوا بخراب البلد وقتل الآلاف من أبناء بلادي الأبرياء في مدينة البصرة وغيرها من المدن العراقية.

وقد تعرضت في إحدى قصائدي إلى لندن والإنكليز:

ألندن سجن للشعوب عريقة هنالك أصفاد الشعوب تحصر
ينصب حكام وتنزع سلطة مصير شعوب الأرض فيها يقرر
وما بقيت في العرب أية أمة بمنجى أمين حيث لندن تأمر
ولكن للتاريخ منطق يسخر يعيب علينا إننا لا نقدر

توجهنا بالقطار إلى أوروبا عبر بولونيا حتى برلين في ألمانيا، فترجلنا من القطار بعد ليلتين قضيناها في الطريق الطويل، وكان الجو الصيفي في برلين رائعا ومنعشا.

بقينا في برلين عدة ليال قضيناها في زيارات لأهم معالمها، وكنا نقضي الليل في السهر بمغانيها وملاهيها وباراتها، وكانت الرحلة رائعة فقد تعرّفنا إلى الألمان وأمزجتهم التي اختلفت كثيراً عن سابقتها خلال حكم هتلر والحرب العالمية الثانية.

فقد تكونت لدي فكرة عن عدوانية الألمان وجرائمهم خلال الحرب الثانية، فقد تسببوا في جرائم إبادة لم يرها التاريخ من قبل، ولكننا شاهدناهم بهيئة وسلوك آخر إذ اتسموا بالسلوك السلمي خلال حياتهم الطبيعية، فلم نرَ منهم أي سلوك غير سوي.

بعدها توجهنا بالقطار إلى هولندا وعاصمتها أمستردام، وقضينا عدة أيام أخرى في هذه العاصمة الجميلة المليئة بالقنوات التي تقسم محلاتها، وكان الهولنديون يتميزون بأخلاقهم العالية وترحيبهم بالزوار.

علمت عن هذه المدينة بعض المعلومات التي لم أكن أعرفها من قبل، فقد أخبرنا أحد الدبلوماسيين الروس الذي رافقنا عبر هولندا متوجهاً إلى لندن، بأن قيصرهم (بطرس الكبير) عاش في أمستردام سنتين، متخفياً لا يعرف عنه أحد بأنه قيصر روسيا، وكان هدفه

التعرّف إلى البلد، والتعلم فيه، وفعلاً بعد عودته إلى روسيا قام ببناء (سانت بطرسبرج) على نسق مدينة أمستردام، وكما شاهدت بعدئذ مدينة لينينغراد التي تشبه في قنواتها المتعددة مدينة أمستردام.

قمنا بجولات عديدة في هذا البلد الصغير الذي يسمى بالأراضي المنخفضة، وفعلاً فإن هولندا تقع تحت مستوى البحر، وقد أقام الهولنديون سدوداً كبيرة لحماية بلدهم من مياه البحر.

قمنا بزيارة عدة مدن أهمها مدينة الزهور (هارلم) وكانت جنة الدنيا بما ملكته من كل أنواع الورود والزهور المنتشرة في شوارعها وحدائقها ومشاتلها، التي تزرع وتصدر أنواع الزهور للعالم، وفي مقدمتها الروز متعددة الألوان، وزرنا مدينة لاهاي، حيث تقع فيها محكمة العدل الدولية التي مهمتها الفصل في المنازعات بين الدول، ثم بعدها زرنا مدينة روتردام الميناء الكبير والشهير في العالم، وكان المطعم الدوار في أعلى طبقة مطلة على الميناء، تحفة جميلة، كنا نرى من خلال زجاجه الميناء وبقية المدينة الكبيرة الممتدة إلى مساحات شاسعة.

وبعدها عبرنا القنال الإنكليزية بالباخرة، وكان البحر هائجاً، مما تسبب في الدوار لزملائنا المرافقين لنا، وكان في انتظارنا أخي الكبير سليم في محطة لندن، وقد اصطحبنا إلى بنسيون جميل في منطقة (نتن هيل كيت)، وكان اللقاء ودياً وعاطفياً بعد فراق دام عدة سنوات.

كنت أسير في شوارع لندن العريضة، متعجبا هل حقا هؤلاء الإنكليز أنفسهم من استعمرونا، وقتلوا أبناءنا وسرقوا ممتلكاتنا؟ إنني أراهم في غاية الأناقة والمسالمة، فكيف يقبل الإنسان المتحضر أن يسيء إلى أخيه الإنسان؟ فما هذه الازدواجية في السلوك البشري؟! ألم يطّلع هؤلاء الرجال المسالمون على ما فعله الإنكليز في بلادنا؟ كي يتضامنوا معنا، ويلعنوا الاستعمار، ومستعبدي الشعوب.

رافقني أخي سليم إلى الهايد بارك، رمز الديمقراطية الإنكليزية، ذلك البارك الكبير والجميل بما فيه من أشجار كبيرة دائمة الخضرة، وزهور ونباتات مختلفة، وفيه أيضا تجد الألوان البشرية منتشرة في منحنياته ومسطحاته، اللون الأسود، الأسمر، الأبيض، الأصفر، وهم يجتمعون هنا وهناك لكي يستمعوا إلى خطيب ينتقد ويشتم حكومة المحافظين على سلوكها في الدول المستعمرة، التي لم ترض آنذاك عام 1962 عن منح الدول المستعمرة حريتها واستقلالها.

صحيح أن الحرية تجدها في هايد بارك، ولكن في البرلمان الإنكليزي تجدها عند المستعمرين المعادين للحرية والاستقلال، الذين بوسائلهم المختلفة يحجزون ويمنعون عن الأحرار الإنكليز الانطلاق للمطالبة بالتضامن مع شعوبنا.

تجولنا في أهم مناطق لندن الجميلة، ومنها حديقة (garden) كيو كارن التي ضمت غالبية الأشجار والنباتات العالمية، الموجودة في القارات الخمس، موفرة لها أجواءها المناسبة الحارة أو الباردة للمحافظة على حياتها.

كما توجهنا إلى متحف الشمع المعروف عالميا، وكانت دهشتي كبيرة في أن أجد تمثالي لينين وستالين في هذا المتحف، وكأنهما على وشك التوجه بالخطاب للجماهير الثائرة، لا يختلف شيء في ملامحهما عن التمثال، وكنت أقارن بين الجثث المحنطة والمحفوظة في (المفزلين) وبين تماثيل الشمع، فلم أجد أية فروق بارزة.

وكان تمثال الزعيم العربي الكبير جمال عبد الناصر، بهيئته المهيبة وابتسامته الساحرة، رافعاً يده يحيى الجماهير، وكنت فرحا بوجود تمثال هذا الزعيم بالرغم مما عاناه العراق من تآمره علينا.

رافقتي أخي سليم إلى أهم معالم لندن، وهي المتحف البريطاني،

وكان غنياً بآثارنا المسروقة، الآثار البابلية، رأس الأسد ومسلّة حمورابي وتماثيل الملوك البابليين والسومريين والثور المجنح الآشوري، والكثير من الآثار التي سرقها الإنكليز من بلدنا الذين امتنعوا وما زالوا يمتنعون عن إعادتها لنا، فهي تمثل حضارتنا وليست حضارتهم فأي سرقة أبشع من هذه السرقة.

كتبت قصيدة بهذا المعنى عنوانها - سومر- وهذه بعض من أبياتها:

نصلي وقوفاً نموت وقوفاً ونحيا كراماً ولا نركع
عراقي نبع الحضارات منذ ابتدأ الكون أضواؤه تسطع
فهل نسي العالم التاريخ وسومر في ضلعه تقبع
فكل الحضارات شرقاً وغرباً من رحم (سومر) مطلعها ينبع
وآلهة الروم والأغريق في حضرة (عشتار) قربانها ترفع
ألق عصا الترحال في (لندن) ترى عيونك تدمع
هذا هو الثور المجنح رمز مملكة العظام بأرضهم يتربع
أنا ليل عشتار وتموز شموس في متاحفهم تجول وتمرح
هل كان (سرجون) مليك الإنكليز وليس فارس قومنا المترفع
هل يا ترى يرعى لنا الغرب الشرائع تلك من أرست لعمدان لا تتخلع
سرقوا تراث جميع أجدادي وما تركوا لنا من خيرهم ما ينفع

التقيت بصديقي جليل شعبان، وقضينا سوية وقتاً جميلاً أجمل من ذلك الوقت في لبنان، أثناء مؤتمر المحاميين الذي تميز بالصخب والعراك.

جلسنا يوما في بار متميز في (نتنك هل كيت)، واستعدنا ذكريات لبنان، وصديقنا عبد الغني الخليلي الذي كان ملازما لنا في سهراتنا الليلة، تفتحت قريحتنا فكتبنا له قصيدة مشتركة، تعبر عن عواطفنا إزاء ذلك الإنسان النبيل، الذي يتمتع بأخلاق عالية، وهو شاعر وأديب وساحر في جلساته، إلا أن صدام حسين لم ير فيه ذلك الصديق، فقام بتسفيره إلى إيران، وأخيراً انتهى في السويد وقضى نحبه هناك.

وهذه بعض الأبيات التي بقيت في ذاكرتي:

أبا فارس يا جميل الطباع تجنى عليك قساة رعاع
فساموك غدراً وأنت الشجاع تناصب قوماً بسحر اليراع
أبا فارس وروحاً تصول تنادي حبيباً بوقت الوصول
انتظرنا حضورك وقت الفطور وقفت شديداً تنادي الفلول
لعلك تعلم ماذا يجري بعالم فض كثير الفضول

اتفقنا أنا وسامي وموسى على القيام بسفرة إلى سويسرا وفرنسا، لتكملة إجازتنا والتعرّف إلى جنيف وباريس، وسافرنا بالقطار عبر فرنسا لمدينة جنيف وكان الطريق طويلاً، لكنه في غاية الإمتاع، عدا الدوار الذي أصابنا، ونحن نعبر المانش إلى فرنسا.

كانت سفرة في غاية الجمال، جلنا في مرابع سويسرا، وما يحيط بها من مدن وأماكن سياحية فرنسية، بدأنا بزيارات للمدن المطلة على البحيرة، زرنا مدينة (افيان) التي تم التوقيع في إحدى قاعاتها على اتفاقية إنهاء الحرب والاحتلال من قبل فرنسا للجزائر، وكانت البحيرة الكبيرة في غاية الهدوء، تمتعنا بالجو البارد الذي ينعش النفوس في شهر تموز، وعدنا بعد أن أمضينا نهاراً جميلاً كاملاً ونحن نتجول في المدن المطلة على بحيرة جنيف.

وكانت من أجمل المدن السويسرية (مونترو) التي تتصاعد الأشجار والنباتات فيها حتى الجبل العالي، المطل على المدينة، وكان المنظر ونحن في أسفل الجبل يرينا عظمة الهندسة التي شادت هذه المدينة، كانت تعرف بمشافيها في قمة الجبل العالي، وحين قررنا الوصول إلى القمة، كانت المنعرجات عديدة، تتجاوز العشرين حين الوصول إلى القمة، وكنا نرى من تلك القمة (بانوراما) هائلة لبحيرة جنيف، والمدن والغابات المحيطة بها، لقد كانت تلك المدينة أعجوبة بجمال طبيعتها وبناياتها وموقعها المشرف على بحيرة جنيف، وكانت هناك مدينة صغيرة إلى جنب (مونترو) يعيش فيها الفنان الكبير (شارلي شابلن) مدينة (فيفه)، وانتقلنا ونحن في غاية الإثارة، لنرى منزل ذلك الفنان الذي سحر العالم بأفلامه الصامتة.

وكانت الدار متواضعة، ولم نستطع دخولها؛ بل كنا نمتع أنظارنا بواجهتها، والأشجار العالية المحيطة بها، وكان إلى جانبها دار حضانة للأطفال.

حدثنا المرافق لنا إن الفنان الكبير كان يجلس قريبا من جدار الحضانة، ليستمع لأصوات الأطفال وهم يستمتعون بألعابهم، وكانت هذه إحدى متعه في آخر أيامه، وتذكرت العديد من أفلامه الإنسانية التي تتعرض بالنقد إلى المجتمع الرأسمالي، ولن أنسى لقطة جميلة ومعبرة في إحدى أفلامه حين صور خروج العمال، وهم يتزاحمون بالمئات من إحدى المصانع في الولايات المتحدة، وإلى جنبها صورة المئات من الخرفان، وهي تتزاحم للخروج من بوابة قريبة من المعمل، أي معنى جميل يصور القطعان البشرية الكادحة في مصانع الرأسماليين، وهي تشبه في سلوكها القطعان الحيوانية.

لم تستطع أمريكا في عهد الجنرال (مكارثي) الذي حارب الديمقراطية واليسار، احتمال وجود (شابلن) على أراضيها، فنفته إلى بلده بريطانيا، لتحرم الأمريكان والعالم من فنه الجميل.

وفي يوم آخر ذهبنا إلى مدينة (لوتسرن) بالقطار، وفي منتصف الطريق البديع الذي تحيط به من الجانبين أشجار السرو والصنوبر ومختلف أنواع الأشجار العالية، في تلك الصخور الصماء، كنا في حال دهشة كبيرة من تلك الطبيعة الجميلة والغريبة علينا، نحن أبناء الصحراء ومدن الملح، إذ كيف تنبت تلك الأشجار وتعلو لتبلغ عنان السماء في صخور لا نستطيع أن نخترقها بالآلات الحادة؟!

لقد وجدنا الطبيعة في هذا البلد الجميل في أحلى صورها، ولعل ما أدهشنا وجود مدينة في وسط المسافة بين جنيف ولوتسرن تدعى (أنترلاكن) مدينة وسط البحيرات، وكانت هناك سفن في المرسى، يستقلها السواح في البحيرات الهائلة المبثوثة، وسط جبال سويسرا العالية، وكنا مع السوّاح نجول في تلك البحيرات لأكثر من ساعة زمنية، ونحن مأخوذون بجمال الطبيعة المحيطة بذلك الحوض الكبير من المياه الطبيعية، وكنا خلال تلك الساعة لا نستطيع أن نحوّل أنظارنا عن جمال القمم السويسرية الشماء، كانت تلك أجمل متعة حصلنا عليها من تلك السفرة بالقطار، بعدها توجهنا إلى مدينة (لوتسرن)، تلك المدينة التي تتمتع بجمال أخاذ، لا يمكن وصفه، ونحن ننتقل من بحيرة جميلة إلى بحيرة أجمل.

كانت المدينة ساحرة بجمالها يؤمها كثير من السواح، للتمتع بروعة بحيراتها وهدوئها، وفي يوم آخر توجهنا إلى الأراضي الفرنسية نحو بحيرة وسط الجبال وعلى ضفافها مدينة كبيرة (أنسي)، وقد تمتعنا بالساحة في مياهها الجبلية الباردة، وكانت تلك البحيرة أعجوبة

فرنسية، وهي ترتفع إلى أكثر من ألفي متر فوق سطح البحر، ولكن هذه هي الأماكن الساحرة التي حرمنا منها في مدينتنا السهلية المسطحة، التي تجتاحها العواصف الرملية من آن لآخر.

وفي إحدى الليالي اصطحبنا صديقنا (أبو العز) إلى مدينة فرنسية مشهورة بموائد القمار تدعى (ديفون)، وكانت حين دخولها مزدحمة بالرأسماليين الذين يحجون إليها من مختلف بقاع العالم، ليقامروا في لعبة الروليت، وشاهدت إحدى القاعات المنعزلة التي يحرسها حارسان، فتعجبت من ذلك، وحين قررت الدخول للقاعة منعني الحراس، وقالوا إنها للأمراء الخليجيين، ولا يجوز لكم الدخول إليها.

تذكرت قصيدة شاعرنا العراقي الفذّ المقيم في لندن، بعد أن طردته السلطات الكويتية من أراضيها، لما عرف عنه بالشعر الثوري المعبر عن حقيقة مدن النفط وأمرائها.

هذه بعض أبيات إحدى قصائده:

قوت عيالنا هنا

يهدره الحمار

في صالة القمار

وكل حقه به

إن بعير جده

قد مر قبل غيره

بهذه الآبار

عدنا بعد تلك السفرة الممتعة في ربوع سويسرا إلى باريس عاصمة الحب والجمال، وقضينا فيها ثلاثة أيام، نتجول في مرابعها الجميلة، في

الحي اللاتيني الذي سحرني قبل الوصول إليه، بمشاهدة مسراته ومقاهيه، التي تعج بالصبايا العشاق المعاميد، التي صورها بأجمل صورة الكاتب اللبناني (سهيل إدريس) في روايته الحي اللاتيني، كانت شوارعه (سان جورج – سان ميشيل) قطعة من الجمال الذي يضم بين محلاته الفخمة ومطالعه الشهيرة، أجمل الفتيات والفتيان، وكانت محلة (المونمارت) محلة الفنانين والرسامين، التي تعج في ليالي باريس بمختلف الأجناس، من رسامي العالم، وهم يعرضون لوحاتهم المختلفة؛ لوحات أكاديمية وانطباعية، ويجلسون وزجاجات المشروبات إلى جانبهم، وهم يرسمون الفتيات السائحات في ذلك الحي الجميل، وكنا نشاهد ونشارك بالرقصات الجماعية من قبل سكارى ذلك الحي، على أنغام الموسيقيين المنتشرين في ربوعه.

كانت من أجمل ليالي تلك الرحلة التي لم أكن يوماً أحلم بتحقيقها، ولكنه الزمن الجميل، والحظ الكبير من نقلني إلى تلك الأماكن الغنية، بكل ما هو حي وجميل في العالم، وعند عودتي إلى موسكو أخبرني المعهد بأن دراستي ستكون في مدينة الليالي البيضاء (لينينغراد)، التي كانت تدعى أيام القياصرة (سانت بطرسبرج) التي سأتحدث عن بعض حياتي الممتعة فيها.

لينينغراد

عند عودتي من سفرتي الطويلة في ربوع أوروبا، ألمانيا، هولندا، إنكلترا، فرنسا، سويسرا، قابلني صديقي جمال في القسم الداخلي، وزفّ لي خبر إرسالي من قبل وزارة التعليم العالي الروسية إلى مدينة لينينغراد لتكملة رسالة الدكتوراه.

وعلمت أن العديد من زملائي وأصدقائي استطاعوا البقاء في موسكو والدراسة في جامعتها العتيدة، وكان البعض منهم سامي، نوري، مصباح، قد وسطوا الحزب الشيوعي لبقائهم في العاصمة؛ لأنهم كانوا يتصورون أن البهجة والأنس وجميع الامتيازات متوفرة في هذه المدينة، خصوصا في جامعتها الفخمة والمتميزة بطراز هندستها الجميلة، ومئات غرف السكن في أقسامها المختلفة، وكانت تخصص لكل طالب دكتوراه غرفة منفصلة، تحتوي على جميع التسهيلات للسكن.

فضلا عن مغريات العاصمة، بما فيها من مطاعم معروفة بلياليها الحمراء كمطعم (باكو) الشهير، ومسارحها التاريخية الفخمة والمشهورة عالميا، كمسرح (البولشوي تياتر) وغيره من المسارح الفنية.

وكانت العاصمة تسكنها بناتها الشقراوات، ولها طبيعتها الجميلة، ومتنزهاتها (كبارك كولتوري) وغيره من المتنزهات المتميزة بجمال نباتاتها وورودها الطبيعية والبشرية، أو اللقاءات الغرامية المبثوثة على الدوام بين أشجارها، والتي كنا نشاهدها، وسيشاهدها زملاؤنا المحرومون من تلك المتع، والواضعون في مخيلاتهم ما سوف يلقونه ويعيشونه من ليالي الغرام، مع الشقراوات الروسية، وكل هذه الصور الجميلة، جعلتهم يفضلون البقاء في موسكو، بل عملوا واستخدموا الألاعيب كافة للبقاء في العاصمة، حتى إن أحدهم (سامي) احتال مدعيا أنه مراسل جريدة (14تموز) البغدادية، وهو بحاجة للبقاء قرب

المركز لكثرة الأحداث في موسكو، وإرسال التقارير الدورية للصحيفة، ولأهمية ذلك للرفاق الروس الذين بدأوا لتوّهم في إقامة تلك العلاقات المهمة مع العراق، وغيره من دول العالم الثالث، وكان من أوائل اهتماماتهم إيصال المعلومات حول تقدمهم الحضاري والعلمي والسياحي، وغيره من مظاهر التقدم إلى تلك البلدان المتخلفة كما يتصورون.

عدت إلى القسم الداخلي، وجلست متفكرا بما ينتظرني من مستقبل في هذه المدينة، ولكن لم أكن نادما أو حزينا حول ذهابي إلى تلك المدينة العظيمة، أخذتني التداعيات إلى ما قرأته عن عاصمة القياصرة (سانت بترسبورغ)، لدى الكاتب الكبير (ديستوفسكي) وما جرى من عواصف ودراميات في كتاباته، لاسيما الأخوة كارامازوفا، وكيف يصف مجالات هذه المدينة الأسطورية، التي بناها القيصر بطرس الكبير، فوق مجموعة من المستنقعات ليواجه بها الغزاة السويديين.

وهل يمكن أن تغيب عن بالي مغامرات ومؤامرات القسّ الشهير (راسبوتين)، الذي استطاع بدهائه وبفضل عضلاته وجنسه المتوثب، أن يخترق المجتمع المخملي ونسائه الجميلات، وقد أثار ذلك القسّ أمراء القصر، وكيف استطاعوا التآمر عليه وقتله، ورميه في إحدى الأنهر الفرعية في المدينة المقسمة إلى (200) جزيرة تضج بالجمال والطبيعة الخلابة.

أثارني حين ذهابي إلى هذه المدينة الأسطورية، مدينة الليالي البيضاء، وما يدور في تلك الليالي من طرب وأنس ومغامرات غرامية، كما أثارني التعرّف إلى المواقع التي انطلق منها الثوار البلاشفة، في ثورتهم عام 1917، ومشاهدة المقرات التي قادوا فيها الثورة ودافعوا عنها.

وطاف بي شوق كبير لرؤية السفينة (أفرورا) التي أطلقت طلقة بدء الثورة، هزني الشوق للتعرّف إلى مجالات المدينة خصوصا القصر الشتوي للقياصرة، والذي تحول إلى واحد من أكبر المتاحف في العالم بقاعاته.

نعم، كنت تلك الليلة نهماً لأفكار وخيالات وأفاق واسعة وكثيرة، نقلتني إلى تلك المدينة قبل أن أراها، فهل ستصدق خيالاتي وتصوراتي بآثار ومجالات لينينغراد.

توجهت مساء إلى محطة القطار، مصحوبا ببعض الأصدقاء الذين قدموا لتوديعي، من بينهم شقيقي موسى، كان ذلك في مساء إحدى الليالي الأخيرة من أيلول، مساء خريفي منعش، يملأ النفس بالبهجة، وأنا أستعد لمغادرة العاصمة، فكان ذلك فألاً حسناً، حيث التقيت في المحطة صدفة بأحد المبعوثين إلى جامعة لينينغراد واسمه كاميران، هذا الطالب ابن عم لزميل في كلية الحقوق (كمال القره داغي) وكان كاميران يزورنا في الكلية من حين لآخر، ومن أبرز صفاته المرح والقدرة على رواية النكتة.

فرحت بهذا اللقاء كما فرح بي، وانتقينا كابينة في القطار المتوجه إلى لينينغراد، وكانت تحتوي على أربعة أسرّة، كما هو معروف في القطارات الروسية، جلست أتسامر مع هذا الوجه الجديد لتمضية الوقت.

أخبرني بأنه ذاهب لدراسة الأدب الروسي وهو في حال مضطربة نظرا لسعة الموضوع، وكثرة الأدباء الروس والكتاب المعروفين محليا وعالميا.

فطمأنته إلى أن هذا الجهاد لا يقارن بما تركناه في العراق من جهاد سياسي تشيب له الرؤوس، بسبب الصراعات العنيفة والمعارك السياسية القاتلة، وصلنا صباحا إلى لينينغراد وكان في استقبالنا أحدُ موظفي العلاقات الخارجية في الجامعة المسؤول عن استقبال الطلبة الجدد، تجمعنا بتوجيه منه، وكان اسمه (فسفولد) ويكنى بـ (سيفا)، وكانت حاجياتنا متواضعة تشتمل على حقيبة واحدة لكل طالب، حشرت حقائبنا في لوري (زيس) وانطلقنا على إثرها إلى الجامعة العتيدة، كانت سفرة ممتعة في الشارع الشهير والذي يمتد تأريخه إلى مئات السنين.

كانت عمائره تطل علينا مبتهجة بوصولنا لتحيينا، وتتمنى لنا إقامة

طيبة في هذه المدينة، وحين عبرنا الجسر المقام على نهر (النيفا) العريض والعظيم الذي تبحر في مياهه كبرى السفن التجارية والحربية، ذكرني النيفا بنهر دجلة الذي غادرته منذ سنة، تاركا على ضفافه حبي وعواطفي، فاشتعل القلب حزنا، وتذكرت ليالي دجلة في شارع أبي نواس، وفي مقرنا الصيفي في (الجرداغ) والليالي الحسان التي قضيناها بأنس وطرب، وفي أنس الزورق الصغير، الذي كنت أجدفه في كل ليلة مع الأصدقاء شهاب، البير، أحمد وأخي سامي، نقضي سويعات جميلة وسط ذلك النهر العظيم، الذي يحمل سمات حضارتنا الشامخة، وكان يرافقنا أحيانا صديقي صاحب الصوت الجميل فيطربنا بترديد الأغاني العراقية العاطفية مع زجاجات بيرة فريدة.

أي ذكريات جميلة أهاجها في قلبي هذا النهر الروسي العريض، ومن ينسى دجلة التي خلدها الجواهري بقصيدته العصماء:

حييت سفحك عن بعد فحييني يا دجلة الخير يا أم البساتين

ومما أحزنني وحزّ في نفسي، وفي نفس العراقيين الشرفاء، أن شاعرنا الكبير أجبره الزعيم قاسم إلى الهجرة والهرب خارج العراق، لكي يحمي نفسه من التهديد بالاغتيال وكان ذلك إجحافاً كبيراً في حقّ شاعر العروبة الشهير.

لم أستطع نسيان المعاملة القاسية التي أدت إلى هجرة شاعرنا، والغريب بالأمر أن الزعيم قاسم كان في بداية ثورة تموز قريبا من الجواهري، ويصحبه معه في المناسبات الوطنية، ولكنه بعد ذلك أدار وجهه عن اليسار، وبدأ يعمل على تصفية الرموز الوطنية واليسارية التي دعمته في نضاله ضد الرجعية واليمين القومي.

وكان ما أثار قاسم ضد الجواهري، مقالته الشهيرة في جريدته (الرأي العام) وعنوانها (ماذا يجري في الميمونة، إذ تعرضت بعض

العذارى في هذه القرية إلى الاغتصاب والاعتداء من قبل رجال الأمن) وكانت المقالة انتقادا عنيفا موجها لحكومة قاسم وشخصه، لعدم اتخاذ ما يتناسب من الإجراءات لمعاقبة مجرمي تلك الواقعة الأليمة.

انقلب الزعيم وأخذ يعمل على معاقبة الجواهري ومحاولة اغتياله، ومحاربته في رزقه وفي سمعته وأغلق جريدته الرأي العام.

حدثني الراحل عبد الفتاح إبراهيم الشخصية الوطنية والمفكر الماركسي المعروف وأحد المؤسسين لجماعة الأهالي، في أعوام الثلاثينات من القرن العشرين، وكان الرجل مع بعض القادة الوطنيين يروم تأسيس حزب جديد بعد إجازة الأحزاب، وكان يرافقه في هذا المجال بعض القادة الوطنيين من ضمنهم الجواهري، إنه حين قابل الزعيم استغرب من تصرفه معه، فقد عمد الزعيم إلى قاصته، وأخرج ملفاً قدمه لعبد الفتاح إبراهيم، وكان الملف يضم معاملة تعود إلى العهد الملكي، وفيها صك ملكية أرض زراعية لشاعرنا.

وأخذ الزعيم يتهجم بهذه المناسبة على شخص الجواهري ناعتا إياه بالانتهازية وطاعناً في وطنيته، فأجابه الرجل قائلاً: أليس الجواهري عراقياً ويحق له امتلاك قطعة أرض؟ فما الخطأ في ذلك؟ ولماذا كيل الاتهامات لهذا الشاعر العظيم؟!

فأزعج بذلك الزعيم، الذي كان في آخر أيامه يجسد الدكتاتور والفردية في الحكم، وكانت نتيجة ذلك عدم إجازة الحزب الجمهوري العراقي.

تذكرت كل هذه الأحداث وأنا في طريقي عبر الجسر إلى جامعة لينينغراد، وقد نقلني الحنين إلى وطني العزيز الذي هربت منه، مخلفاً الشعب في حالة بشعة، متوجساً مما سيحدث من أحداث سياسية جسيمة، أودت في النهاية بحياة قاسم ومئات الآلاف من المناضلين.

بدأت أردد هذه الأبيات من إحدى قصائدي في حنين كبير للوطن:

تمنيت نفسي على جرف نهرٍ أعانق في شوق سعفات نخلة
ويمخر عبري نهر الفرات وأشرب نشوان خمرة زحلة
ينوء بحزنٍ خرير المياه وتحكي المواويل تأريخ دجلة

أوصلونا إلى رئاسة جامعة لينينغراد الواقعة مباشرة على نهر النيفا، وأول ما لفت أنظارنا ونحن داخلون إلى الجامعة ذلك (الكوليدور)، أو ما يشبه الزقاق أو (الدولان) والذي يمتد أكثر من كيلو متر، وتقع على جانبيه غرف مؤسسات الجامعة، ولعل أول سؤال يتبادر إلى أذهاننا ولم نكتمه طويلاً، هو لماذا لم تبنَ هذه المؤسسة بموازاة نهر النيفا؟ ليطل العاملون جميعاً على النهر، بما يتمتع من مجالات صيفا وشتاء، ففي الصيف تتمدد الحسان على ضفته للحصول على السمرة (زاكارات)، وهذا منظر لا يوافي البشر دائماً، فالحسان في مباراة لعرض أجسادهن، وهن يرتدين (المايوه) التي تمثل ورقَة التوت، وباقي الأجساد البيض الهيفاء تستعرض، وهنّ في حالة من الاسترخاء.

أما في الشتاء فالنهر يتحول إلى جليد متماسك، وتجد في أطرافه ووسطه الصيادين يجلسون على كراسٍ صغيرة، بعد أن يحفروا حفرة عميقة تساعدهم في الصيد، الذي قد يطول لساعات دون جدوى، كما تجد الأولاد والبنات يتزلجون على الجليد، ويستخدم المارة النهر المتجمد للعبور إلى الضفة الأخرى، وفي إحدى المرات وكنت عابراً بمفردي هذا النهر والخوف يغمرني من تفجر الجليد والغرق في ذلك الماء المتجمد، وحين كنت غارقا في أفكاري الفلسفية، حدث الانفجار الذي أفزعني، ولم أعرف في تلك اللحظة ما الذي عليّ أن أفعله وأنا وسط النهر؟

لكنني لاحظت السائرين الذين لم يفزعوا مثلي، وهم مستمرون في مشيهم وسعيهم للضفة الأخرى، تذكرت أن مدفع القلعة (قلعة بتروبافلوفسك) يطلق طلقة واحدة في منتصف النهار وقد غابت عن ذهني تلك الحقيقة.

دخلنا غرفة موظف الشؤون الخارجية، الذي استقبلنا بابتسامة مرحبة، وبعد تبادل التحيات والمجاملات أخبرنا أنا وكاميران، بمكان سكننا المؤقت، حتى قبولنا في المعاهد الدراسية، وكان هذا الرجل أول الأصدقاء الروس الذي تعرّفت إليهم، وقدم لي ولكاميران مساعدات كثيرة، سوف يأتي ذكرها في الصفحات القادمة.

كان القسم الداخلي الذي توجهنا إليه سيراً على الأقدام، لقربه من رئاسة الجامعة (أبش جيتي) رقم (6) وهو يطل على نهر النيفا، وكان عبارة عن عمارة تتألف من ستة طوابق، حصلت فيه على غرفة مشتركة ومؤقتة مع صديقي كاميران في الطابق السادس، وكنا نستخدم السلالم، فلم تستخدم الإدارة مصعداً للمساعدة، فالعمارة عتيقة ولم تعرف المصاعد أيام تشييدها.

جلست وصديقي متقابلين على أسرتنا صامتين، لا نعلم ما الذي سنفعله، كانت تلك الساعات تجسد غربتنا بعد صخب سنة في موسكو المليئة بالحركة، وبمجاميع الطلبة في جامعة موسكو والقسم الداخلي في (الجريومشكي).

اقترحت على صديقي أن نبحث عن مطعم في المدينة، لتناول وجبة الغداء، وبعدها سيحلها ألف حلّال، ومن محاسن الصدف أن القسم الداخلي لا يبعد سوى بعض خطوات عن مطعم جميل، هو عبارة عن سفينة راسية في مياه (النيفا).

كانت ديكورات المطعم تتلاءم والحداثة، لكنها لم تبتعد عن التقاليد الروسية الكلاسيكية، طلبنا (سليونكا) ذلك الحساء الذي يتكون من اللحم والمليء بالبهارات، والذي يكفي أن يكون وجبة كاملة لا تحتاج إلى حجز لحوم أخرى.

في المساء قررنا الخروج إلى المدينة لاستكشاف مرافقها وشوارعها

الجميلة والتاريخية، فقد علمنا أن ذلك الشارع الجميل بُني منذ أكثر من مئتي عام، قطعنا الشارع ذهاباً وإيابا، وتعرّفنا إلى أهم المواقع التاريخية الواقعة على ضفتيه، فكان من أهم المواقع المعبد الإسحاقي العائد إلى يهود (سانت بطرسبرج) لكننا أجّلنا الدخول فيه إلى زيارة أخرى.

بعد التجوال لأكثر من ساعتين في شوارع لينينغراد، والتعرّف إلى قنواتها وكنائسها، قررنا العودة إلى مقرنا في القسم الداخلي، ابتعنا قنينة فودكا لأنها الوحيدة التي سوف تسلي وحدتنا في المدينة.

جلسنا على الكرسيين الخشبيين في الغرفة، ووضعنا عدتنا على الطاولة الصغيرة، وبعض المأكولات وبدأنا نؤنس بعضنا بعضا، لنستعيد بعض ذكريات بغداد لتمضية الوقت.

وكان مركز أحاديثنا الوضع السياسي المتدهور، الذي تركناه هاربين من نيرانه المتكاثرة، فقد عمت الاغتيالات بغداد والموصل وبعض المدن العراقية، والتي شهدت حداً يسارياً وتجاوزات بدنية على الخصوم، وكنا نتساءل بعد كل اغتيال لماذا لا يرد الحزب الشيوعي على مقترفي الاغتيالات؟ لكن الجواب الذي كنا نسمعه نحن حركة جماهيرية لا تؤمن بالاغتيالات الفردية، وهذا المنطق غير الصحيح تسبب في نمو الحركات اليمينية التي اعتمدت منطق الاغتيالات والمؤامرات.

كنت أقول لصديقي: إن الحزب الشيوعي يتبنى سياسة يمينية، وذكرت لكاميران إن أحد أعضاء الحزب الفاعلين كان لاجئاً في داري خوفاً من الاغتيالات، وكان (علي العاصي) قادراً على رد الاغتيالات، إلا أن الحزب لم يوافق على طلبه، وبعد سنوات من تلك الأحداث تغير الرجل وتحول إلى إنسان آخر.

في الليلة التالية قررنا أن نستمتع مع الآخرين في الرقص الجاري في الطابق الأول، في قاعة مخصصة للراقصين فتياتٍ وفتياناً، شربنا

زجاجة فودكا لكي تبعث فينا الشجاعة لإخفاء خجلنا السرمدي نحن العراقيون الخجولون من طلب مراقصة الفتيات، استطعت حين بدأ الرقص أن أطلب مراقصة إحدى الشقراوات وكان اسمها (تامارا)، كانت الرقصة الأولى مجرد حركة للتعارف. طلبتها للمرة الثانية والثالثة واستمر الرقص معها، وزادت شجاعتي فغازلتها واحتضنتها في الرقصة الثالثة، فكانت استجابتها قوية، وبعدها استمر الرقص عدة ساعات ونحن شاردون في لهونا، لكن كاميران لم يكن يجرؤ على طلب مراقصة أي من الفتيات.

اقترحت تامارا أن نكمل السهرة في غرفتها، استجبت بسرعة والفرح يملأ قلبي بأن علاقتنا سوف تتجاوز مرحلة الرقص والغزل، جلسنا في غرفتها الصغيرة وبدأت في مغازلتها وتقبيلها فكانت استجابتها مشجعة للاستمرار في تجاوز هذه المرحلة.

لم أخرج من عناقها ومضاجعتها إلا بعد أن استنفذت كل مخزون الحرمان الذي عشته في القسم الداخلي في موسكو، وحين عدت إلى الغرفة وجدت صاحبي يشخر بصوت عالٍ، ضحكت لموقفه من الرقص ومغازلة الصبايا في قاعة الرقص.

وضعت مع كاميران خطة للاطلاع على المعالم المهمة في المدينة، فهي فرصة لا تعوض قبل الانخراط في عالم العمل والدراسة الجدية، قررنا أن نزور القلعة التي لا تبعد عن قسمنا الداخلي سوى بعض مئات من الأمتار، إنها قلعة (بتروبافلوفسك) التي بناها قيصرهم العظيم (بترو الأول).

تقع هذه القلعة على الضفة الغربية لنهر النيفا، وتتمتع بموقع استراتيجي مهم في المدينة، وعلمنا أن القيصر بناها للدفاع عن المدينة أمام هجمات السويديين، دخلنا القلعة التي تحولت بعد استقرار النظام

القيصري إلى سجن للأحرار الروس، فقد سجن فيها (غوركي- ديستوفسكي والديميريل) قبل إعدامهم، والمئات من البلاشفة والوطنيين الروس.

قادنا الدليل للاطلاع على الغرف البائسة، التي تتكون من الجدران الكونكريتية كما الأرض من نفس المكون، وهناك سرير من الحديد، وليس في هذه الغرفة سوى باب يفتح لإيصال الغذاء والماء ويقفل، وطيلة سنوات لا يدخل ولا يخرج السجين منها.

قال الدليل إن أحد السجناء في هذه الزنزانة التي قضى فيها عشرين عاماً نسي لغته الروسية، وبدأوا يعلمونه اللغة من جديد بعد أن حررته الثورة البلشفية.

تذكرت السجون العراقية وقساوة الظروف فيها، لا سيما سجن (نكرة السلمان) في صحراء السماوة المنعزلة عن العالم المتمدن مئات الكيلومترات، بنى قلعة السجن القائد الإنكليزي (كلوب باشا) ليتمكن من الانطلاق منها لإخضاع العشائر المتمردة، وللسيطرة على الصحراء الممتدة حتى الأراضي السعودية.

حدثني الشهيد عدنان البراك عن الظروف القاسية التي عاشها ورفاقه في ذلك السجن، والوحدة والوحشة والعذاب الذي عانى منه، كانوا في قطيعة كاملة عن العالم المتمدن فلا راديو أو صحف أو كتب، ولا تغذية إنسانية ولا اتصالات بعوائلهم، فقد كانوا في عزلة متعمدة لكسر شوكة مقاومة الشيوعيين.

سألته ألمْ تكونوا على اتصال بما يكتب؟ قال: كنا ننسخ الكتب على أوراق السكائر لخفتها وإمكانية إخفائها، وكنا نخفيها عن السجانين في نتوء حديد السقف لصغرها وصعوبة إيجادها.

أصيب الكثير منهم بالأمراض المزمنة وخصوصاً مرض السل القاتل

في تلك الأيام في سني الخمسينات، وبعد الثورة ألغي السجن وأعاده البعثيون حين قاموا بانقلابهم البشع عام 1963 فأدخلوا نكرة السلمان خيرة أبناء الشعب العراقي الذين سجنوا بعد حركة حسن السرية الفاشلة في 3 تموز 1963م، حشروا في قطار الحيوانات الحديدي في حرّ تموز، لكي يموتوا قبل وصولهم السماوة وهم في الطريق إلى نكرة السلمان، ولكن أحد مواطني الحلة أخبر السائق أنهم أبناء العراق الخيرون من علماء وضباط ومهندسين وفنانين، فقام السائق بإسراع القطار بغية التقليل من ساعات السفر، فوصل الجميع في حالة إغماء إلى السماوة، وكان في انتظارهم الأهالي بعد أن عرفوا بجريمة النظام، كان الجميع عطاشا، ولم يقدم لهم الماء في ذلك الحر القاتل داخل الزنازين الحديدية في القطار، إلا أن أحد الأطباء (شوكت بايان) طلب من الأهالي أن يضعوا الملح في الماء، لأن جميع السجناء فقدوا أملاحهم نتيجة الحرارة والتعرق، وقد أنقذ بذلك كبار مثقّفي وقادة العراق الخيرين من موت محقق أراده لهم البعثيون وعبد السلام عارف وتم نقلهم مباشرة إلى ذلك السجن الرهيب قلعة نكرة السلمان.

حدثنا الدليل قائلا: إن برج القلعة الذهبي تم إخفاؤه خلال الحرب الوطنية وحصار المدينة من قبل الألمان، فقد تسلق أحد رجال التسلق الجبلي البرج وأخفاه بقماش رمادي حتى لا يكون دلالة للجنود حين قصفهم المدينة، وقد تم حفظ البرج اللامع والجميل الذي يُرى من أبعاد كبيرة من المدينة وهو يرحب بالزائرين لهذه القلعة.

كما أن جنود القلعة يقومون في الثانية عشر ظهراً بإطلاق طلقة مدفع، ولم يخبرنا الدليل من أين جاءهم ذلك التقليد، قضينا ساعات نتجول بالقلعة مستذكرين عراقنا الحبيب، المليء بالقلاع والسجون من قبل الحكام الرجعيين.

قررت مع صديقي كاميران أن نقوم بزيارة أهم معلم من معالم

المدينة لم نكن نعرف أين يقع (الأرميتاج) سألنا الطلبة الساكنين في القسم الداخلي، أجابوني متعجبين بعدم معرفتنا موقع المتحف العظيم وأشاروا بأيديهم إلى الناحية الشرقية للنهر، وإذا به لا يبتعد سوى بضعة مئات من الأمتار، يقع متربعاً على ضفة النهر الكبير.

توجهنا شرقا، لاستطلاع ومعرفة أسرار المتحف المشهور، فهو أحد أكبر متاحف الدنيا ويقع في المواقع الأولى إلى جنب متحف اللوفر، القاهرة، برلين، بغداد، وهذه المتاحف التي تضم أهم الآثار حيث تقع داخلها آثارنا المسروقة، وأعني لندن وباريس واللوفر، فالعالم يعرف جيداً أين يجد شريعة حمورابي درة الآثار العراقية، إنها قابعة مبتهجة وسط باريس في متحفها المشهور اللوفر، وأين يجد الأسد البابلي، فهو قابع في متحف لندن يهتز غضباً لاغتصابه من موطنه العراق، وهكذا تجد الآثار المصرية العظيمة موزعة بين المتاحف الغربية ومن ضمنها متحف (الأرميتاج).

كانت بناية المتحف تقع على نهر (النيفا) ممتدة على مساحة طويلة موازية لمجرى النهر، دخلنا المتحف العظيم وأول ما أثار دهشتنا هندسة البناء الداخلية والخارجية فقد كان القصر الشتوي للقياصرة.

يتمتع هذا القصر الذي حوله البلاشفة إلى متحف، بالأبهة والفخامة وجمال موجوداته، وأخبرنا الدليل أن المتحف يحتوي على ألف قاعة وقاعة، وقال لا تستطيعون أن تشاهدوا الآثار والموجودات بزيارة واحدة، فإدارة المتحف تنظم زيارات منتظمة لطلبة الكليات خلال سنوات دراستهم تتجاوز الستين زيارة للإلمام بما يملكه المتحف من نفائس وآثار.

اقتصرت زيارتنا على بعض قاعات الطابق الأول، التي تضم الآثار العراقية والمصرية، وكنا نحن نطوف وسط تلك النفائس التي تركها

أجدادنا نتحسر على سرقتها من بلدنا المنهوب دائماً من قبل الغربيين، إلا أن الروس لم يكونوا من بينهم، فالفضل يعود في اقتناء تلك الآثار النادرة للقيصرة (كاترينا الثانية) التي اهتمت كثيراً بشراء الآثار وعرضها في متحفها الروسي.

كان الثور الآشوري يقع في مقدمة القاعة زاهياً متعاظماً وكأنه مستعد للقتال ضد الأعداء أو للطيران إلى موقعه الأول في نينوى، كما شاهدنا آثار الحضارة السومرية ولوائح الكتابة المسمارية مع ترجمتها إلى اللغة الروسية، ولم نكن نعلم أن مؤرخنا العظيم (طه باقر) قد ترجمها إلى اللغة العربية، وكانت القلائد الذهبية التي تدل على قدرة السومريين والبابليين الفنية في صنع تلك القلائد الأنيقة والمتناسقة وهي تحلّي رقبة إحدى جميلات بابل، شاهدة على علوّ حضارتنا العظيمة، كنا في حالة انبهار من وجود تلك الآثار في هذا البلد البعيد، وليس في موطنها الأصلي العراق.

كما شاهدنا الآثار المصرية النفيسة في عرضٍ يدل على ذوق عارضيه، فالمومياء معروضة بشكل لا ينظر له من منظر الأموات بل موجودة داخل قفص من الأبنوس الأنيق، مرصع بأنواع الجواهر، ذلك العرض الذي يغري بالتطلع إلى المومياء بدون نفور أو خوف تذكرت بعض الأبيات في قصيدتي سومر:

ألق عصا الترحال في الغرب ترى عيونك تدمع
هذا هو الثور المجنح رمز مملكة العظام بأرضهم يتربع
أنا ليل عشتار وتموز شموس في متاحفهم تجول وتمرع
لكان سرجون مليكٌ عندهم وليس فارسُ قومنا المترفّع

كانت زيارتنا للأرميتاج قد أثارت أنواع المشاعر في نفوسنا، وكان الشوق والألم والحنين يتفاعل داخلنا ونحن في غربة من الوطن العظيم،

الذي سرقت حضارته وثرواته وبات فقيراً، أبناؤه جائعون جهلاء لا يعرفون عن حضارتهم شيئاً، فقد أعماهم المستعمرون عن عمد لكي لا يتعرّفوا إلى ما يملكون من حضارات عظيمة وثروات هائلة.

سُرقنا، وما زالوا يسرقون أبناءنا المنتشرين في مدنهم تجدونهم بعيداً عن الأوطان التي تشكو من الجهل والجوع والفقر، ولا نعلم متى يستيقظ أبناؤنا ليبنوا وطنهم الحديث ويسترجعوا نفائسهم وآثارهم المسروقة.

وآخر ما قاله لنا الدليل حول المتحف، إن الثوار الذين اقتحموا القصر الشتوي بقيادة (تروتسكي) لم يمسوا أي تحفة من التحف الكثيرة المنتشرة في قاعات القصر الفخم الغني بمقتنياته، والانضباط الذي تمسك به أولئك الجياع من جنود وعمال وفلاحين للإبقاء على ثروة بلدهم روسيا تتمثل في المبادئ التي حملها الثوار وهم يقتحمون أكبر قلعة من قلاع الحكم القيصري الظالم.

وذكر حقيقة أخرى أن الاقتحام الذي حصل للقصر لم تطلق فيه أي طلقة سوى إطلاقة المدفعية التي أطلقتها المدمرة (أفرورا)، والتي كانت بمثابة إعلان بدء الهجوم، ونصحنا بزيارة أفرورا التي بقيت كمتحف للزوار والتعرّف إلى تلك السفينة التي بدأت مرحلة الثورة البلشفية.

وكنت في حالة من الاندهاش لما رأيته من عظمة الآثار والمقتنيات المختلفة، والتي تشكل قدرا ضئيلا مما شاهدناه من القاعات الألف في ذلك المتحف العالمي، ولعل ما يؤلم أن يكون متحفنا العظيم عرضة لعصابات اللصوص والمجرمين بعد الاحتلال، الذي كان رجاله هم المشاركون والمتسببون بدخول العصابات المنظمة لسرقة آثارنا الحضارية بالاتفاق مع المحتلين، وكان بإمكانهم حماية المتحف العراقي ببضعة جنود ودبابة واحدة لتمنع عملية السرقة وتحطيم الكثير من

آثارنا التي ظهرت سريعاً في أمريكا وإنجلترا وغيرها من الدول الأوربية، والدليل على أنهم كانوا متواطئين مع المجرمين والعصابات القادمة من الخارج أنهم استطاعوا حماية وزارة النفط لأهمية هذه المادة لأمريكا، التي كانت أحد أسباب احتلال العراق.

إنه النفط، الآفة التي لولاها لعاش العراق مزدهراً كما كان في عهود الخلفاء العباسيين، فالعراق بلد السواد، والذي يملك من الثروات الزراعية والإمكانيات البشرية ما يجعله يعيش أفضل من بقية بلدان العالم.

إن ما حزّ ويحزّ في النفس، ما قام به بعض العراقيين بسرقة ثرواتنا الحضارية والمادية، وحرق مؤسساتنا بالتعاون مع المرتزقة القادمين من وراء الحدود، ولعلّي لا أبالغ بالمقارنة بين شعبنا والشعب المصري الشقيق الذي حمى آثاره الحضارية عندما حاول بعض المجرمين سرقة المتحف المصري العظيم، إذ وقف المخرج المصري خالد يوسف يوجه النداءات من خلال ميكرفون العربية للشباب المصري الذي كون العديد من الدوائر بأجسام المصريين لحماية المتحف، وقد شجعت هذه الخطة التي دعا إليها خالد يوسف وهو ينشر روح الوطنية المصرية بنداءاته لحماية الثورة وسمعتها وحماية الكنوز الثرية العظيمة.

زارنا بعد ثلاث أيام من إقامتنا في (الفرعونية رقم ٦)، استقبلنا موظفُ الشؤون الخارجية في جامعة لينينغراد (سيفا)، ورحّب مرة أخرى بوجودنا في الجامعة وأبلغنا بموعد حضورنا أنا وصديقي كاميران لكلياتنا، أنا في كلية القانون وهو في كلية الآداب، وكانت كليتي تبعد كثيراً عن موقع الجامعة، رسم لي الخريطة التي تبدأ من شارع نيفسكي الذي لا يبتعد كثيراً عن القسم الداخلي الحالي، وكان رقم الأوتوبيس (30) والذي كنت أحد ركابه لسنين عديدة امتدّت حتى نهاية رحلتي في هذه المدينة.

كنا في تلك الأيام نتمتع بالسياحة في معالم المدينة، ومجالاتها الحضارية والطبيعية، وكانت ترافقنا في سياحتنا الصديقة الجديدة (تامارا)، التي أمضت معنا أوقاتاً جميلة وهي تدلنا وترينا أجمل الموجودات في مدينة لينينغراد، فقد صحبتنا إلى الكنائس التاريخية العامرة بقبابها المخروطية وقاعاتها الفارهة ورسومات الملائكة المجنحة في جدرانها، وأسقفها ورسوم الفنانين الروس (ريبن) وغيره التي تجمل تلك الكنائس.

كنّا مسحورين بأجواء وفضاءات وجماليات المدينة المثيرة والمفتوحة بشوارعها وقنواتها المتعددة التي تخترق تلك الشوارع الكبيرة، كانت بعض الأفكار تراودني حول الراهب الشهير (راسبوتين)، الذي لعب دورا هائلا في حياة القيصر والقيصرة الروسية قبل الثورة البلشفية، وكيف جعل سلوك ذلك الراهب أمراء القيصر في ثورة ضد سلوكه وتأثيراته في القيصرة بما كان يشير عليها، وعلى القيصر من سياسات رعناء، كانت لياليه الداعرة مع النساء الأرستقراطيات تثير سخطا كبيرا في أجواء القصر الامبراطوري بين الحاشية والأمراء حتى تم تصفيته من قبل الأمراء ورمي جثته في إحدى تلك القنوات، وقد طلبت من تامارا أن تدلنا على القناة التي رميت فيها جثة راسبوتين، فكانت خلف القصر الشتوي، وحدثتنا عن الثورة في القصر بعد مقتل ذلك المجرم، وكيف ثار القيصر على القتلة الأمراء، إلا أن القتلة هربوا ولم يتمكن القيصر من معاقبتهم.

كانت طبيعة المدينة جميلة وجوها عطرا ومنعشا، وكان الخريف الذي يسميه الروس (زلاتوي اوسن) أي الخريف الذهبي، فأشجار القيقب الكبيرة والمليئة بالأوراق الذهبية والحمراء حيث تتحول في هذا الفصل من اللون الأخضر إلى ألوان الحياة الجميلة وهي تصارع الفناء والسقوط، فقبل النهاية تتحول إلى صور فنية انطباعية تختلط فيها الألوان البهيجة التي تسحر الناظرين.

فليس اعتباطاً يزين ورقة القيقب العلم الكندي، وكنا ونحن نتجول وسطَ تلك الصفوة البهيجة من أشجار القيقب نحلّق بأجواء تنقلنا إلى عالم جميل يختلف عن عوالمنا البائسة، والتي تزخر باللون الرمادي الوحيد الذي يزين مدننا وخصوصاً مدن الملح، التي قضينا فيها فترة مهمة من شبابنا سجناء تلك الطبيعة البائسة، كتبت قصيدة الخريف وأنا أعيش سحر مدينة لينينغراد وجمال الخريف الذهبي فيها وهذه بعض أبياتها ...

ويعيدنى شجن الخريف لعالم أمضيت فيه شبابى المختالا
هو جنة الدنيا وعيدٌ دائمٌ قد كان يوماً مرتعاً ووصالا
أنا كنت في لينينغراد صباً عاشقاً خطراً يطاول عنقه الشلّالا
وعلقت في شبك الحسان متيماً وشربت من رشفاتهنّ زلالا
وتفتحت للوجد كل مشاعرى وازداد حبى للحياة كمالا
كان الخريف عناقه متفرداً وازداد في قرب القيان جمالا
حسن الطبيعة والروابى في العلا موجات حبّ تلهم الآمالا
لبست وريقات الخريف ثيابها أطيافها السكرى تفيض دلالا
فتشكلت من كل لون فاتن ألوان حبّ تبعث الموالا
لكن لوناً واحداً متميزاً حياً مهيباً لم يصبه كلالا
ذهبٌ يكللها بنور غامر شغل البقاع تعجباً وكمالا
تتماوج الألوان في إشراقها في بهجة مشبوبة تتعالى
هى متعة للمغرمين ونشوة صوفية ترقى إلى النجم البعيد قالا

وصلت إلى معهد القانون وفقاً للخريطة التي رسمها لي (سيفا) موظف العلاقات الخارجية، واجهتني قطعة صغيرة مثبتة فوق باب

خشبي تطل على المعهد، دخلت وأنا متوجس من المقابلة القادمة فهي التي سوف تقرر مستقبلي العلمي في هذا المعهد، واجهتني في المدخل أسراب من الشقراوات وبيدهن الأوراق والكتب المنهجية للدراسة، اخترت إحدى الجميلات منهن، وسألتها: أين يقع قسم القانون الدولي؟ ابتسمت الفتاة وعرفت من لغتي أنني أجنبي، قادتني في ممرّ طويل وارتقينا سلما، وهي تسير بجنبي وأنا سعيد بمرافقتها، فسألتها عن اسمها؟ قالت أنا (لودميلا) وللدلال يسمونني (لوسا)، كما سألتني عن اسمي فقلت حكمت.

ابتسمت وقالت هل أنت تركي؟ ضحكت من سؤالها فقد حسبتني على أقوام الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت. فقلت: لا يا فتاتي، أخطأت بالقومية، فأنا عربي من العراق، قالت لعلّك أول عربي يدخل معهدنا.

سألتها ما الاختصاص الذي تدرسه قالت: أنا طالبة دكتوراه (اسبرنت) أدرس في قسم نظرية القانون وأجهز رسالتي في هذا المضمار.

ودعتها وكان قلبي الذي خفق كثيراً يصاحبها، وكنت أتساءل هل ستسنح لي فرصة التعرّف إليها ومصادقتها، وكانت الأيام رحبة ورقيقة معي إذ صاحبتها أربع سنوات بعد ذلك التعارف الأولي.

دخلت غرفة القسم فقابلتني شقراء أخرى، مديرة القسم الإداري، وكانت ابتسامتها الجميلة ترحب بمقدمي، وتلك كانت أول بشارة على تأمين مقابلة جيدة، كانت المرأة ابنة الخمسين عاماً ولكنها مازالت تحتفظ بسمات الجمال، أجلستني وأخبرتني أن الأساتذة سيأتون بعد وقت قليل.

أثناء فترة الانتظار طرق الباب ودخل شخصان من زملائي العراقيين، هما عبد الواحد ومحسن، أدّيا التحية وأخبراني أنهما جاءا

لمقابلة الأساتذة حول دراسة الدكتوراه، كنت في غاية العجب من وجودهما معي لأسباب سوف أتطرق لها بعدئذ، دخل علينا ثلاثة أساتذة محترمين، أكبر منهما سناً، كما عرفتهم لنا مديرة المكتب، الأستاذ (بوبروف) والأستاذ (فيكودسكي) والأستاذ (مالينيني).

رحبّ الأساتذة بنا كثيراً، وكانوا في غاية الأدب والدبلوماسية، تحدثوا لي أولاً متسائلين عن رغبتي في أي فرع من فروع القانون، أجبتهم بروسية سليمة، القانون الدولي، وعندما سألوا زميلي تلعثم الآخران وأجابا بالعربي عن رغبتهما في الدراسة القانونية، قمت بترجمة رغباتهما، وبقيت أترجم لهما طيلة الجلسة، في نهاية الجلسة التي استغرقت ساعة كاملة، قدّم الأستاذ بوبروف كراسات قانونية لدراستها والمجيء بعد أسبوع لمناقشتها معهم، فكان من نصيبي كراس التعايش السلمي ويتكون من أكثر من خمسين صفحة.

خرجت من الاجتماع أبحث عن الفتاة التي قابلتني فلم أجدها، وعدت إلى القسم الداخلي في حالة نزاع وصراع كبير، أسأل نفسي كيف لي بدراسة هذا الكراس وأنا ما زلت أتعثر في معرفة اللغة الروسية.

وأنا جالس في الحافلة انتقلت بأفكاري وتأملاتي إلى العراق، وأخذت أراجع ما عشته وعانيته في كلية القانون، منذ دخولي الكلية صبيحة الخامس من تشرين الأول حتى تخرجي فيها، وكنت حين دخولي كلية الحقوق حالماً متفكراً بحياة علمية جيدة، وحياة اجتماعية وأكاديمية بعد سني الثانوية، إلا أنني فجعت بأشياء كثيرة، أولها أن الكلية كانت عبارة عن جدران وممرات خرسانية عالية ذات اللون الرمادي، الذي تبنى به عمارات وبيوت العراقيين، الذين ما عرفوا يوماً ألوان الحياة الجميلة، الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأبيض وما يخلط بين تلك الألوان لتخرج بهيئة الألوان الجميلة أصبت بحسرة كبيرة وأنا أتطلع إلى تلك الجدران الرمادية، التي سطت على حياتي منذ البدء في تلك الكلية.

والغريب أننا الطلاب لا نعلم أين نذهب أو نرتاح بعد ساعة المحاضرة، فلم يكن هناك نادٍ نلجأ إليه ليخفف عنا وطأة المحاضرات القانونية العكرة والجامدة، فكنا نخرج إلى محاذاة سكة الحديد نقضي الوقت بالتمشي حتى يحين وقت المحاضرة الأخرى، فأي صدفة كانت تلقيتها بمزيد من الحسرة والألم على تلك الحياة البائسة، والتي تسمى (أكاديمية) فُجعت بمسألة ثانية، وهي ندرة الفتيات في الحقوق، وكان عدد طالباتنا خمس طالبات يلجأن في هرولة إلى غرفة الطالبات خائفات من الوحوش الطلابية مخافة أن نفترسهن، ولم يكن بينهن أي فتاة جميلة سوى واحدة وتزوجت قبل نهاية السنة الدراسية.

عدت إلى عالم الجمال في المدينة الجميلة ذات الطبيعة المعطاء، معللاً نفسي بحياة أكاديمية تختلف عن تلك التي عشتها في بلدي، مليئة بالعلم والجمال والجنس الأنثوي اللطيف.

خرجت من كلية القانون محملاً بذلك الكراس الخفيف، الذي يحتوي على جرم كبير لا أعرف كيف سأتصرف معه ومع المقابلة القادمة، التي توجب عليّ أن أقرأ موضوع التعايش السلمي وأحاور به الأساتذة.

كانت الأفكار الفلسفية تنازعني، فقد علّقت مصيري على قدرتي في قراءة واستيعاب الكراس، وما يترتب على ذلك في حال فشلي في المناقشة القادمة، ولم يكن من السهل على مبتدئ باللغة أن يقرأ بل يدرس مادة بـ ٥٠ صفحة، فهي عملية كبيرة تحتاج إلى أكثر من أسبوع بل قد يطول التعرّف إليها وفهمها أسابيع كاملة، فقد تعلمنا اللغة لمدة سنة، ولم يتجاوز ما تعرّفنا إليه وقرأناه المئة صفحة، وما تحمله المدرسة من صعوبات هي عابرة علينا لكي نستوعب ونتعلم اللغة الروسية.

قابلني عند عودتي صديقي كاميران، وجدني مكتئباً وغارقاً في أفكاري متسائلا ما الذي حصل معي لأكون في مثل تلك الحال

المأساوية، ونحن وسط الجمال البشري والطبيعي، أبرزت له الكراس الذي يتوجب عليّ دراسته والامتحان به في المقابلة القادمة بعد مدة أسبوع واحد.

كان صديقي متفائلاً دائماً، فخفف من وطأة ذلك الثقل الذي كنت أعاني منه، ونقلني إلى جوهر الموضوع التعايش السلمي، قال:

– هل تتذكر ما أثاره المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في صفوفنا نحن اليساريون والشيوعيون؟ وكنا في حال هياج كامل ونحن لا نستوعب ذلك التغيير في سياسة ومنهجية السوفييت، فقد كنا في حالة صراع مع الرأسمالية والاستعمار ومؤامراته، التي تريد الإطاحة بالنظام الديمقراطي الوطني في بلادنا، فكيف تترك الصراع مع تلك القوى المتوحشة، التي تريد ابتلاعنا وتدمير بلداننا، هل يمكن أن يتعايش النقيضان؟

قد تكون سياسة السوفييت قادرة على استيعاب ذلك التناقض والصراع العنيف الممتد عشرات السنين، والذي يحمل في طياته محاولة تحطيم النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي، كيف سنعمل على تناسي التآمر علينا وصراعنا من أجل حماية ثورتنا ونبش المؤامرات المستمرة على جمهورية العراق الفتية؟ هل يمكن أن ننسى معاناتنا من الوجود الاستعماري وشركاته التي ابتزت وسرقت ثرواتنا وأذلتنا سنين طويلة.

كنت مع صديقي نتحاور ونتدارس الموضوع الخطير الذي أثّر في سياسة اليسار والحزب الشيوعي العراقي، الذي يستجيب بدون مناقشة لما يطرحه السوفييت من أفكار ومناهج قد تتلاءم وأوضاعهم السياسية والاجتماعية، وتتناقض مع حياتنا ومبادئنا وما نعانيه من تناقضات جوهرية مع خصومنا من أنصار الرأسمالية والنظام الاستعماري في بلدنا.

رضخت للواقع أحاول فك الطلاسم في ذلك الكراس الذي قدرت أن يكون مصير مستقبلي الدراسي متعلقاً بمعرفتي واستيعاب ما يحتويه، كنت أضع إلى جانبي القواميس المختلفة لمعرفة الكلمات الجديدة، التي احتواها الكراس والتي لم تمر علينا خلال دراسة اللغة في موسكو، كنت أضع القاموس الروسي الإنكليزي لمعرفة المعنى باللغة الإنكليزية، وأتحول إلى القاموس الإنكليزي العربي، إذ كنا نفتقد القاموس الروسي العربي في ذلك الوقت، وكان أكثر ما يعذبني أن الكلمات تحتوي على معانٍ عديدة، فأيّهما اعتمد في معرفة المعنى الدقيق؟ كان ذلك يعذبني كثيراً.

وبقيت أكثر من عشر ساعات متواصلة حتى توصلت إلى فك طلاسم صفحتين من الكراس، كيف سأكمل الباقي في الأيام القليلة المتبقية من الأسبوع؟ أي ورطة وضعت نفسي بها؟ أفلم يكن من الأفضل أن أتوجه للدراسة في بريطانيا التي درسنا لغتها لسنين عديدة؟ وأعود فأهدئ نفسي إلى أن مصيري اختلف عن مصير أخوتي، الذين رعاهم الوالد ووافق على دراستهم خارج العراق ولم يمنحني الموافقة، فضلا عن أن الأخوين بعثا لي بشريط مسجل من لندن يحثان على البقاء في العراق ورعاية الوالد والوالدة والعناية بالعائلة، أية سخرية حملها ذلك الشريط؟!

إنهم يتمتعون بأيامهم الجميلة في البلدان المتطورة، ويحصلون على العلم والأنس في معالمها، وأنا أبقى أرعى العائلة، أية قسمة غير عادلة أن يحظى أخواني بولع الحياة ويحصلون على العلم والشهادات العالية؟ وأنا أبقى حارساً وراعياً للعائلة؟

فقمت في حال فتح مجال الدراسة في روسيا بتسجيل اسمي والمجيء إلى هذه الدولة العظيمة، لتكملة دراستي العليا، ولعل ما عذبني في تلك الأيام أن والدي امتنع عن تزويدي ببعض المال لشراء بطاقة السفر، متصوراً أن ذلك سيمنعني من مواصلة دراستي، إلا أن والدتي

الحنونة رهنت حجلها وجلبت المال اللازم للسفر، بدون علمي ومعرفتي بموقف الوالد مني.

أخذت أقلب الأفكار حول مصارعتي تلك اللغة العنيدة التي لم أستطع حتى تلك الساعة فك رموزها، وأنا في صراع مع الوقت القصير للقاء الأساتذة المنتظرين لمناقشتي وقدرتي على استيعاب المادة التي أعطيت لي.

توصلت إلى الرأي المنطقي الذي يقودني إلى طلب المساعدة، ولم يكن أمامي سوى حل واحد وهو اللجوء إلى تامارا الفتاة التي وعدت بمساعدتي، توجهت إلى غرفتها فقرعت الباب في مساء اليوم الثالث من وجودي في بيت الطلبة (الابشجيتي) فتحت الباب ورحبت بي، دخلت الغرفة التي قضيت فيها ليلة من أجمل الليالي في حياتي، دعتني إلى كأس من الفودكا، فقلت لها:

– جئت لهدف آخر أرجو أن تساعديني فيه.

تساءلت:

– ما هو ذلك الهدف؟ أخبرني لعلّي أستطيع مساعدتك؟

شرحتُ لها موقفي في معهد القانون وطلب الأساتذة دراسة كراس (التعايش السلمي)، جلسنا سوية لحل تلك المعضلة، وكنت أقرأ لها مع تعثري في قراءة المصطلحات الجديدة، وهي تصلح لي اللغة، ومن ثم تقوم بشرحها بالشكل البسيط الذي يدخل دماغي، وبعد ساعات من المعالجات بلغ بي التعب أوجه، لكنها لم تتعب وهذا ما طمّعني بها، لطلب المزيد من المساعدة لإنجاز ذلك المشروع الأول.

اقترحت عليّ أن نؤجل الدراسة إلى اليوم التالي بعد أن نال مني الإرهاق درجة كبيرة، وكنا قد أنجزنا قراءة سبع صفحات، وهذا عمل

كبير، وكنت أثناء ذلك أسجل الكلمات الجديدة وكانت من الكثرة بحيث أحتاج لأيام لحفظ معانيها واستيعابها.

قالت لي:

– لماذا لا تذهب إلى السينما؟ لتفريغ شحنات التوتر التي أرهقتني وأرهقها.

راقت لي الفكرة فذهبنا معاً إلى السينما القريبة من القسم الداخلي لمشاهدة الفيلم المشهور (هملت)، وكان من صناعة السينما الروسية، دخلنا فضاء السينما الواسع وكان يتميز بأناقة الكراسي وجمال الديكورات، فعجبت من ذلك وسألتها: إن هذه السينما تختلف عن السينمات الصغيرة التي كنت أرتادها في موسكو.

قالت: إن هذه القاعة كانت مخصصة للقاءات الثقافية والفنية، وقد عمل الفنانون على تزيينها باللوحات والديكورات المميزة، التي اشتهر بها فنانو لينينغراد.

اشتغل الفيلم وهي تحدثني عن عظمة الفن في تلك المدينة العظيمة كان الفيلم الروسي هملت أفضل من الفيلم الأمريكي الذي عرض في سينما الخيام في بغداد، فالتمثيل شدنا كثيراً والتصوير والإخراج كانا في منتهى الإبداع.

وكان الممثل الروسي الذي نسيت اسمه الآن يبدع في عرض شخصية هملت المعقدة فاستدر مشاركتنا الوجدانية، وخرجنا من السينما ونحن في أقصى درجات الابتهاج من عرض ذلك الفيلم الروسي الناجح، سرنا قليلاً نستمتع بالجو الخريفي الرائع وأنا أحلّق في أجواء لا تشبه أجواء بغداد الصيفية الحارة التي تستهلك البهجة والمتعة من مشاهدة الأفلام الكبيرة في سينما الخيام.

نعم، كنت ومرافقتي الشقراء أحلّق في عوالم بهيجة لا تشبه تلك المليئة بالمنغصات في شوارع بغداد، خصوصاً عندما كانت ترافقني عائلتي، ففي هذه المدينة لا تجد من يتحرش بفتاتك مهما كانت جميلة فكل فرد منشغل بنفسه ومن يرافقه من الصبايا الجميلات.

أمضينا ليلة أخرى نصب الشراب والفودكا ونستمتع بما توفره لنا تلك الحسناء ومن أجواء المتعة والنشوة فأمضيت معها سويعات من اللذة منحتني القدرة على نسيان صعوبات اللغة الروسية، لعل مرافقة الصبايا وقضاء الوقت الجميل معهن هو أفضل وسيلة لتعلم ومعرفة اللغة الروسية.

توجهت بعد انقضاء فترة الأسبوع الممنوحة لي وكنت هذه المرة واثقاً من نفسي وليس كالمرة السابقة، التي كان فيها القلق والخوف يهزان كياني ويملأانني تردداً وحيرة حول مستقبلي الدراسي، استقبلتني المرأة الشقراء بابتسامتها الحلوة المطمئنة وكنت أول الواصلين إلى رئاسة قسم القانون الدولي، كلمتني بلطف متسائلة عن صحتي وإقامتي، وهل لدي شكوى من وجودي في لينينغراد، شكرتها على اهتمامها وحديثها الذي يبث الراحة والطمأنينة في النفس.

وصل الأساتذة بشكل متتابع ولم يصل زميلاي عبد الواحد ومحسن، تبادلنا التحيات والكلمات الطيبة، وسألوني عن زملائي فلم أملك جواباً لذلك، باشر الأستاذ (فيكو دسكي) بمناقشتي حول محتوى الكراس (التعايش السلمي) وكنت أجيب بدون تردد على أسئلته، واستمر الحوار بيننا حوالي نصف ساعة في ختام المناقشة أبدى قناعته باستيعابي للكراس، وسلمني كراساً آخر حول منظمة الأمم المتحدة، لعلي أدرسه وأعود في الأسبوع المقبل لمناقشته أيضا، وسلمني كراسات آخر أسلمها لزملائي.

خرجت من الاجتماع مسروراً ومليئاً بالثقة في النفس، وكنت مقتنعاً بأن الأساتذة من خلال ملاطفتهم بدأوا يفكرون بقبولي للدراسة العليا في معهد القانون بجامعة لينينغراد.

عدت للقسم الداخلي أبحث عن زميليّ لمعرفة سبب عدم حضورهم الاجتماع في القسم، لم أجدهما، وسألت أحد الأصدقاء عنهم قال لي إن محسن قرر العودة إلى العراق لعدم قدرته على مواصلة الدراسة لصعوبة اللغة وصعوبة دراسة القانون، أما عبد الواحد فقد قرر الانتقال من المعهد والمدينة قائلاً بالحرف الواحد لصديقي يوسف، أنا لا أستطيع البقاء في مدينة يسكنها حكمت.

سخرت من أقوال ذلك الجاهل بالعلم والمعرفة والذي كنت أعرفه حق المعرفة، منذ دراستنا في كلية الحقوق في بغداد إذ كان متخلفاً لا يستطيع اجتياز الامتحانات في الدور الأول، وكان طيلة السنوات الأربعة متعثراً ينتقل من صف إلى صف بصعوبة كبيرة وكنت أعرف قدرته الضئيلة في إتقان اللغة الروسية.

لعلّي لا أبالغ إذا قلت إن الروس أخطأوا كثيراً في قبول مثل ذلك الطالب وفي مختلف الاختصاصات بدون تدقيق وتمعّن في ملفاتهم الدراسية، بل قبلوا طلاباً في معاهدهم وجامعاتهم نجحوا (بالزحف) هذا المصطلح غير المعروف في البلدان الأُخرى، والذي استخدمه الزعيم عبد الكريم قاسم لأسباب سياسية لتثبيت زعامته بذلك الأسلوب الرخيص الذي جعل دول العالم المتقدمة في الغرب تشكك في دراستنا وهي تملك الحق بعد أن وصلتها أخبار الناجحين بالزحف.

ولم أخطئ بتقديري لعجز عبد الواحد في الدراسة فقد انتقل إلى كييف ولا أعلم ماذا فعل للحصول على الشهادة، كما كان يعمل العديد من الطلاب اللاجئين لوسائل الغش والوساطة واستغلال تساهل

الروس للحصول على الشهادة، وقد ثبت ما كنت أعتقده بذلك الشخص الذي عمد إلى ترجمة كتاب (قانون الكلولخوزات) إلى اللغة العربية وبتلك اللغة الصعبة الروسية، وحين أحيل الكتاب إلى تدقيق الترجمة تبين لي أن هذا الرجل بقى جاهلاً باللغة الروسية وبكل شيء في الحياة وقد كتبت من الملاحظات على الترجمة حوالي مئة صفحة بين إخفاقه في الترجمة وفي اللغة العربية وقد رفضت جامعة بغداد الكتاب.

كما أنه فشل في تدريس المادة التي أعطيت له في الجامعة المستنصرية (قانون الإصلاح الزراعي) وبعدها تم نقله إلى وزارة العدل حسب تنسيبها فوجد ضالته في الوزير حيث أصبح تابعاً بشكل كامل لحضرة الوزير، وهذا هو الطريق الصالح لمثل هؤلاء المزيفين.

في مساء ذلك اليوم المهم في حياتي بعد حصولي على ثقة الأساتذة وجدت أحد أصدقائي المقربين ينتظرني في الغرفة مع كاميران، محمد كامل فرحت بلقائه، فقد أمضينا سوية سنة كاملة في (الجريومشكي) وكان وجوده مفيداً جداً وممتعاً في تلك الليالي الشتوية، كان محمد ولا زال صديقي لمدة أكثر من خمسين عاماً قضينا بعضها في روسيا وبعضها الآخر في العراق، وجاهدنا سوية في المجال الثقافي في ظل حكم البعث البغيض الذي نال منه وجرده من قدراته الصحفية فاضطر لمغادرة البلد، وجردني من قدراتي الأكاديمية بطردي من الجامعة ومن كلية الحقوق لمدة (٣٠) عاماً سحبت خلاله أستاذيتي لعدم انتمائي لحزب البعث وأعيدت بعد ثلاثين عاماً، والآن بدأت أتواصل معه على الفيس بوك ووسائل الاتصال الحديثة، وقد كتبت له قصيدة قبل أيام قليلة أستعيد فيها ذكرياتنا الجميلة في لينينغراد وهذه بعض أبياتها.

صديق العمر أثملُ إذ أنادي فاسمك يمنح الروح الأمانا
وذكرك ينعش القلب المعنّى وحين تطلّ ذكرى ملتقانا

أبا العباس والأيام تجرى عوادى الدهر قد هدّت قوانا
وتبقى ذكريات العمر تسرى نسيماً منعشاً يحمى حمانا
وكان لنا في لينينغراد عهداً تزيّنه حبيبات حسانا
فناتاشا ولوداكن حباً جميلاً ممتعاً أحيا غُنانا
ليالى الحب مترعةً تجلّت بأعنف متعة تحيى هوانا
شربنا خمرة العشاق كأساً بليل الحب أفرغنا الدنانا
و(زيلينوگورسك) قد كانت ملاذاً لنا وكراً بها نغزو الزمانا
تمتعنا بقرّ الثلج مرعىً وكان الدفء ينبع من لقانا
رقصنا رقصة العشاق ليلاً وكان رفيقنا قمراً حزانا
وكم تهنا بأروقة العذارى وعشنا ليلنا نروى ضمانا

كان لقاؤنا الثلاثي مع محمد وكاميران أجمل ذكرى بقيت في خيالي، فمنذ لقائنا الأول بدأت نقاشاتنا وخلافاتنا الصداقية والفكرية مستمرة ولكنها لم تؤثر في الود الذي جمعنا.

أمضيت الأسبوع الثاني في معاناة أخف مع اللغة والموضوع الذي استلمته من الأساتذة (الأمم المتحدة) وقد أعانتني مرة أخرى (تامارا) في هضم واستيعاب الدرس الثاني الأخف من الأول وكنت أقضي أكثر من عشر ساعات في القراءة وحفظ الكلمات الجديدة.

قابلت أساتذتي وأنا أكثر ثقة بنفسي وأول سؤال توجهوا به حول الزميلين الآخرين وسبب غيابهما، قلت لهم إنهم غادروا المدينة بدون عودة إلى الدراسة في معهد القانون.

بدأ الأستاذ (فيگودسكي) بمناقشتي حول محتوى الكراس (الأمم المتحدة) ويبدو أن أجوبتي دلّت على استيعابي وقدرتي على هضم المادة

بشكل يؤهلني للاستمرار في دراسة الدكتوراه في نهاية المناقشة أخبرني رئيس القسم (بوبروف) بتعيين الأستاذ (فيگو دسكي) مشرفاً، وأخذنا في مناقشة مواضيع الدراسة وتقديم الامتحانات في مختلف مواضيع القانون الدولي وقد قُسمت إلى: نظريات القانون الدولي، تأريخ القانون الدولي، المعاهدات في القانون الدولي، القانون الدبلوماسي والقنصلي والتعايش السلمي ومواضيع أخرى فرعية، وقد قسمت المواضيع على سنة كاملة وبعد اجتياز الامتحانات بها أبدأ بالعمل في الرسالة، وقد اخترت الموضوع منذ البداية وناقشته مع أستاذي وكان النضال العربي في الأمم المتحدة من أجل الاستقلال.

في هذا اللقاء تعرّفت إلى شخصين مهمين وكانا طالبين في القسم، ريتا الفتاة الشقراء وفاليري، وكانا من أفضل الأصدقاء الذين استمرت علاقتي بهم حتى نهاية فترة دراستي، لم يقصرا في تقديم العون في المصادر وتصحيح الرسالة من الناحية اللغوية، وقامت ريتا بتعريفي بصديقتها التي تدرس في قسم نظرية القانون (لودميلا ايفانفنا) الفتاة التي كانت أقرب الناس لي في خلال إقامتي في لينينغراد، وسوف أذكرها كثيرا في القادم من الصفحات.

أقمنا في القسم الداخلي رقم (6) حوالي الشهرين وبعدها نقلنا إلى قسم جديد مخصص لطلبة الدكتوراه، كانت إقامتي في قسم رقم (6) مهمة ونافعة جدا، فقد استفدت من اختلاطي بالروس في تحسين لغتي الروسية وقضاء أجمل الأوقات مع صديقتي تامارا قبل أن تنهي دراستها وتسافر إلى مدينتها للعمل فيها.

كنت أقضي أوقاتاً كبيرة مع محمد وكاميران قبل تفرّقنا؛ كلّ حسب كليته والقسم الداخلي، فذهب محمد إلى قسم رقم (8) وكاميران إلى قسم رقم (4) ولكن ذلك لم يؤثر في استمرار لقاءاتنا.

وكانت دائما في الغرفة المخصصة لي في قسم رقم (2) حيث نقضي أوقات نهاية الأسبوع في النقاشات العميقة في مجالات الأدب والفلسفة السياسية وكان محمد المحور الذي يحركنا خصوصا وهو يتبنى الفلسفة الوجودية، وكنت أخالفه في كثير من المناقشات المتعلقة بـ سارتر وكامو، بالرغم من أنني تبنيت القسم المهم من تلك الفلسفة المتعلقة بحرية الإنسان وأهميتها، ولكن ذلك لا يعني التحرر من القضايا الوطنية والنضال ضد الاستعمار والعنصرية ولا سيما موقف سارتر من القضية الجزائرية التي كانت محترمة في ذلك الوقت، وقيادة سارتر للنضال من أجل تحرير الجزائر وسط المثقّفين الفرنسيين ومثقّفي العالم الغربي، وقد قدم الرجل الكتاب (قانون) حول صراع الجزائر من أجل الاستقلال.

وكان هذا الموضوع المثير حول قانون سارتر مجالا لمناقشاتنا والحديث حول الحرية والنضال في سبيل تحرير الشعوب المستعمرة والذي يعني من وجهة نظر سارتر ليس الحرية المطلقة بدون أي التزام سياسي أو اجتماعي لتحقيق تلك الأهداف، وذلك ما جعلني أتبنى الوجودية الملتزمة بقضايا شعوبنا في الحرية والاستقلال بالرغم من دعوات صديقي محمد في الحديث عن الحرية المطلقة التي يدعي أن الوجودية تؤمن بها.

كانت مهمتي الأولى في حياتي الدراسية في مدينة الحب والجمال لينينغراد، أن أنجز أعوامي الدراسية على أفضل ما يكون، وأن أكتب أطروحتي للدكتوراه وهذه هي المهمة الرئيسة والأولى في وجودي أصلا في روسيا.

منذ الأيام الأولى في قسم القانون الدولي تم ترشيح مشرف على رسالتي الأستاذ (فيگووسكي) كنت معه، وكنت أحضّر وأعمل جاهدا

لاجتياز الامتحانات في اللغة الروسية وفي القانون الدولي، وقد قسّم هذا الموضوع إلى عدة أقسام مهمة يجب اجتيازها.

وقبل الامتحان النهائي ومنها تأريخ القانون الدولي، المنظمات الدولية، الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة، القانون الدبلوماسي، قانون المعاهدات، وقد قام الأستاذ بتقسيم السنوات ما قبل الأطروحة إلى عدة فصول، كل فصل من شهرين لاجتياز الموضوعات المذكورة بنجاح، وكنت خلال هاتين السنتين أبحث عن موضوع لأطروحتي حتى لا يداهمني الوقت ويتم فصلي من الدراسة وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات قابلة للتمديد سنة أخرى.

اجتزت الامتحانات كافة – المذكورة أعلاه – بنجاح أرضى المشرف على سير دراستي، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد مرض الأستاذ بالسرطان ولم يمهله المرض طويلا فتوفي بعد سنة واحدة من الإشراف، وكان خسارة لي في مجال دراستي ولكن رئيس القسم والقسم استدركا الموضوع وعينوّا لي الأستاذ (بوبروف) العلاّمة المعروف في مجال القانون الدولي، وكان يشغل في نفس الوقت رئاسة القسم.

واظبت على التحضير لتكملة الامتحانات المطلوبة، وفي النهاية حددوا لي التأريخ لأداء الامتحان في موضوع القانون الدولي وشكلّوا لجنة للامتحان من قبل الأستاذ المشرف وأستاذ آخر (مالينيني) الأستاذ في القانون الدولي وأستاذ آخر في قسم القانون العام، ولا بدّ لي من ذكر مسألة مهمة تتعلق بأداء الامتحانات في روسيا.

حيث كان نظامهم يقتصر على الامتحان الشفوي ولا يعتمدون على الامتحان التحريري في جميع المواد العلمية الإنسانية، وفي مختلف كلياتهم وجامعاتهم، ولا بدّ لي من ذكر حقيقة مهمة في الامتحانات الشفهية حيث تترك الطالب في حرج كبير وهو يواجه لجنة الامتحانات

بخلاف الامتحان التحريري الذي يترك الطالب مع علمه ودفتر الامتحان ليجيب بكل هدوء وتفكّر، وخصوصا أن ما ينقصني في هذا الامتحان هو أنني لم أكن متمكنا من اللغة الروسية الصعبة جدا.

تخطيت الامتحان بثقة ونجحت بدرجة جيد وبدأت أستعد لكتابة الأطروحة وكان هناك امتحان آخر يحب اجتيازه في اللغة الروسية، وكان القسم قد عيّن لي أستاذا من كلية الآداب أرمني يدعى.... وكنت ألتقي به أربع ساعات أسبوعيا بشكل منفرد، وكان الرجل لطيفا جدا ومؤدبا، ويعمل بكل جهده من أجل مساعدتي في اللغة الروسية.

وأصبحنا أصدقاء خلال تلك الفترة وفي نهاية السنة اجتزت الامتحان التحريري والشفهي في مادة اللغة الروسية بدرجة جيد جدا.

بعد تلك الامتحانات تفرغت كليا للتحضير وكتابة أطروحتي، وقد أضمنت عنوان الأطروحة موضوعا يتعلق بأمتي العربية، التي كانت مغلوبة على أمرها وكان العنوان على الوجه التالي (النضال العربي من أجل الاستقلال في الأمم المتحدة).

وكان الصراع داميا ومخيفا مع الاستعمار الإنكليزي والفرنسي، فقد كانت شعوبنا تخوض صراعا مريرا من أجل الاستقلال، خصوصا بعد إقرار مبدأ تقرير المصير وقرار إلغاء الاستعمار من قبل الجمعية العامة للأم المتحدة في عام 1960، وكان الصراع محتدما في أروقة الجمعية العامة ومجلس الأمن والهيئات المختلفة في الأمم المتحدة.

عملت بجهد كبير في تجميع المواد اللازمة لهذا الموضوع الواسع فقد استخدمت مصادر كثيرة ومتعددة في اللغات العربية والروسية والإنكليزية.

كان يومي يبدأ في الساعة الثامنة من كل يوم من أيام شتاء لينينغراد الثلجي البارد، وكنت أستخدم الباص رقم (30) المتوجه إلى

شارع النيفسكي، حيث تقع المكتبة الرئيسة للمدينة، تلك المكتبة الغنية بآلاف الكتب في مختلف الاختصاصات، وكان نهار المدينة لا يتجاوز سبع أو ثماني ساعات، حيث أخرج في الظلام وأعود إلى القسم الداخلي في الظلام؛ فالصباح يبدأ في العاشرة وينتهي اليوم في الخامسة مساء.

كنت أقضي الوقت منقبا عن المادة الضرورية لأطروحتي، وكانت العاملات الجميلات في المكتبة تساعدن جميع المستخدمين بكل رحابة صدر في جلب الكتب وتقديم النصائح المتعلقة بعمل جميع المراجعين لتلك المكتبة التي قضيت بين جدرانها قرابة ثلاث سنوات.

وعلمت أن الوثائق المتعلقة بالأمم المتحدة موجودة في مكتبة لينين في موسكو، وقام القسم بإرسالي مع مخصصات كافية لمدة ثلاثة أشهر للاستزادة من معلومات تلك المكتبة العظيمة التي تعتبر ثاني مكتبة في العالم بعد مكتبة الكونغرس الأمريكية، استفدت كثيرا من وثائق الأمم المتحدة، وخصوصا مناقشات وقرارات الجمعية العامة المتعلقة ببحثي حول القضايا العربية هناك، كان القسم الأكبر فيها في اللغة الإنكليزية والباقي في الروسية، وكانت لغتي الإنكليزية لابأس بها استطعت من معرفتي بتلك اللغة الاستفادة كثيرا من تلك الوثائق، وطلبت من شقيقي سامي الذي يدرس الدكتوراه في كبروج أن يبعث لي بعض الكتب في المنظمات الدولية لكبار الكتاب الأمريكان والإنكليز، أمثال (شوارستبرگر) و(لكسن) وجنينغ وبرت وغيرهم من العلماء في القانون الدولي، عملت بجد في كتابة الأطروحة، ولا أنسى المساعدات التي قدمتها صديقتي (لوسا) في مجال التصحيح اللغوي والصديق الروسي (فاليريا) الذي كان يعمل موظفا في قسم القانون الدولي.

واجهتني مشكلة مع أستاذي والقسم تتعلق بموضوع القضية الفلسطينية وحق الشعب الفلسطيني الذي يستطيع استخدام هذا المبدأ

المهم لتحقيق دولته القومية، فقد انتقدت الموقف الروسي السوفيتي في موضوع تقسيم فلسطين والاعتراف السريع بدولة إسرائيل بالرغم من وقوف المندوب السوفيتي إلى جانب العرب في الأمم المتحدة وكفاحهم للحصول على الاستقلال.

عندما كانت تعرض قضية الجزائر وتونس والمغرب وعدن وعمان إلى جانب ما تعرضت له مصر وسورية من الاعتداءات الإسرائيلية فكان الموقف الروسي مرناً في دعم القضايا العربية العادلة.

على الرغم من ذلك لكن السوفييت لم يقبلوا بالنقد الموجه لهم في موقفهم الابتدائي من القضية الفلسطينية وكان موقفي قويا في طرح ذلك النقد الصحيح المستند إلى مبدأ تقرير المصير، الذي أعلنته الثورة البلشفية لجميع شعوب الاستعمار في عام 1917، وكان موقف أستاذي (بوبروف) داعما لي في تثبيت ذلك النقد في رسالتي، لكنه أخبرني صراحة بأنه لا يستطيع أن يدعمني رسميا وكتابيا وفي المناقشة أيضا ليحسب ذلك الموقف عليه، وكان العلماء والأساتذة السوفييت يتجنبون النقد الموجه إلى حزبهم وحكومتهم وكانوا مقيدين تماما بالموقف الرسمي الحزبي والحكومي.

كانت مناقشة أطروحتي في 1966/12/28 من قبل لجنة مؤلفة من أساتذة الكلية وكان عددهم يزيد على العشرة، وحضر المناقشة أصدقائي العراقيون والروس واستمرت المناقشة عدة ساعات نلت بعدها درجة الدكتوراه بإجماع تصويت أعضاء اللجنة، واحتفلنا تلك الليلة في غرفة صديقتي لوسا، والتي حضرها أستاذي (بوبروف) وأصدقائي محمد عادل وعادل شبر ابن عمي ويوسف القصاب وغيرهم العديد من أصدقائي، وقد شربنا ورقصنا حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة المهمة في حياتي العلمية وحصولي على الدكتوراه في القانون.

لا بدّ لي من الحديث عن حياتي الخاصة ذات الصلة بمعاشرة النساء ولم أكن متعففا في هذا المجال، كنت أبحث عن صديقة تمتلك جميع الصفات التي أتمناها، ذكاء، وجمال، وانفتاح، وحب وجميع الصفات الإنسانية اللائقة بالمرأة، وكنت على علم بأن الفتيات الروسيات ليست لديهن أية توجهات أو عقد إزاء العرب أو أية أجناس سوداء، صفراء، أو بيضاء.

كانت هناك فتاة في قسم القانون الدولي تدعى (ريتا) وكنت أفكر في إقامة علاقات حميمة معها لأنها تمتلك جميع الصفات التي أرغبها في المرأة، وكنت أشعر بميل نحوها وهي تبادلني الميل على ما اعتقدت، وفي نهاية أحد الاجتماعات العلمية في القسم (القانون الدولي) والتي كانت تمتد إلى ساعات الليل، خرجنا في الساعة الثامنة مساء في منتصف كانون الأول الشهر المعروف ببرودته الكبيرة، اقترحت ريتا أن نتمشى تحت زخات من الثلج (الوفر) المتساقط وهو يغمر بدفئه، فالثلوج عندما تتساقط تدفئ الأرض والمشاة على بساطها.

كانت وجهتنا الباص رقم (30) الذي ينقلنا إلى مركز المدينة فقد كان معهدنا يقع في أحد أطراف لينينغراد الجميلة، سرنا جنبا إلى جنب وكل واحد منا يلتحف معطفه السميك لحماية نفسه من برد روسيا القارص، ولكن دفء القلوب والنفوس كانت تذيب الثلوج وتجز البرد ليحل محلها الحب والعواطف الساخنة، كنت أحاول أن أتقرّب من (ريتا) زميلتي في القسم، ولكنها كشفت لي منذ تلك الأمسية الثلجية عن نفسها، وقائلة بكل صراحة إنها بالرغم من ميلها نحوي، إلا أنها متزوجة ولا تريد أن تقوم بأية مغامرة تؤثر في حياتها الزوجية.

لكنها أضافت إلى ذلك الحديث الذي صدمني أنها تمتلك صديقة جميلة ورقيقة تنتمي إلى قسم نظرية القانون في معهدنا تدعى (لوسا) وتبرعت لتعريفي بها في الأيام القادمة.

دعتنا أنا وإياها إلى أمسية في دارها وكنت معها ومع لوسا بغياب زوجها المبعوث إلى جيكوسلوفاكيا ببعثة علمية، كان دفء الغرفة والدفء النسائي يتغلغل في عروقي فيذيب الحرج والخجل من اللقاءات الأولى لمعاشرة النساء، وكانت الفودكا الروسية جاهزة لإذابة آخر معالم التردد والخجل، فقد شربنا العديد من الكؤوس، وكان الكأس الأول للتعارف مع (لوسا) ويسمى لديهم بعبارة (بوندرشاقت)، والتي تمهد الطريق للصداقة وكانت هذه الوصلة تبدأ بتبادل الأذرع وتلازمها مع الكؤوس، ومن ثم شرب الكأس مرة واحدة.

تعارفنا ورقصنا وسمرنا حتى منتصف الليل، وشعرت بأنني مقدم مع تلك الفتاة الجميلة والذكية والمثقّفة على علاقة وطيدة وحميمة كنت أبحث عنها، فكانت تلك الليلة أفضل مقدمة لإقامة علاقة وطيدة معها.

لقيتها في اليوم الثاني في المعهد، فاستقبلتني بابتسامة ودودة مع تحية الصباح وأمسكت يدي الباردة، بيدها الدافئة وسرنا سوية في ممر المعهد الطويل متلازمين نتحدث كأننا أصدقاء منذ عشرين سنة، دعوتها إلى المسرح لمشاهدة باليت (كسارة البندق) فقد اكتسبت خبرة لا بأس بها خلال السنة التي قضيتها في موسكو.

استجابت لوسا بكل رحابة صدر لتلك الدعوة، وكنت أرغب أن أوطد علاقتي بها من خلال الذهاب لمشاهدة الباليه وبالمناسبة كنت قد اقتنعت بأن جميع أصدقائي من العراقيين كانوا يعمدون إلى دعوة أصدقائهم ومعارفهم من النساء لهدف تمهيد الطريق إلى الفراش ومواقعة النساء، وليس الرغبة في متعة مشاهدة الباليه أو سماع الموسيقا أو الأوبرا أو المسرحيات العظيمة التي كانت تعرض في تلك المسارح الراقية، وذلك نقص كبير في ثقافة الأصدقاء وعدم تمتعهم الحقيقي بالفن الراقي خلال إقامتهم في مدن روسيا الجميلة.

تمتعت كثيرا بمشاهدة الباليه، كما أحسست أنها أتت إلى وجودي في ذلك الجو الرومانتيكي الذي خلفه راقصو الباليه في المسرح الصغير مالي تياتر، وكانت تحدثني على موضوع الباليه في الفترات جنب الكافتيريا، وشربنا كأسا من الكونياك مما بعث الدفء والجرأة لدي، وفي المقطع الثاني شعرت أننا بدأنا نقترب من بعضنا، أمسكت بيدها فلم تمانع وتلك إشارة مشجعة على تطوير العلاقة بيننا.

في المقابلة الثانية في المعهد دعوتها في يوم السبت نهاية الأسبوع للقسم الداخلي الذي أسكنه، وكنت أحتل آنذاك غرفة مستقلة وقد وافقت على الدعوة قمت بالتهيؤ لتلك المقابلة، قد أضمرت شيئا في نفسي، وأخذت أستعد لقضاء ليلة جميلة مع تلك الشقراء.

هيأت العشاء وكان يتضمن أنواع اللحوم الباردة، كما هيأت كفته (كباب مقلي) على الطريقة العراقية، كان هذا النوع من الغذاء سهل الطبخ والتهيئة، وكان بعض الأصدقاء الروس أحبوا تلك الطبخة، كما هيأت الفودكا والواين وهي من العوامل المهمة في السهرات الروسية.

جاءت (لوسا) في الموعد المقرر واستقبلتها بكل حفاوة وتقدير لبدء الليلة، وكنت آنذاك أملك مسجلا جديدا (وندنك)؛ جلبته معي من الندى في سفرتي السابقة، وكنت أمتلك بعض الأشرطة لتسجيلات غربية وعربية، فيروز، فريد الأطرش، عبد الوهاب، ناظم الغزالي وغيرها من التسجيلات العربية.

بدأنا الليلة بالفودكا فملأت كأسها وكأسي، مرددا مع نفسي:

وهل أحلى من الكأس يذيب الهم عن نفسى

وشغلت المسجل وكانت الافتتاحية بأغنية فريد الأطرش (التانگو العربية) كما يسميها الروس ولعلها الموسيقا العربية الوحيدة آنذاك، التي كنا نستمتع برقصة التانگو على أنغامها، بدأت الرقص معها

محتضنا جسدها، وفي ذلك الجو الراقص والجميل ذهبت بعيدا إلى بغداد ومدينتي الحبيبة وذكرى أول رقصة مع صديقتي عالية في عيد ميلادها، وكانت أول رقصة مع فتاة حقيقية وجميلة، فقد تعلمنا الرقص في معهد الرقص ونحن الشباب يراقص بعضنا بعضا.

كانت تلك رقصتي الأولى التي نقلتني من عالم إلى عالم آخر، عالم الأنس والطرب والحب، وكنت تلك الليلة منتشيا بالرقص والشراب في مجتمع متحضر ومتقدم لم أكن أعرفه من قبل، فأنا ابن مدينة محافظة لا تعرف الطرب والرقص وأي متعة من متع الحياة، وكنت أدور معها في رقصة الفأس، وأنا في حلم جميل كأني أطير في سماوات الحب والطرب وكانت من أجمل الليالي التي عشتها في أيام شبابي في بغداد.

كنا نشرب ونأكل من اللحوم وهذه هي الطريقة الروسية في الشرب والأكل معا وكنا نرقص في فترات الراحة من الأكل، وكان الشراب يغلب أجسادنا وعقولنا لطي جميع العقبات والخجل، وحاولت تقبيلها فلم تمتنع وحين دعوتها للفراش أجابتني بجزم: هل تعتقد أن المرأة الروسية بهذا الرخص وتستجيب من أول مقابلة للمضاجعة؟! فامتنعت عن المحاولة مؤجلا ذلك إلى مقابلات أخرى.

لكني احترمت إرادتها ورأيها، ووجدت فيها امرأة ناضجة وعاقلة وليست كبقية النساء السابقات التي تعرّفت بهن وهذا زاد تعلقي بها.

بعد تلك الليلة الجميلة رافقتها حتى الباص وتواعدنا على لقاء قريب في الأيام القادمة، علمت بأنها لا تريد الابتعاد عني، بل تريد الاستزادة من اللقاء للاطمئنان لعلاقة وطيدة وليست عابرة.

في اللقاء الآخر وكنا نحضر لاحتفال رأس السنة الميلادية دعتني لحضور الحفل الذي تقيمه مع أصحابها وصويحباتها في حفلة رأس السنة، اصطحبت معي مسجلي مع باقة ورود جميلة، استقبلتني

الجماعة بحفاوة بالغة لا أدري لماذا نحب الاحتفال برأس السنة الميلادية بحفلات صاخبة، ولا تهمنا الحفلات الاجتماعية والدينية مثلا رأس السنة الهجرية؟ ووجدت أن الروس لا يختلفون عنا في إحياء هذه المناسبة، التي تؤشر إلى مغادرة سنة كاملة من أعمارنا، وكأننا نعيش في ذكرى توديع تلك السنة في فرحة كبيرة لنستقبل سنة جديدة، متناسين أو غافلين عن فعل الزمن وأثره في حياتنا ونحن نطوي من غير اهتمام أو نرجع لمضيّ سني الشباب الواحدة تلو الأخرى، والتي لن تعود أبدا حاملة معها كل ما عشنا من حب وآلام ومعاناة، وكأن شيئا لم يكن، لنستقبل السنة الجديدة بكل الفرح والصخب الأناني.

ولا أعلم هل يطوي الإنسان سنينه الماضية بدون أن يحس على نفسه أنه ماض إلى زمان آخر، لا يعلم ما ينتظره فيه، بل قد يكون ذاهبا بدون عودة إلى الحياة التي عاشها في تلك السنة المنطوية.

كانت هذه الأفكار تتازعني وأنا أدور مع الراقصين، وإن كنت لا أخفي فرحي مع الجماعة بقدوم العام الجديد، وسط ذلك المجتمع المؤنس، ووسط ثلوج روسيا وبردها القارص كنت محتفيا بـ (لوسا) فراقصتها على أنغام التانجو الجميلة، (يا زهرة في خيالي – رعيتها في فؤادي) وكنت أشبع عيني من تلك الشقراء الرقيقة والرشيقة وهي تتلوى معي على أنغام فريد الاطرش، وكأنني أراقص تلك الزهرة الجميلة التي عشقها فريد الأطرش وتغنى بها، نعم كنت سكرانا ومنتشيا أغني مع التانكو وأردد الكلمات الروسية في صفات الجماعة المحتفلة.

طال لقاؤنا وغناؤنا وفرحنا حتى ساعات الصباح الأولى، وكأننا لم نشرب تلك الكمية الكبيرة من الفودكا والواين، فقد كنا نرفع الأنخاب مع كل رقصة وأغنية تارة باسم المضيفة، وأخرى باسم هذا الضيف

الغريب القادم من بغداد، وكنت فعلا محط اهتمام وأنظار المحتفلين من صديقات وأصدقاء (لوسا) ولا أخفي حقيقة أن الروس والروسيات كريمات وكرماء في إغراق الضيوف بما يملكون من شرب ومأكل بدون برود، فيبذلون ما لديهم لإكرام ضيوفهم كما أنهم وخصوصا الفتيات، كنّ كريمات في عواطفهن فيغرقن الإنسان بفيض من الحب والقبلات والمتع البريئة والعميقة من غير حذر أو توقف.

كانت (لوسا) واحدة من تلك الفتيات الكريمات التي أغرقتني في تلك الليلة بكل ما تملك من حفاوة وتدليل وحب ورقص حتى الثمالة، مما جعلني أطمع منها بالكثير، وحين حانت ساعة المغادرة تعمدت في التأخر لأحظى بها في استكمال جمالية تلك الليلة في فراشها الدافئ، وعندما حاولت معها كما في المرة الأولى في غرفتي وصدتني، وجدت نفسي وحيدا، لكنها أخبرتني أن أعود إليها بمفردي الليلة القادمة، لم أكن واثقا من هذه الدعوة، فهل سوف تمكنني من نفسها أم هنالك مسألة أخرى تريد أن تقولها لي بشكل منفرد.

في اليوم الأول من كانون الثاني 1963 كان يوما مهما في علاقتي مع تلك المرأة، كنت أسير في شارع نفسكي في لينينغراد متفكرا وحالما أيضا، فهل سأكسب الجولة مع تلك المرأة الشقراء، والجميلة، والرزنة، كانت مشاعري متضاربة، فلم يكن في نيتي أن أقيم علاقة حميمة مع أية امرأة تنتهي بالزواج، كنت أحمل شعار العودة إلى الوطن لخدمة العراق وعدم الارتباط بزوجة أجنبية، أجني عليها، وتجني عليّ؛ لاختلاف ظروف بلدي المحافظ عن روسيا المستقلة والمتفتحة.

كنت آمل أن أجد لدى تلك المرأة قبولا وليس حبا، فما كنت أحمل مشاعر رومانسية تبرر الحب والعشق، فقد كنت مقاتلا في حياتي الخاصة العامة.

جئت روسيا لأكمل دراستي وأحصل على الدكتوراه، وأعود إلى بلدي مظفرا لتأدية الخدمة المطلوبة لذلك البلد، مغترفا المعرفة والعلم الضروريين لتلك الخدمة.

كان القلق يتقاذفني، فلم أكن متيقنا من دعوة لوسا بمفردي تلك الليلة، وصلت القسم الداخلي وقلبي يدق بعنف لعدم معرفة ما ينتظرني، استقبلتني بابتسامة مشجعة، لكنها حين صافحتني شعرت برعشة خفيفة في يدها.

جلسنا نتبادل الأحاديث العامة قبل أن نبدأ في احتساء المشروب الذي أعدته لتلك الأمسية، شربنا ورقصنا واحتضنتها مقتربا كثيرا من ذلك الخدّ اللدن والحار، وكنت مستفزا ومتحفزا للوصال فقد أيقظ ذلك القرب الحرارة في جسدي المشتاق للمضاجعة.

كانت يبدو على لوسا الاضطراب وهي تراقصني، فتارة تقترب مني وتارة أخرى تبتعد، ولم أكن أخمن ماذا وراء تلك الحركات، ولم أكن على يقين لمعرفة مشاعرها الحقيقية، فلم تكن علاقتنا متواصلة، بل كانت متقطعة مما جعلني أظن بأنها لا تحمل لي من الودّ ما يجعلني أستطيع أن أفوز بها وبحبها وصداقتها.

عندما حانت اللحظة الحاسمة للمواقعة، طلبت مني برجاء خاص وصوتها يرتجف أن أكون رقيقا معها، فهي ما زالت بكرا لم يقربها رجل من قبل، وذلك أثار دهشتي كثيرا، إذ كيف يمكن لامرأة بلغت من العمر 25 عاما وهي لم تعرف الوصال الجنسي مع الرجل في ذلك المجتمع المتفتح جدا.

تحقق ما قالته بعد دقائق، فقد اكتشفت أنها فعلا كانت عذراء، وإن لم يكن الوصال على ما يرام، نظرا لعدم تجاوبها في تلك الساعة لوضعها غير الطبيعي، وهي تقوم بالوصال الجنسي لأول مرة.

خرجت من غرفتها في ساعة متأخرة وأنا أضرب أخماسا بأسداس، مرة أقول لا داعي للعلاقة الحميمة مع امرأة لا تمتلك خبرة جنسية، وتارة أقول نعم إن هذه المرأة النظيفة الأولى في علاقتي معها سوف تكون من تستحق المواصلة والصداقة بدون علاقات أخرى من جانبها، تلك العلاقات التي كانت معروفة لدى الجميع في حرية المرأة الروسية في اختيار من تهوى من الشباب.

كانت تلك الليلة من الأول من كانون الثاني 1963 بداية لعلاقة استمرت أكثر من أربع سنوات حتى مغادرتي الاتحاد السوفيتي، كانت علاقتي بتلك المرأة الرائعة صداقة حميمة لا ترتقي إلى الحب، وإعجابا متبادلا، وقد أخبرتها منذ البداية أنني لا أنوي الزواج منها لرغبتي في العودة إلى بلدي الذي لا تستطيع المرأة الغربية العيش فيه نظرا لظروف كثيرة بيئية واجتماعية ودينية، وكنت أدعو زملائي من الطلبة إلى عدم الزواج من الروسيات والعودة للعمل في الوطن، ولم يستمع إلى ندائي غير القليل منهم.

كانت لوسا مستجيبة لما قلت لها فقد خيرتها بين الاستمرار بالصداقة دون وعد بالزواج، أو الافتراق قبل أن تتعمق علاقتنا، قالت إنها تقبل بصداقتي حتى مغادرتي روسيا .

استمرت علاقتي بتلك المرأة وقد حصدت كثيرا من المزايا والفوائد من تلك العلاقة كان أولها تحسين لغتي حيث كنا نلتقي على الدوام في المكتبة أو القسم الداخلي وكنا نتحدث الروسية، وهي من جانبها كانت تقوم بتصحيح الخطأ في حديثي، ولعلّي لا أبالغ إذا قلت إن الأجنبي يتعلم لغة البلد المقيم فيه من الاختلاط بالناس، أكثر مما يتعلمه في الدراسة المنهجية، وذلك جربته شخصيا في روسيا، فقد كانت لغتي لا تختلف عن الروس لدرجة كبيرة حتى بالتهجئة ونطق الكلمات، كما أن تلك المرأة ساعدتني كثيرا في مجالات عديدة، أولها اطلاعي على الثقافة

السوفيتية والروسية السابقة، عن طريق ما تقدمه لي من كتب أدبية وتاريخية، مع تقديم المساعدة في فهم ما تنطوي عليه تلك الكتب من صعوبات معرفية ولغوية، كما عرفتني إلى الشعراء والشعر الروسي، بوشكين، مايكوفسكي، لرمانتوف، وكانت تجلب معها أجدد دواوين بوشكين في سفراتنا نهاية الأسبوع إلى ضواحي لينينغراد وغاباتها، حيث الطبيعة الجميلة شتاء وربيعا صيفا وخريفا، فقد عرفت من خلالها جمال الطبيعة وأنواع الأشجار في مختلف الفصول فقد عشقت (البربوزا البيضاء) الرشيقة والمستقيمة، وهي تكاد أن تناطح الغيوم بعلوها كما عشقت شجرة (القيقب) التي تمتاز بألوانها الجذابة والصاعقة في خريف لينينغراد، والذي يسميه الروس بالخريف الذهبي، كنا نخرج في تلك الأيام المعتدلة الطقس إلى مرابع مدينة بوشكين، أو زيلنوگورس وغيرها من المناطق الغنية بطبيعتها الخلابة، وكنت أمضي مبهورا وما زلت حينما أتذكر تلك الروعة والظاهرة الخلابة أتوق شوقا لتلك المرابع الساحرة، التي عرفتني إليها لوسا.

كان الشعر الروسي القديم صعب المعاني والقوافي فكانت بكل صبر تفسر لي قصائد بوشكين ويسينين، فجعلتني مع الأيام آنس لذلك الشعر المعبر والغزير بالمعاني الثقافية والإنسانية.

ولم تقصر معي في التعرّف إلى الفن الروسي من موسيقا ورقص بالية، مسرحيات، ومعارض فنية ومتاحف وكنائس إلى غيرها من الكنوز الروسية الثقافية المختلفة، كنا نزور المسارح كثيرا ولا سيما المسرح البلشوي في لينينغراد، فلا يقل فنيا عنه في مستويات البالية والأوبرا لكبار الموسيقيين وكنت آنس للأوبرا، فقد وجدت فيها ضالتي المعبرة عن الحزن التراجيدي في الأوبرات العالمية خصوصا أوبرا عايدة، والتي جلبت من هذه الأسطوانات العدد الكبير إلى بلدي الحبيب، لتعلقي بالموسيقا والأوبرات الكلاسيكية، فقد كانت الحزن الذي

يسكنني لتلقي التعبير العميق في الأوبرا بأصوات المغنين والمغنيات الروس.

كما كنا نزور المسرح لمشاهدة المسرحيات الروسية المختلفة ونذهب لسماع الموسيقا الكلاسيكية وقد تعرّفت تدريجيا إلى عظمة الموسيقا الكلاسيكية، فلم تكن ثقافتنا الموسيقية في العراق تعرّف مثل ذلك الشموخ والعظمة، التي تعطيها الموسيقا الكلاسيكية في نفوس السامعين.

ولن أنسى ما قدمته تلك المرأة الرائعة من خدمة كبيرة في تصحيح رسالتي للدكتوراه، فقد كانت لغتي القانونية تضفي حصنا قويا على كتاباتي في مجال القانون، وقد امتدح المشرف على رسالتي والأستاذ (بوبروف) قوة ومتانة وسبل الرسالة مما جعلني أزهو بما حققت وكان ذلك بمساعدة تلك الصديقة الرائعة التي أعتز بصداقتها .

كنت سعيدا طيلة تلك السنوات بعلاقتي مع تلك المرأة الفاضلة والجميلة، وقد شبعت من قربها وعواطفها، ولن أنسى ما قدمته لي من خدمات جليلة ومتع حسية وموسيقية وفنية، كانت حياتي تسير في نهج هادئ لا يعكره أي عامل من العوامل المثيرة اجتماعيا، اقتصاديا وسياسيا، وكان همي أن أنجز عملي الأكاديمي في جامعة لينينغراد والعودة في الوقت المناسب إلى وطني، وكان الجليد الذي يغطي كل شيء في المدينة، الشوارع والبنايات والأشجار عاملا مهما في بقائي داخل جدران المكتبة أو القسم الداخلي.

ولكن ما حصل في أحد الأيام الـ (8) من شباط عام 1963 قضّ مضجعي وهز كياني، كنت نائما في صبيحة ذلك اليوم وفزعت من النوم على دقٍ عنيف على باب غرفتي، فخرجت مفزوعا لأرى جاري في

ملابس النوم يخبرني بأن انقلابا حصل في وطني العراق، ورئيس الحكومة لا يعرف مصيره.

كان ذلك الخبر أبشع خبر سمعته في حياتي، فقد حدث ما كنت أتوقعه في العراق، عندما تركت البلد في حال من التوجس والخوف بعد الأحداث المرعبة التي كانت تحصل كل يوم تقريبا، فالاغتيالات للسياسيين والتوقيفات والأحكام على من ناصر الثورة وعبد الكريم قاسم مستمرة ومتواصلة والحرب في كردستان كانت تستهلك حيوات الشباب من عرب وكرد .

كانت الظروف مهيأة إلى حرب ومعركة جديدة لا يعرف مستواها وما تجره على البلد، فالمعارك بين الوطنيين والشيوعيين والقوميين كانت تتصاعد في كل يوم، وكنت أعيش ظروفها وأعاني من الخوف على بلدي مما سيأتي من أحداث.

كنت ضابطا في الاستخبارات العسكرية عام 1960 وكنت أعيش في حال اضطراب وخوف من التآمر على بلدي، ففي كل يوم كنت أسمع وأشاهد الضباط المتآمرين، وهم يتحدثون بدون خوف أو وجل عن قرب قلب حكومة قاسم والانتقام من الشيوعيين وأصدقائهم ومساندهم وكانوا مئات الآلاف، فيا ويل البلد من المؤامرة القادمة، وكنت أنقل للحزب الشيوعي الأخبار كما يحصل من اجتماعات في المديرية العامة للاستخبارات، ففي كل ليلة وكنا في خفارة دائمة يجتمع بعض الضباط المعروفين لليسار وقاسم وعلى رأسهم صالح مهدي محاش محي الدين عبد الحميد وغيرهم من ضباط وزارة الدفاع، وكان هؤلاء يتحدثون عن قرب نهاية المجرمين الشيوعيين وقاسم وجماعته، ولم يكونوا يخافون أو يخفوا نواياهم الإجرامية بحق الشعب العراقي.

لم تكن الاجراءات التي اتخذها قاسم بحق المتآمرين كثيرة بكبح المؤامرة، بل كان متوجها لضرب الشيوعيين واليسار وهم كانوا من أقرب أنصاره ومساندي ثورة 14تموز، لكنه لم يستمع لنداء العقل والحقيقة ويستند إلى من ناصره؛ بل حصل العكس من ذلك وكان الشيوعيون واليسار لم يقدروا حجم التآمر من قبل أعدائهم وأعداء النظام من ضباط وسياسيين وشبكات العملاء والأمريكان حتى حصل ما لم يستطيعوا مقاومته، فلم تكن الاستعدادات من قبلهم على مستوى تلك المؤامرة الرهيبة، فلم يملكوا من الأسلحة ما يسد مقاومتهم، كما أن الضباط الموالين لهم ولقاسم أخذوا على حين غرة، وفي النهاية حصلت تلك المأساة الرهيبة بالعراقيين في ذلك اليوم الأسود 8 شباط 1963.

كنت وبدون أن أتفكر مقررا الخروج من العراق، ولخوفي مما سيقع فقد عشت تلك السنة وأنا أراقب وأسمع وأشاهد ما يحدث في الدفاع وخارجها، وكنت لا أقبل ولا أشجع الحرب والصراع بين الحلفاء السابقين شيوعيين وبعثيين وطنيين وعلمانيين وعملوا في جبهة واحدة لإسقاط نظام العمالة للاستعمار، لم يكن بين أولئك أو هؤلاء من يتفكر بحال العراق وما سيحدث وهم يتصارعون وعيونهم وآمالهم متوجهة إلى الخارج تستلم الأوامر والتوجيهات من هذه الجهة – السوفييت – أو تلك الجهة – مصر عبد الناصر– وتناسوا أنهم عراقيون وطنيون يحبون بلدهم، فلماذا ينصاعون لتلك المؤامرات والأوامر لقادة من الخارج لتدمير الثورة وأهلها؟! فقد أخطأ الجميع أخطاء كبرى لا يمكن أن تبرر سواء كانوا شيوعيين، قوميين أم بعثيين، تركوا محاربة الاستعمار وأعوانه ومؤامراته، وتوجهوا لمحاربة وقتل بعضهم بعضا وما حصل بعدها من جرائم وتجاوزات من قبل اليسار وأعوانه، فاضطرب المجتمع ورجال السياسة وفقدوا الإدراك وكانوا لا ينصاعون للنصائح، وحصل ما حصل في نهاية الأمر في الثامن من شباط عام 1963، تلك

المؤامرة التي دبرها وحاكها الأمريكان والإنكليز بالتعاون مع القوميين والبعثيين، وليس البسطاء منهم بل من القادة والمسؤولين منهم، وهذا ما جعلني أفكر بالرحيل من العراق واغتنمت فرصة الدراسة في روسيا وتركت بلدي دامع العين حزينا لحدسي بما سيقع من فضائح وجرائم لا يمكن غفرانها.

كان حجم الجرائم في ذلك الانقلاب المشؤوم هزّ مشاعر العالم المتقدم، وأيقظ في نفوسنا وعيا كبيرا، لا يمكن أن تفعله الفاشية بدعم من الأوساط الاستعمارية، كانت اللهجة تصل إلى مرحلة الإبادة الجماعية، وكانت الأخبار القادمة من العراق تتحدث عن مجازر بشرية يقتل فيها آلاف العراقيين الخيرين من المثقّفين السياسيين، ومن أبناء الشعب المخلصين كانت هذه الجرائم تدفعنا نحن في غربة من وطننا إلى التجمع والتكتل لعمل شيء يجمع من بقي من البشر في السجون والمعتقلات، فأنشأ رجال الفكر من العراقيين جمعية تدعى (جمعية الدفاع عن الشعب العراقي) وكان في مقدمة هؤلاء الشاعر الكبير الجواهري، عبد الفتاح إبراهيم، هذا الرجل السياسي والمفكر الذي ألقى فينا في الاجتماع الذي تم في القاعة الكبرى في جامعه موسكو كلمة مؤثرة، واقترح في تلك الكلمة توحيد صفوف مختلف العناصر الوطنية والمثقّفة لمجابهة تلك الهجمة الضارية على شعبنا ووطننا ومن بين أولئك القادة د. صلاح خالص، د. فيصل السامر، ومن الشخصيات العالمية التي انضمت إلى تلك الحملة المفكر والفيلسوف البريطاني (برتراندرسل) والذي كان من ضمن العاملين معه الشهيد خالد زكي، الذي كان يقود مع مجموعة من المثقّفين اليساريين جمعية الطلبة في بريطانيا.

وكانت تلك الحملة العالمية قد نجحت إلى حد كبير في إيقاف نزيف الدم والجرائم البشعة بحق شعبنا حتى انتهت بانقلاب عبد السلام عارف في تشرين 1963.

كنا نحن الطلبة نعمل في تلك الدائرة من ضمن المؤهلين لقيادة الحملة في مدينتنا، كان محمد كامل عارف، كاميران القره داغي وأنا نقود الحركة، وكنت قد نفضت عن كاهلي غبار السكوت والهدوء الذي مررت فيه بعيدا عن السياسة.

قمنا سوية مع طلبتنا النجباء بحملة كبيرة لمساعدة أهلنا في العراق حيث شملت الحملة جمع تواقيع كبار العلماء والأكاديميين الروس في لينينغراد ضد جرائم الفاشيين في العراق، وأذكر أننا نحن الثلاثة زرنا إمام الجامع الكبير في المدينة للحصول على دعمه في إيقاف الجرائم ضد الشعب البريء في العراق، وحصلت مفارقة أثناء حديث الإمام عن تلك الجرائم قائلا: إن جرائم البعث بحق شعبكم أبشع من جرائم الشيوعيين بحق الشعب السوفيتي. وهو لم يكن يعلم بأن المستهدفين في تلك الجرائم هم من الشيوعيين.

وكنا نتبرع بما نمتلك من نقود من رواتبنا وما لدينا من المقتنيات ونبعثها إلى موسكو، حيث مركز جمعية الدفاع عن الشعب العراقي، كما كنا نعمل اجتماعات تثقيفية للطلاب الأجانب والروس في معاهدنا وكلياتنا حاشدين أكبر مجموعة من المعارضين للحكم الفاشي في بغداد، وكنا خلال تلك الحملة الكبيرة نسينا دوافعنا وعملنا الأكاديمي لفترة ليست القصيرة من الزمن، حتى حصول الهدوء النسبي في العراق بعد انقلاب عارف، حيث عدنا مرة أخرى إلى نشاطنا الأكاديمي والدراسي.

لكن ما حصل في نفوسنا من صدمة لن يزال بسهولة ولا سيما أن أغلبنا فقد عزيزا لديه، صديقا، أبا، أو أخا أو قرابة، فقد كان حجم الجريمة كبيرا شمل جميع أرجاء العراق، وجميع فئات الشعب العراقي من الوطنيين والمخلصين.

كانت أيامي في تلك المحنة التي مرت بنا نحن الطلبة العراقيون في الغربة في غاية الحزن والحنين إلى الوطن والأهل والديار، التي قامت بها العصابات الفاشية قتلا ودمارا و تشريدا، فلم أكن أعلم لفترة من الزمن ما حلّ بأهلي وأحبابي وأصدقائي ولم أعلم من قتل منهم ومن سجن ومن تشرد، وبقيت أعاني لفترة ليست قصيرة آلام الغربة والوحدة والبعد مما أهاج حزني وحنيني للوطن والأهل الخلان، وهذه الأشعار تعبر عما عانيته في تلك الأيام القاسية:

حزن وحنين

الحزن يسكن في خلايا جرحي الدامي الحزين
ونشيج أيتام العراق يطوف في الأجواء يبحث عن معين
والنادبات من الثكالى يفترش مقابرا تطوي البنين
هذا العراق من سنيه آلات ورعشة الموت الحنين
فلقد نسينا فرحة الأطفال والأعراس حلم الأقربين
أين الليالي الضاحكات بجرف دجلة تزهي الساهرين
وشموع آلاف الصبايا تملأ الدنيا بنور العاشقين
ذهبت وأضحى كل من فينا تعمره جراح البائسين
وغدا العراق معمرا بالحزن بالآلام يسحقه الأنين
آهٍ على بلد الضياء غدا ضياعا تحت ظل العابثين
وأطل في منفاي تغمرني الليالي بالحنين
والحزن في قلبي دموع تستعيد صدى السنين
ذكرى الحبيب بليل بغداد الحزينة عاشق للياسمين

ولم تنشف دموعي من الحزن، وعشت في الفراق والألم في تلك الأيام الظلماء وأنا في غربة الروح والوطن فكنت ألجأ إلى الشعر للتعبير عن حزني وألمي.

واستيقظ الحزن القديم بجانحي
وسط الصبايا في حنين دائم
حزن تغلغل في دمي
منذ الطفولة يوم فطم الأنجم
ما بين ثدي حبيبة مغرومة
كم مرة أبكي كما في مأتم
ومعالم الحزن العميق توردت في داخلي
لم أعرف الفرح الظليل الناعم
فنما بقلبى سر جرح ساخن
من عالم القهر القديم المعتم
من عهد أسياد الحروب المجرم
ذاك الدم المسفوح عطر عالمى
لم يبق عابث لم يدنس كربتى
ذبحوا العراق بفعل سطو ظالم

وأعود مرة أخرى إلى الشعر أعبر فيه عن وجعي من الغربة ومن الفرقة وما فعله الطغاة بوطني وأهلي وحنينا أقول:

وقفت أناجيكم وأنت بغفلة وفي داخلى كل الجروح تنوح
وغربة أيامى تثير زوابعاً وأكتم أشواقى ولست أبوح

منحتنى عيون الذكريات لواعجا نشيد عرانا من أفاع فحيح
تركنا بمفردنا نصد صواعقا وفي غيهب الأيام شرّ يصيح
بلغنا سنينا ماحقات تدلنا بأن حلول القادمات يلوح
أعيش على الذكرى وقلبى مسهد لعلى أرى حبا بقلبى يبوح
وبانت عروقى للزمان كليلة ويظهر عجزى في الحياة قروح

في تلك الأيام القاسية التي عشتها بعد أحداث 8 / شباط، جعلتني أتوق إلى دفء الصداقة والأصدقاء كي تخفف عني معاناة الغربة ووحشة الأيام في البعد عن الوطن، وجدت ضالتي في ثلاثة أصدقاء وأعزاء خففوا الكثير من ألم ووحشة أيام روسيا الجليدية.

كان في مقدمة هؤلاء محمد عارف الصديق الذي تعرّفت إليه في بغداد وكان بصحبته (رشدي العامل)، وحضرت أمسية في نادي الخريجين كان نجمها محمد الذي ألقى ومضة جميلة حازت على رضا المجتمعين وأعجبتني كثيرا، وكان رفيق لياليّ في موسكو، فكم تحاورنا وتناقشنا في أمور كثيرة في تلك الليالي الشتوية الطويلة، وكانت الوجودية مركز تلك النقاشات ووجدت فيه صديقا رائعا ومثقّفا وعميقا وهنا التقيت به في لينينغراد في تلك الظروف القاسية أيام انقلاب 8/ شباط، اتحدنا وعملنا وتحدثنا وسهرنا وكانت أياما عاصفة بالرغم من خلافاتنا الفكرية والأدبية معه، إلا أن ذلك لم يؤثر في حميمية علاقاتنا.

وكنت أرى فيه أديب العراق المقبل إذ قرأت له العديد من القصص الجميلة، المنشودة في المجلات الأدبية العربية.

وكان كثير المطالعة والاجتهاد إلا أن وكسة أصابته فسقط صريع الانهيار العصبي المفاجئ، فنقل إلى مستشفى الأمراض النفسية وكنت أزوره دائما وأخفف عنه معاناته، وأعتقد جازما أن محمد أصيب بتلك

النكسة العصبية، نتيجة معاناته من الطموح الكبير، والذي كان هدفا لأعماله الأدبية، أن يكون في كتاباته ورواياته المقبلة بمستوى (سارتر) نجم الوجودية الصاعد في تلك السنوات الستينية.

وكم تأسفت على حدوث ذلك المرض العصبي الذي أصاب صديقي وقد تشافى من المرض فنقلته إلى غرفتي لنعيش سوية مع عبد الرحمن فترة ليست بالقصيرة، وكان محمد بحاجة كما كنت إلى رفقة وصداقة تخفف من لوعه الفراق، وألم الأحداث الدامية في العراق عشنا سوية وكنا نتقاسم الشراب والطعام، بل حتى السكائر، وأذكر أنني كنت أملك علبة سكائر (روثمان) ندخن منها سوية سكارتين آخر الليل، لإنهاء يومنا في تدخين السجائر الروسية الثقيلة والعفنة.

كان محمد يعاشر فتاة جميلة ومثقّفة (نتاشا) وكانت رفقتها تضفي عليه وعلينا جوا جميلا ومرحا، نقضيه بالرقص والمسامرة وشرب الفودكا، وكم كانت تلك الليالي الطلابية التي أشتاق لها كثيرا، في غاية المرح والجمال والحميمية، تلك الليالي التي تركت في نفوسنا أثرا مهما، فلم تكن عابرة في حياتنا فقد استمرت علاقتي بـ محمد فترة خمسين عاما وأكثر.

كان الصديق الثاني الذي حظيت به في غرفتي، كاميران القره داغي وكنت على معرفة به من بغداد، كان طالبا في كلية بغداد عندما كنت طالبا في كلية الحقوق، وكان يزور ابن عمه وصديقي (كمال).

كان كاميران نعم الرفيق والأنيس في تلك الغربة الجليدية في روسيا فقد قضيت معه أبهج الأيام، وكم سهرنا وكان يروي النكات بأسلوب يستدركنا الضحك والبهجة غير أنه لم يوفق في علاقاته مع الفتيات الروسيات.

كانت هناك مجموعة من صديقاتنا وعلى رأسهم (موزا) إلا أنه كان يعدّ أخا بالنسبة لهنّ، فلم يستطع هذا الرجل المرح واللطيف المعشر أن يحظى بصديقةٍ حتى لقائه بزوجته الحالية (اولگا) وقد صرعه حبها إلى درجة لم يكن يستطيع تحمل ليل الصقيع في روسيا، وقرر الزواج منها إلا أنه لم يستطع فعل ذلك بناء على أمر موجه من الحكومة العراقية إلى السلطات المدنية الروسية التي لم تكن تسمح لنا بالزواج من الروسيات، لم أتخلَ عن مساعدته في هذا المجال، فتوجهت إلى صديقي في قسم العلاقات الأجنبية بجامعة لينينغراد (سيفا) وكانت تربطني به صداقة حميمة فأقنعته بالوقوف إلى جانب صديقي كاميران.

قام الرجل بتدريج رسالة إلى السلطات الروسية يخبرها بأن كاميران مطارد من قبل الأمن العراقي ولا يستطيع الحصول على موافقة السفارة العراقية.

وافقت السلطات الروسية مستجيبة لطلب رئاسة الشؤون الخارجية في الجامعة وبهذه المناسبة فلن أنسى ما قدمه (سيفا) في علاقتنا المشتركة من خدمات جليلة، فكان الرجل يرعاني ويمنحني ما يستطيع من خدمات سياحية؛ فقد برّني كثيرا بتلك الخدمات وجلب لي بطاقة في قطار الصداقة داخل الاتحاد السوفيتي استمرت 28 يوما، كنا نمضي ليلنا في كابينة القطار ونجول في النهار في المدن السوفيتية بدءا من مدينة (لاتفيا) مرورا بمشك وكييف وخاركوف واديا، ومدن عديدة حتى وصولنا إلى البحر الأسود بالباخرة وإلى (يالطا) في القرم.

وكانت تلك السفرة من أجمل ما قضيته في روسيا فقد زرنا أربعة جمهوريات في ذلك القطار، وكنا حوالي مائة شخص اندمجنا سوية وأصبحنا أصدقاء نرقص سوية ونغني معا ونتجول في ربوع المدن

الجميلة، وكأننا نعرف بعضنا منذ عشرات السنين وهذه سمة الروس الطيبة، التي تتضح بالطيبة والبساطة والتواضع.

أشرفت على حفلة زواج صديقي في أحد المطاعم الفخمة، وكنت أدير الحفلة سردوجا لرفيقي وصديقي وكانت الحفلة تزهو بمجموعة من الأحباب وصديقاتهم الروسيات، فقضينا ليلة من الليالي الجميلة والصاخبة.

استمرت علاقتي بكاميران حتى الوقت الحاضر، مع بعض الانقطاعات فقد التحق بالثورة الكردية ولكن التقينا عند رجوعه إلى بغداد وكنا نسهر سوية ونلتقي على الدوام في داري حتى خروجه من العراق، بعد رفض زوجته (اولگا) التجنس بالجنسية العراقية.

استقر كاميران في لندن وأصبح أحد كتاب جريدة (الحياة) وفي هذه الفترة حتى دخوله العراق مرة أخرى بعد الاحتلال الأمريكي كان سلوكه لا يرضيني بل منافيا للوطنية والأخلاق العراقية، فقد عمل مع الأمريكان مديرا لإذاعة (العراق الحر) وزار إسرائيل عدة مرات، وهذا ما جعلني أبتعد عنه؛ بل بلغت مشاعري من العنف حدا كتبت بحقه وحق من سار في ركاب الأمريكان قصيدة نفست فيها عن غضبي إزاء ذلك الصديق الودود والمرح والطيب، جاء في هذه القصيدة وعنوانها: ((إلى غرباء))

يا أدعياء العلم طال هروبكم
عن موطن في العلم كان الأعلما
عشتم جميعا في النعيم بغربة
قطعت جذوركم فصرتم شرذما
أرخصتم أيد تصدى أديمها

للغاصبين ومن تعدى عالما
ونسيتم في ظل عزّ زائف
وطنا أجاركم سنينا وأطعما
هل تفخرون بعلمهم يتقدم
والعرب صرعى عالم متأثما
فلكم شبعنا من علوم قدمت
موتا وجوعا ثم قهرا أبكما
ويموت أطفال العراق ضحية
من فرط إشعاع لغرب أجرما
وتبررون تعاون المرتد منكم
فعل إنسان بإغناء الحضارة أسهما
عن أى عولمة تحكى مجالسكم
ونحن من عشر أعوام نهب دما
نشقى ونبلى ويجنى الجهل قامتنا
ويرتقى العلم في أمتاعكم قدما
من يا ترى أشعل النيران فيّ وطنى
ومن أطاح بدور العلم وانتقما
هم سادة المال في غرب يروق لكم
بنوا حضاراتهم من بعض ما غنما
سفحتم ماء وجه غاب وانعدما
وما حفظتم لنا عهدا ولا ذمما

فصرتم سلعا في السوق بائرة

كما تباع وتشترى في العتيق دما

وتدعون بأن النصر حالفكم

فكيف ينصر من في روحه هزما

واستمرت علاقتي بصديقي كاميران بالرغم من تلك الخلافات وحين عمل ناطقا باسم رئيس الجمهورية (جلال طالباني) عرض عليّ بتوصية من الرئيس أن أعمل رئيسا لديوان رئاسة الجمهورية، وألحّ عليّ في قبول المنصب الكبير لما يراه المزيفون والمزورون، ولكني رفضت بإباء فلم أستطع هضم التعاون مع نظام نصبه الأمريكان المحتلون وأعتقد أن كاميران كان حسن النية وراغبا في تقديم خدمة لصديقه القديم.

أما الصديق الثالث الذي عشت معه وكاميران في غرفة واحدة في القسم الداخلي رقم (4) فكان الكردي عبد الرحمن معروف، وكان نعم الصديق الطيب البار والحبيب ويلقب عبد الرحمن دلالا بـ (عَول) وهو من مدينة السليمانية، وأنا منذ شبابي تعرّفت إلى العديد من الكرد في كلية الحقوق وأصبحوا من خيرة الأصدقاء الأوفياء.

وتوفقت بالتعرّف إلى عبد الرحمن فكان خير رفيق في لينينغراد، وعشنا معا في غرفة واحدة بعد أن تركنا القسم الداخلي الخاص بطلبة الدكتوراه ونتيجة لسلوك أحد طلبتنا وإساءته للعلاقة مع الروس.

التقاني عبد الرحمن بوده وحبه، كان في غاية الأدب وعشنا معا نستمتع سوية في سهراتنا وطلعاتنا في المدينة الجميلة خصوصا في ليالي لينينغراد البيضاء، وكنا نتوجه مع آلاف المحتفلين إلى ضفاف نهر النينما، في منطقة متحف (الأرميتاج) ونختلط بتلك المجاميع المرحة،

مصحوبين بالآلات الموسيقية، اوكورديون، كمان وآلات النفخ النحاسية والكل يساهم في المرح والرقص، وكانت تلك الليالي مهرجانات مستمرة حتى الصباح فما أحلى تلك المدينة بطبيعتها ونسائها وشبابها ومنتزهاتها الواسعة، كنت في غاية السعادة مع ذلك الصديق الكردي.

كان (عول) يتحول من الجدّ إلى اللهو في ليلة الأحد، حيث نترك معه الدراسة الجدية لنتحول نحو الاستعداد لليلة الأسبوعية المرحة، نهيئ أمورنا من أكل وشرب، ونستقبل صديقاتنا لقضاء سهرة ممتعة، وكان هذا ديدننا في ليالي الشتاء الطويلة، وكنا في الصيف نخرج إلى الخليج الفنلندي، وكنت أستأجر زورقا صغيرا ونذهب فيه بعيدا وسط ذلك الخليج المتميز بمياهه الزرقاء وسمائه الفسيحة، لتضفي علينا جمالها الملائكي.

وكنا نقضي سويعات بالجذب والسياحة وحين عودتنا نقف بجانب محل صغير لبيع البيرة، فأرتشف من تلك البيرة المنعشة بعد التعب في التجذيف والسباحة، وهكذا كنا نقضي أيامنا في تلك المدينة الرائعة، حتى عودتنا للعراق واستمرت لقاءاتنا مع زوجاتنا في مناسبات كثيرة، ولكن القدر اللعين فجعني بموته في مدينة السليمانية، فقد سقط قتيلا تحت عجلات سيارة مسرعة، فأثار موته حزني العميق فرثيته بهذه القصيدة، إلى ذكرى صديقي الراحل عبد الرحمن:

يا وحشة الدنيا بما حمل البلاء
وتراحم الأرزاء بثتها تباريح المساء
يا لعنة الدهر الذي حرم الأحبة من لقاء
خطف المنون العالم النحرير في عز العطاء
عجبا ملاك الموت كيف خطفت عنوان النقاء

(عولٌ) صديق العمر هل حقا تلحفت العراء
في وحشة اللحد المقيت يغوص حبك في سراب
لكن روحك لم يلامسها الظلام تنير لنا العباب
لا لن تغيب بزحمة الموت الرهيب فأنت باقٍ في اللباب
إني أراك كما رأيتك في الليالي البيض حبا شامخا فوق السحاب
واللهو في تلك الليالي الضاحكات معمدا بسن الشباب
إني أراك وبهجة الدنيا على (النيفا) وأسراب النساء
والدبكة الحسناء وهي تهزنا طربا ونمرح في الضياء
صخب الشباب ولهونا والمنشدون مواكبا تجود ألحان السماء
ذهبوا وما أبقى لنا الموت الرهيب سوى العذاب
أعطيت كردستان ما في قلبك المملوء حبا دون خوف وارتياب
أفرغت روحك في حميا العلم تخدم فيه قوم راعهم طول الغياب
وجعلت كردستان قبلة ما كتبت وغبت عنها كالشهاب
ولسوف تبقى خالدا كالنجم يسطع نوره فوق الهضاب
(رحمن) سوف أظل في حزني يمزقني اغتراب

سوجي والعيون السود

جلسَ حكيم[1] في تلك السيارة الكبيرة المكشوفة من سيارات السياحة السوفيتية المنطلقة إلى بحيرة (ريتسا) في جورجيا، هذه السيارة المعدَّة لاستمتاع السياح وهم يعبرون جبال القفقاس الشاهقة.

كانت السيارة تضم عشرين راكباً ولعلها صممَّت خصيصا لهذا الغرض أو كانت عبارة عن باص كبير أزيل سقفه عمداً لهذا الغرض.

كنَّا في تلك السيارة مجموعة من الطلبة العراقيين والأجانب ألمان، كوبيين، بلغار، عرب من مصر والعراق وسوريا، جمعتنا فرصة الدراسة في معاهد لينينغراد المدينة الأسطورية لجمالها واحتضانها للثورة عام 1917، والمعروفة بلياليها البيضاء.

جلس شاب عراقي جميل الطلعة إلى جانبي اسمه قاسم وكان من طلاب معهد الهندسة، تعرّفت إليه في لقاءاتنا الوطنية التي تعودنا على إحيائها في لينينغراد كذكرى 14 تموز والأعياد المختلفة لإدامة العلاقات بيننا لإبقاء صلتنا بالوطن العزيز بهذه المناسبات مرددين الأناشيد والأغاني التي تذكرنا وتربطنا بالأحداث الجميلة والمأساوية التي مر بها العراق.

كان قاسم شاباً جميل الطلعة أسود العينين وذا وجه باسم يثير البهجة في نفوس من يتطلع إليه، وكان حديثه عاطفياً، وهو يحدثني عن عائلته في مدينة الناصرية وأخته لمياء الطالبة في الصف السادس الابتدائي ذات الجدائل الطويلة والوجنتين العريضتين وعيونها الملونة، تلك الصغيرة التي تركت لدى قاسم أجمل الذكريات عن سني العمر وهو في أحضان عائلة بسيطة، سنحت له فرصة الدراسة في روسيا فجاء

(1) حكيم: هو الاسم الذي يشير الكاتب به إلى نفسه في النص، إلى جانب ذكره اسمه الحقيقي حكمت.

وهو يحمل في أعماقه الكثير من الآمال في تكملة دراسته في الهندسة ليعود لأحضان عائلته ووطنه الجميل والكبير ليؤدي فريضة الخدمة، وكان يغني لي ونحن في السيارة أغنية مليئة بحب الوطن البعيد .

اللي يدور محب يمكن سنة ويلكَا

واللي يدور ذهب بسوك الذهب يلكَا

واللي يدور وطن وين الوطن يلكَا

واستمر قاسم وأنا معه وبقية أفراد السفرة من العراقيين نردد أغانينا تارة العاطفية منها وتارة الوطنية، ولكن (أغنية حركت الروح لمن فاركَتهم) كانت تتردد دائماً في لقاءاتنا الطلابية.

كانت الانطلاقة لسيارات السياحة الممتلئة بأشكال مختلفة من القوميات والألوان من أفارقة وعرب وكوبيين وفيتناميين وصينيين تشكّل لوحة عجيبة لن ترى مثلها في بلدان أخرى سوى الاتحاد السوفيتي، كانت المدينة الجميلة سوجي هي المركز الذي تنطلق منه أفواج السواح لجبال القفقاس الشهيرة، وكانت المدينة من أجمل مدن روسيا أو لعلها تابعة لكَروزيا واحتلها الروس، فقد كانت مصيفاً للطبقة الحاكمة في زمن القياصرة وما زالت مصيفاً للكبار من المسؤولين وضيوفهم ومن أسعفهم الحظ من أمثالي من الطلبة الأجانب الدارسين في المعاهد السوفيتية، فقد اعتادت عمادات المعاهد إرسال الطلاب الأجانب لمدة شهر للترويح والاصطياف في منتجعات سوجي (جايكا وبوريفسنك) واللتين كانتا من ضمن مصايف الطبقة الراقية في حكم القياصرة.

ما أحلاكِ يا سوجي بألوان نسائك الشقراوات والسمراوات وهن يستعرضن في شوارعك العريضة المظللة بالأشجار الباسقة، وما أجمل الزهور المنتشرة في كل زاوية من زواياك الظاهرة والمخفية، لقد خلقك اللّه قطعة من الجنان الأرضية، تزهو فيك أسراب الصبايا والشباب،

إطلالتك على البحر الأسود يا درة هذا البحر الأزرق، الذي يحتضن بدفء نساء روسيا وكروزيا وبلاد القفقاس وهن يسرحن ويمرحن على ضفافك أيها الأعظم زرقة في العالم كما تسميك الأغنية الشهيرة (البحر الأكثر زرقة)، كم سرحنا في ضفافك ونحنُ غارقون في التخيلات عن نسائك المنتشرات بكثافة ولا نشبع من النظر واختراق الأجساد العارية والمغطاة في وسطها بورقة التوت، أي عالم مليء بالجمال والأنس هو عالمك يا سوجي الساحرة، ونحن القادمون من مدن الملح والمدن الكئيبة لا نصدق ما نراه من جمال نساء أجسامهن ببياض القيمر وسيقانهن برشاقة وبياض البريوزا الروسية، وكنَّا لا نعرف ما علينا عمله وسط ذلك الجمال النسوي والطبيعي.

نعم يا سوجي فأنت واحدة من أجمل مدن الدنيا التي خلقها اللّه! إنها أجمل فرصة لرؤيتك والاصطياف في مرابعك وبحرك الأسود والهادئ الموج الذي تلاحق أمواجه الصغيرة فاتنات الروس.

تسلقت سياراتنا المكشوفة جبال القفقاس بعد خروجنا من سوجي وبدأ الطريق يتلوى كأفعى طولها مئات الكيلومترات، يتخلل غابات الريوزا والصنوبر، كم كانت ممتعة تلك المناظر البهيجة ونحن نتسلق في سياراتنا هضبة القفقاس، ولا نعرف أين نوجه نظرنا يمنة أم يسرة؟! فكل ما يحيط بنا من خضرة وكثافة الأشجار، يقول: ها هي جبال القفقاس، التي سمعنا عنها خصوصاً خلال الحرب العالمية الثانية، وهي تقاوم مع فرسانها من الأنصار الروس جحافل الألمان الضائعين وسط تلك الغابات الهائلة والعملاقة.

كنَّا نتغنى بقصيدة الجواهري لينينغراد التي تمجد جبال القفقاس حين يقول:

قف على القفقاس وانظر

موكب المجد والعزة يمشي خيلاءا

وسل القوقاز هل كان دماً

لمعان السيف أم كان طلاءا

نعم هذه هي الجبال التي نقلتني إلى جبالنا الجميلة، جبال كردستان التي كانت تغطيها دماء أبنائنا وهي تكافح القوات الغاشية التي دمرت غاباتها وحرقت أشجارها الباسقة المثمرة كأشجار الموز والكمثرى والتفاح وأحالت أغلبها إلى قاع صفصفاً، كنت أجوب بأفكاري هضبات وذرا جبل سفين، الذي عشقته منذ سنوات صباي الأولى بسفرتي إلى شقلاوة المحاطة بقمم هذا الجبل العملاق وأنا أردد هذه الأبيات التي كرَّستها لجبل سفين.

الجبل الأسمر دماً يسيل

والجبل الأخضر حبَّاً يُهيل

سفين أخفى حبَّه في التراب

فحلمه كان شقياً طويل

تلاقفت أبناؤه زمرةً

الحب في أعطافها مستحيل

غذَّت دماءُ الكرد أكتافه

فاستنبتت زهراً نديَّاً أصيل

تشع من أوراقه شعلةٌ

حرَّية للكرد تشفي الغليل

سفين في علياه حرَّيةٌ

ما دُنست يوماً بشسع الأجير

كم حاول الأوباش أن يهزموا
شعباً عزيز النفس لا يستجير
سفين كم شاهد في زهوه
معاركاً قامت لحسم المصير
والدم في أعلى الروابي غزير
لأجل حق في الحياة تنير
درباً لقومٍ قد غزاه حقير
وانتصر الكرد على الظالمين
سفين عاد منبعاً للغدير

كانت السفرة الثالثة إلى بحيرة ريتسا في جورجيا وكانت السفرة الأولى بعد انقضاء السنة الدراسية التحضيرية للّغة الروسية في منطقة الجريومشكي في موسكو، فقد ركبنا القطار لمدة ليلتين ونهارين لنصل بعدها إلى مرابع سوجي الجميلة، استقبلنا مصيف بوريفسنك البهيج بنضارته وجمال حدائقه وإطلالته العالية على البحر الأسود، أخبرونا في أحد تلك الأيام المليئة بالسباحة والفرفشة على البحر الأسود أننا سوف نشاهد أجمل البحيرات في العالم من خلال سفرة في جبال القفقاس، لم يكن حكيم يعرف عن تلك الجبال سوى ما قرأه في الروايات الروسية عن مناخها وجمال طبيعتها ولكن ما رآه وهم يعبرون تلك الممرات الجبلية الملتوية والخطيرة جمال وحشي لا يمكن وصفه.

توّجت السفرة الأولى للبحيرة بالتعرّف إلى فتاة هنغارية جميلة اسمها (أبويا) وكانت السفرات الجماعية فرصة كبيرة للتعارف بين مختلف الشباب المساهمين فيها، فقد جاء الجميع ليأنسوا ويقضوا أوقاتاً مريحة تاركين خلفهم أوجاع ومعاناة الدراسة في معاهد موسكو.

كانت أبويا تضج بجمال سخي يدعو لقطف ثماره فجسدها الرشيق بامتلاء عارضاً مفاتن الجسد المكوَّرة وهي تسير بدلال وسط الطبيعة الفتانة، وكان وجهها الباسم تزينه عينان عسليتان تطلق رصاصاً لقلوب الناظرين وكان فمها الشهواني يصرخ قبلوني فأنا جاهزة للحب.

فما بال الجياع من شبابنا القادم من مدن الحرمان الجنسي إلا أن يستغلوا تلك الفرصة الثمينة فكان حكيم سباقاً لمعرفة تلك الأنثى الرقيقة ممنياً النفس بأوقات مليئة بالحب والجنس.

كانت الفتاة مرحة ضاحكة ولكن بعض الحزن العميق يطل أحياناً من عيونها، والذي لم يفهمه حكيم فكان جلَّ ما يصبو اليه أن يحضن ذلك الجسد الممتلئ والصارخ بالإغراء، لكن ما يمنعه من الاستمتاع ذلك الحزن المشع من العيون العسلية، لم تمنعه أبويا من تقبيلها وسط تلك الطبيعة المرحة ولكنها كانت تمتنع من تجاوز القبل بدون أن يعرف حكيم سبب ذلك.

شربا في المقهى المطل على البحيرة بعض كؤوس الواين الأحمر مما حرك لسان أبويا لتفصح عن حزن إنساني ومأساة تعيش أحداثها المرة، قالت:

– يا حكيم أنا امرأة تعيسة فقد خلفت حبيبي (مايكل) في غياهب سجن حكام هنغاريا القساة، كان مايكل زميلي في الدراسة وهو من الشباب الذين ناصروا حكومة (ايمري ناج) رئيس وزراء هنغاريا عام 1956 الذي طالب بالخروج من الكتلة السوفيتية لإعلان دولة ديمقراطية، إلا أن الدبابات الروسية والجيش الأحمر سحقوا تلك الانتفاضة الربيعية ونكلوا بأتباعها والجماهير الواسعة التي أيدتها فقد عانى المجريون كثيرا في ظل ما سمي بالنظام الاشتراكي.

حدثتني (أبويا) عن المآسي المروعة والاضطهاد الذي وقع على آباء وأبناء المجر لرفضهم النظام الشمولي، كانت تتذكر ذلك ودموعها تجري مدراراً، محولة تلك الأمسية الواعدة إلى عزاء لم أكن أتمناه، فلقد كنت أعتبر نفسي مالكاً للجسد المغري وكأنني سلطان زماني، ولم يدر في خلدي أن تكون تلك الغادة تعاني من فراق حبيبها الذي لا تستطيب عناقا غير عناقه ولا تفكر بوصال غير وصاله، فأي صدفة عجيبة جمعتني بتلك الفتاة، إلا أن حديثها عن النظام الشمولي والفاشي في المجر ومعاناة شباب المجر أيقظ في دواخلي أموراً لم أكن أعرف عنها شيئاً، فقد اعتاد رفاقه قلب الحقائق والحديث عن المشاريع الرجعية والاستعمارية التي كانت وراء وزارة «ايمري ناج» في المجر وكان ذلك منتهى التزوير للحقائق.

تعاطف حكيم كثيراً مع أبويا وهي تسرد له بعد أن انفتحت عقدة لسانها عن توقيفها مع حبيبها لمشاركتهما في المظاهرات التي سحقتها الدبابات الروسية وكيف عوملت بقسوة في مواقف بودابست واستطاع والدها الموظف الكبير إخراجها من التوقيف وبقي حبيبها سجيناً يعاني قسوة النظام الاشتراكي.

قالت له إنها لن تكمل دراستها وسوف تعود إلى بودابست لمواصلة النضال ضد الطغمة الحاكمة، فلن يستقر ضميرها ورفاقها يقبعون في ظلمات السجن.

كان حكيم يواسيها تارة مصدقاً أقوالها وأخرى متردداً من استيعاب ما تقوله من حقائق، فقد كان ممتلئا حتى التخمة بأقوال رفاقه عن حنان النظم الاشتراكية وما توفره للناس من الحياة الكريمة. وكان ذلك الحديث الصريح من قبل تلك الهنغارية التي زرعت بطريقة الصدفة باكورة مراجعاته للحقائق والتي غرست في دماغه عن سعادة الإنسان في ما سمي بالدول الاشتراكية.

لم تكن تلك السفرة لبحيرة ريتسا الأولى التي ملأتني متعة وأنا أجول في قمم القفقاس العالية، فقد انطلقنا في سنة أخرى من منتجع جايكا التوأم لمنتجع بوريفسنك والاسمين المذكورين كانا لصنفين من النوارس، أحدهما عملاق كالنسر الكبير والآخر صغير هو النورس الذي كان يمتعنا أيامها بطيرانه في نهر دجلة، وكان منتجع جايكا مخصصا للطلاب الدارسين في معاهد وجامعات لينينغراد من الأجانب.

وكنا لتونا مخلفين أجمل الليالي في المدينة الساحرة، إنها الليالي البيضاء التي يجتمع في ظلالها آلاف السواح وسط المدينة راقصين ومغنين وعازفين حتى الصباح. وإن لم يكن هناك ظلام لكي يأتي بعده الصباح.

انطلقنا من جايكا وكان عددنا يربو على الخمسين، صبايا وفتيان وكانت وجهتنا جبال القفقاس وبحيرة ريتسا، كنت منشداً إلى تلافيف ومنعطفات الجبال القفقاسية والسائق يقودنا على مهل لكي نتمتع بجمال تلك الطبيعة العذراء بأشجار السنديان والصنوبر العالية والمعمرة وأشجار البتولا البيضاء كأنها عرائس تزهو وسط ذلك العرس الطبيعي الساحر.

كانت تلك الطبيعة الوحشية التي تتنوع أشجارها وصروحها متعة لا تقدر بثمن، فقد كنت وما زلت من عشاق الطبيعة، التي أجد فيها نفسي بعيداً عن زيف ونفاق المدينة وأهلها، ففي وسط الطبيعة يتعرّف المرء إلى مداخيل نفسه ورغباته وحباً يشغله في حياته، ففيها من الجمال ما ينسيه متاعب المدينة ومصائبها وكنت مع بعض الأصدقاء والصديقات نتوجه في نهاية كل أسبوع إلى الغابات المحيطة بمدينة لينينغراد إلى زيلنا كورسك المدينة الخضراء أو مدينة بوشكين والقصور الصيفية للقياصرة لنقضي أحلى الأوقات صيفاً وشتاءً في الصيف نتمتع بالسباحة في البحيرات وسط تلك الجنائن الخضراء.

وفي الشتاء نقوم برياضة التزحلق على الجليد. ما أمتع تلك الأيام وما أحلى الصبايا المرافقات لنا! وكنا بعد التعب من الرياضة نلجأ إلى المطاعم الصغيرة لننهل من البيرة صيفاً ومن الكونياك الأرمني شتاءً.

مرت كل هذه الصور عن المدينة الساحرة وأنا غارق في أفكاري مراجعاً ما مرّ بي خلال السنة الأولى التي عشتها في مرابع لينينغراد.

وصلنا بحيرة ريتسا بعد ساعات طويلة من المتعة، وكان برفقتنا في هذه السفرة العديد من المرافقين الروس، بيتر ذلك الشاب القوي البنية والجميل الطلعة، بتروسيان الأرمني الذي يشبه أي عراقي بشعرة الأسود وملامح الوجه الشرقية، الأنف المستقيم والشارب الأنيق بوجنتين طافحتين بالبشر، وكان الروسي والأرمني أقرب الأصدقاء الذين لم أفارقهم طيلة وجودنا في منتجع جايكا.

وكانا يتمتعان بمزايا متعددة من غناء وتمثيل ورياضة وكانت البرامج التي يقومان بها مع بقية المرافقين الروس في ليالي المصيف من أجمل ما شاهدنا وتمتعنا.

كانت برفقتنا فتاة شقراء اسمها (لودا) ربعة البنية فاتنة الابتسامة وذو جسم رياضي رشيق وكانت لودا تطاردني بنظراتها وتحتك بي بمناسبة وبدون مناسبة. ولم أكن راغباً في بادئ الأمر برفقتها فقد كان معنا العديد من الشقراوات الجميلات، ولكنها بقيت تلاحقني طيلة السفرة ونحن في سيرنا واستراحتنا في المطعم الصغير المطل على البحيرة وكان برفقتها شاب شبيه بأي منا نحن الشرقيون، ولاحظت أنها مرة تعنفه وأخرى تسايره، وحين استفساري منها عن هويته ونوع العلاقة التي تربطها به أجابتني ساخرة، إنه زوجي الإيطالي، فهل رأيت بحياتك رجلاً قبيحاً كزوجي ألبرتو، تصورت في بادئ الأمر أنها تسخر ولا تقول الحقيقة، ولكن تأكدت منه مباشرة بأنه فعلاً كان زوجها، كنت

أتساءل مع نفسي لماذا تبتعد لودا عن زوجها وتحاول الالتصاق بي وأنا أتهرب منها بعد أن عرفت بعلاقتها مع ألبرتو.

كانت هذه السفرة أكثر إمتاعاً من السفرة الأولى مع جماعة موسكو وكان العديد من الأصدقاء القريبين من نفسي يتمتعون بصفات مرحة مما جعل السفرة أكثر زهواً وجمالاً من الأولى.

لم تتركني لودا طيلة اليومين في مرابع بحيرة ريتسا، وكأني أنا زوجها وليس ألبرتو وكنت أعنفها من وقت لآخر لقيامها بحركات جنسية مثيرة بدون أن تخفي ذلك عن زوجها، فلم أكن مرتاحاً لمثل تلك التصرفات الغريبة، ولكنها كانت تصر على الالتصاق بي أكثر وأكثر.

عدنا إلى جايكا ذلك المنتجع الجميل، الذي لا نجد فيه ساعة من الوقت نصفو فيها لأنفسنا، ففي الصباح بعد الرياضة الجماعية نتوجه إلى البحر هابطين عبر السلم الذي تربو درجاته على الخمسين ونحن في غاية البهجة بعد الرياضة، وكنا نتسابق في الوصول إلى البحر لنغرق أجسادنا في مياهه الباردة والمنعشة، نسابق الموج الذي يعلو علينا تارةً ونعلو عليه غاطسين في أعماق مياهه الزرقاء، وكان المذياع يسمعنا الأغنية التي رافقتنا طيلة وجودنا في جايكا، يغنيها واحد من أشهر المغنيين الروس، وتقول كلمات الأغنية إن (البحر الأسود أكثر زرقة وجمالاً من جميع بحار العالم).

وكان ذلك الصوت العالي يتخلخل مع الموج أعماقنا، ونبقى نستزيد من السباحة حتى نصل إلى درجة الإعياء لنذهب إلى المطعم وكلنا رغبة بعد الرياضة والسباحة في فطور جماعي، ذلك المطعم الفاره الذي يجمعنا كل يوم ونحن في غاية السعادة.

كانت لودا تلاحقني حتى ارتضيت في النهاية مصاحبتها، وكان يوم 1 تموز عيد ميلادي كما هو عيد ميلاد الكثير من العراقيين بسبب

خطأ ارتكبته دائرة الجنسية فجعلت نصف العراقيين يولدون في واحد كانون الثاني والنصف الآخر في واحد تموز، وكنت أنا في النصف الآخر من حيث الولادة لا أعرف من أين علمت لودا بذلك اليوم الأول من تموز.

ودعتني إلى مرافقتها للبار الصغير وسط المصيف لإحياء تلك المناسبة التي تهتم بها جموع الأوربيين وبضمنهم إخواننا الروس، رافقتها شاكراً وجلسنا نعاقر الواين الكأس تلو الكأس حتى بلغنا من السكر عتيا، وهي تارة تداعبني وأخرى تهيج مكامن الجنس في جسدي وفي نهاية تلك الجلسة الصاخبة رافقتني إلى غرفتي، وكانت تكاد أن تلتصق وتدخل في مسامات جسدي في داخل الغرفة وبدون مقدمات تعرت بشكل كامل وكان جسدها مسمرّاً ومكامن الجنس بيضاء فبدت تلك الخطوط البيضاء المحيطة بجوفها شهية.

ارتمينا في الفراش وكأنني لم أعرف الجنس مثيراً ففرقنا في ذلك العالم الوردي فهي تتأوه وتتلوى حتى بلغنا ثمالة المتعة وهي ترغب بالمزيد وأشم روائح المسك والعنبر في جسدها الشهي، وكانت واحدة من أحلى المتع التي بلغتها في علاقاتي النسوية.

كانت هذه الذكريات تتلاحق في مخيلتي الواحدة تلو الأخرى كشريط سينمائي حلو الصور ولكني كنت في هذه السفرة الثالثة إلى بحيرة ريتسا متوجساً من حالي وما ينتظرني في بلدي، الذي حكمه ويحكمه الفاشست وأنا في المرحلة الأخيرة، من دراستي فقد أعددت رسالتي للدكتوراه قبل التوجه إلى سوجي في آخر رحلة لي في مرابع روسيا الجميلة.

كنت منكمشاً على ذاتي لبعض الوقت ولكن ساعة الوصول إلى تلك البحيرة أيقظتني وأعادتني إلى الحياة، وكان ما زاد في إيقاظي

الطبل الكوبي الذي يرافق الكوبيون في ترحالهم أينما حلّوا، وكان جمع من الطلاب والطالبات الكوبيات يرقصون ويغنون تلك الأغنية الرومانسية، التي أخذت مداها الواسع في ستينات القرن العشرين: (بسمه بسمه، موجو) بالإسبانية والتي تعني، قبلني، قبلني كثيراً، وكان جمعهم يدور في رقصة لاتينية تثير النفوس وتجعلها ترقص ملبية نداء الطبل الكوبي، انشدَّ نظري إلى وردة بيضاء وسط ذلك الجمع الأسمر من كوبيين وكوبيات وكأَن سهام سحرية أصابتني، تقربت من الراقصين وعيني لا تفارق تلك الوردة البيضاء التي لا أعلم من أين جاءت وسط عموم السواد الكوبي، كانت ترقص بخطوات رشيقة وشعرها الأشقر يتطاير وهي تردد كلمات تلك الأغنية الجميلة وكأنها تناديني قبلني، قبلني، كثيراً.

لا أعلم ما الذي حل بي فقد نسيت العالم الذي جئت منه وكأني ولدت من جديد، استمر الرقص وأنا ألاحقها وأتقرب تدريجياً منها لعلّي أضمها إلى صدري في لحظة من تلك اللحظات المرحة والراقصة، كانت فتاة لم أرَ مثل جمال محيَّاها في كل من عرفت من فتيات روسيات، ألمانيات، إنكليزيات، كأن سحر عينيها السوداوين يرسل إشعاعاً غريباً يخترق القلوب ينادي من يتقدم ويأخذني اليه.

وكانت وجنتاها متوردتين يكاد الدم أن يفور منهما وذلك العنق الأبيض الجميل الذي تحمل عبر نقل ذلك الجمال الفاتن ليغري العشاق لشمه وتقبيله، لا أعلم من أين جاءت تلك الفتاة الكوبية بذلك السحر، لتوقعني من لحظة رؤيتها في حبائلها.

بعد انتهاء الرقصة تقدمت إليها معرفاً نفسي بالعراقي الذي يحب كوبا بمن فيها وخصوصاً نسائها الفاتنات، فأجابتني بابتسامة مشرقة بأنها تحب العراقيين وخصوصاً منهم الشباب الأسمر، ولعلها كانت ترد لي المجاملة بمجاملة أحلى منها.

منذ تلك اللحظة العجيبة التقيت بتلك المخلوقة التي لا يمكن وصف رقتها ودفئها وجمال وجهها وإغراء جسدها وشقرة شعرها وبياض وجنتيها، كأن كل ما فيها ساحر يدعو للحب، فكان ما تمنيته من حب وأنا في ذلك المنعطف الخطير في حياتي.

يمر الإنسان في حياته وتعرجات وتموجات سنينها بمنعطفات مصيرية وأحياناً أزمات عاطفية، فيحل فيه ضياع لا يعلم كيف يداويه، وكنت في تلك الشهور الحاسمة من دراستي أدور في دوامة الضياع لا أعرف ما يتوجب عليّ عمله حين أعود إلى وطني بعد إنهاء الدراسة، وهذا ما جئت لأجله وكنت مصمماً دائماً بالعودة إلى الوطن الحبيب.

كنت أحياناً أهرب من الأفكار السوداوية التي تلفني وأنا أرى نفسي مصطادا من قبل الشرطة الفاشية في مطار بغداد وإلى سجون الحكم التسلطي في وطني، كانت أياماً قاسية جربها كل من ارتبط يوماً بالنضال الوطني في بلدي الذي دمرت أبناءه الزمر الفاشية التي استولت على الحكم عام 1963 بالتعاون مع الأمريكان لتقتل وتعذب وتهجر الآلاف من اليساريين الوطنيين بكل قسوة ونذالة؛ فكيف بي وأنا ذو الماضي اليساري الذي ارتبط حتى النخاع وعمل منذ نعومة أظفاره في صفوف اليسار.

كانت أفكار العودة تعذبني لكن أين المفر؟ حتى التقيت تلك الفاتنة التي نقلتني من عالم العذاب إلى عالم جديد ينبعث منه عشب الحب الرومانسي وذلك الحب الذي ينقل الإنسان من عالم الواقع المرير إلى عالم اللذائذ الروحية والجسدية.

بعد ساعة التعارف دعوتها للعشاء في المطعم الصغير المطل على بحيرة ريتسا الجميلة بمياهها العميقة ذات الألوان المتعددة في حمرة الإشراق الصباحي إلى زرقة منتصف النهار وتلاعب موجاتها الصغيرة التي تبعث الدفء في النفوس.

لم ترفض دعوتي بل كانت تبدو سعيدة بتلك الدعوة وهذا كان غاية المنى ومنذ تلك اللحظات بدأت حياة جديدة، وإن كانت تعد بالأيام والشهور ولكنها امتلأت بعبق حب تلك الفتاة الساحرة.

كنت أبحث عنها بين جموع الطلبة؛ فقد كانت علامة فارقة وسط غابة سوداء وسمراء من الطلبة الكوبيين والأفارقة، ذلك البياض النادر في ذلك العالم لم أكن متيقناً بأنها ستأتي، كان القلق يعصف بي وأنا في حيرة من أمري بعدما تعلق قلبي بها وانزاح الهم المتكدس على عاتقي فقد كنت كالغريق وسط بحر متلاطم الأمواج، تلك الأمواج العاتية التي تعصف بي كل يوم وأنا تائه في أفكاري وأحلامي وما ينتظرني في بلادي من عذاب.

كانت قارب النجاة أو طوق النجاة الذي علقت به لعلي أصل بر الأمان ولو مؤقتاً، لمحتها من بعيد وهي تتهادى كأنها نسمة غربية في حر بغداد اللاهب جاءت وابتسامة كبيرة تطوق وتطل من فمها الشهواني الذي يغري وينادي العشاق بقطف ثماره الحلوة، استقبلتها ودقات قلبي تربو على 150 دقَّة من شدة الخوف والقلق بعدم تلبيتها دعوتي، سرنا معاً يداً بيدٍ وكأننا نعرف بعضنا منذ وقت طويل، استغربت إطاعتها وقيادتها من يدها البيضاء الملساء التي بعثت هزة عميقة في كياني وكأنها مس كهربائي، ومن المدهش في الأمر، أن ما عرفت من نساء روسيات وعراقيات لم يحركن دواخلي كما فعلت تلك التحفة الجميلة.

توجهنا نحو المطعم الصغير والحميمي بجلساته، كنت ولا زلت أكن له في نفسي عاطفة كبيرة، وكأنه موطن أحلامي وآمالي فقد تنفست فيه عبق الحرية وبدايات الحب العنيف.

اخترنا مكاناً بعيداً عن الرواد لنتحرر في كلامنا وتصرفاتنا بمعزل عن الرقباء من طلبتنا من العراقيين والكوبيين، بادرتها بسؤالي عن

اسمها، فلم أسألها من قبل لتخبطي في عواطفي الغريبة التي داهمتني بدون إنذار، قالت اسمي (إيثيث)، لم أفهم ما معنى الكلمة وكررت عليها السؤال، قالت لا تستغرب من تحويل السين في اللغة الإسبانية إلى الثاء فكلمة القلب في لغتنا (كوراثيون) وأنا إيزيس وهي في الحقيقة كوراسيون، وهكذا كل سين تنقلب إلى ثاء في اللغة الإسبانية الموسيقية، كانت وهي تتحدث بذلك الكلام العفوي ولغة روسية مع لهجة إسبانية وكأنه نغم من أنغام الجيتار الجنسي المثير، وقلت لها لعلك تعرّفين من هي إيزيس في تأريخنا الشرقي، ابتسمت بفرح وقالت: إنها منذ أن وعت على الدنيا أخبرها والدها أنه أطلق هذا الاسم عليها لتعلقه بالتراث الشرقي والعربي.

وقلت لها يا عزيزتي الإلهية، آلهة الحب في مصر العريقة أنت آلهة حقيقية بجمالك وخفتك ورقة معانيك تحتلين قلوب العاشقين بدون مقدمات فتخشع لكِ تلك القلوب العاشقة وتتعبد في صومعتكِ كما كان يتعبد المصريون في صوامع الآلهة إيزيس.

ناديت على النادلة لتتحفنا بشراب يزيل توتري وانفعالي ويرفع الحواجز بيننا، فقد كنت متحفظاً وخائفاً من إزالة الآثار والتغلب على خجلي الذي كان قائماً في كل غزواتي النسائية السابقة، فلم أستطع التغلب على خجلي وتعثري في علاقاتي مع النساء لما عانيت من عقبات مريرة في مدينتي المحافظة.

تقدمت النادلة الجورجية الجميلة وهي تخطو نحونا بدلال مع ابتسامة منيرة وكان شعرها الأسود الطويل يتمايل مع نسائم الغروب المنعشة، قلت لها: سيدتي أتحفينا من فضلك بالفودكا، نظرت لي بإزدراء وتغيرت ابتسامتها إلى نظرات اشمئزاز.

تلفظت بكلمات حسبتها جارحة، قالت أما تخجل من طلبك المقيت

هذا؟! شعرت حقاً بالإهانة من جوابها وتغيرت ملامح وجهي السمح إلى ملامح عدوانية شعرت بها النادلة وقبل أن أجيبها بقوة، غيَّرت المرأة سلوكها وأخذت تبتسم ليحل الصفاء بدل الإزدراء، أضافت يا عزيزي أنت في جورجيا مدينة الشراب، وخصوصاً ما نسميه (العيون السوداء) وتطلب فودكا!! فهل هذا عدل؟ لعلك لم تجرب هذا الشراب في روسيا وهناك ما يجعلك تميل لهذا الشراب الملقب بالعيون السوداء، وأنت تجالس هذه الفتاة الفاتنة ذات العيون السوداء الساحرة، أفحمتني حقاً فطلبنا زجاجة كاملة من ذلك الشراب الذي حدثتنا عنه النادلة الجورجية.

أفرغت في كأسها بعضاً من الشراب وملأت كأسي، ورفعت الكأس لنخب غادتي الجميلة فاستجابت إيزيس ورفعت كأسها وتذوقنا حلاوة ذلك الشراب المنعش شاكرين للنادلة اقتراحها، كان شراب العيون السوداء يختلف بنوعه ومذاقه وأثره عن كل ما شربت من أنواع الشراب في روسيا خصوصاً ذلك الشراب الأحمر الرخيص الثمن الذي كان يمزق أحشائي حين ابتلاعه، ولكن حياة الطلبة كانت وراء شرب ذلك النوع الرخيص من الواين، استمرأنا الشراب المنعش، فانفتحت شهيتنا ورفعت الكلفة بيننا فأخذنا نستزيد منه وطلبنا زجاجة ثانية، ونحن سادرون في أحاديثنا وحكاياتنا كل عن بلده، وما يستطيع أن يقول بشأنه ويفيض في حسناته.

كانت إيزيس مسترسلة في عفويتها تتحدث بلغة روسية، مع لهجتها ذات الوقع الجميل على المستمع، حدثتني بكل طيبة وبساطة عن والديها، وقالت: سوف أفاجئك باسم والدي، فقلت هل سيختلف عن الأسماء المسيحية، فضحكت من جوابي، نعم إنه يختلف تماماً ولا علاقة له بالمسيحية أو المسيح، إن اسم والدي هو (كليب)، وأعتقد جازمة أن هذا الاسم وأصل والدي يعود لأجداده العرب الذين احتلوا

إسبانيا لمئات السنين، وهو حين يتحدث معي عن تأريخ العرب في إسبانيا يتحمس لأجداده، الذين هجرهم وقضى عليهم الإسبان ولم يتبق منهم إلا القليل ممن اعتنقوا الدين المسيحي، كانت فخورة بذلك الأب ذي الأصل العربي الذي أورثها تلك العيون السود عيون ألمها الساحرة فرحت أردّد مع نفسي أبيات علي ابن الجهنم.

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعادت لي الشوق القديم ولم أكن

سلوت ولكن زدن جمراً على جمر

لاحظت ترادي بشكل خافت لتلك الأبيات الشعرية طلبت مني أن أحدثها بما رددت بين شفاهي من كلمات، أخذت أترجم لها معنى الأبيات، ومن قال بها ذلك البدوي الذي حلّ في بغداد، وراح متأثراً بطبيعته البدوية الصحراوية يمدح الخليفة العباسي واصفاً إياه بالكلب، لأنه لا يعرف من صفات البأس والوفاء غير تلك الحيوانات.

أنت كالكلب في الحفاظ على الود وكالليث في قراع الخطوب

أسكنه الخليفة في أحد قصوره المطلَّة على نهر دجلة، فنطق الرجل متأثراً بالبيئة الجديدة تلك الأبيات المعبرة عن الحب والإعجاب بعيون الفاتنات البغداديات، نعم يا سيدتي الجميلة هذا هو الوصف الذي أطلقه الشاعر على حسناوات بغداد، ولكن هل كنت أنا ابن العراق أحلم؛ أو أتأمل بأن أجد ساحرة العيون السود الكوبية، لأقرأ لها تلك الأبيات مبدياً إعجابي بجمال وسحر عيونها، وتلك السهام التي اخترقت قلبي لتربطه بعيونها وبها كاملة منذ تلك الجلسة الممتعة، التي زاد إمتاعها ما شربناه وأثثينا من الواين الجورجي العيون السود.

كل ما حولي من شراب وجمال يقول لي: هل كنت تدري وأنت في عالمك التعيس وفي أيام وجودك في روسيا أنك ستلتقي ذات العيون السود لتربطك بها وشغف عيونها يملؤك حباً وبهجة، لتزيل ولو إلى وقت محدد حاملاً ما يملأ قلبك من مرارة وتعاسة، وأنت في مفترق تلك الطرق المليئة بكل ما يحزن المرء.

حدثتها بعد أن زالت كل الحجب والموانع بيننا عن راقصة الباليه الروسية، التي حدث في موسكو أيام ثورة أكتوبر عام 1917 لتشارك مع الروس في تكريم الثورة في (البلشوي ثياتر) المسرح الكبير المشهور، برقصة الباليه الروسية، وكان أن التقت بشاعر روسيا الكبير (يسينين) يكتب عن المرايا في تلك الدار وعلى الحيطان، أحبكِ يا دونكان.

ملأ جميع المسطحات والزوايا بكلمات عشقه لتلك الراقصة الأمريكية الجميلة وكتب في نفس الليلة قصيدته المعروفة (شاغانيه) التي حفظها ورددها كل عشاق روسيا طيلة العهود التي مرَّت، وما زالت تردد أبيات تلك القصيدة الجميلة المهداة إلى دونكان.

انفتحت أساريرها وهي تستمع إلى تلك القصة الغريبة متسائلة هل حدث معك ما حدث لذلك الشاعر؟!

قلت: ألا تفضحني نظراتي التي تحتضنكِ منذ بداية الجلسة، وتستمع بدفئك وجمالكِ؟ أفلا يقرّ عيني ذلك الحَب الوليد الذي شرّف هذه الجلسة التَاريخيةَ، كانت ردّة فعلها أن مدَّت يديها لتمسك يدي بقوة لتعبر عن قربها مني.

كانت لحظات لم يكن حكيم ينتظرها من إيزيس ومن ذلك العطف المعبّر عن مكنونات قلب عفوي بريء لم تعقده مصائب الحياة الدنيا .

خرجنا متلازمين يداً بيد، دخلنا غرباء وخرجنا أحباء وعشاق تملؤنا الفرحة بأجنحتها الوردية، أكاد أن أطير من عصف العواطف التي

تملكتني بتلك اللحظات الرائعة، كنا نمسك أحدنا الآخر كشخصين تجسدا في شخص واحد، وكنت أردد عالياً بعض أبيات قصيدة إبراهيم ناجي (الأطلال) التي أنشدتها أم كلثوم.

هل رأى الحب سكارى مثلنا، وكنا سكارى من خمرتين خمرة العيون السوداء، وخمرة العواطف القوية التي تولَّدت في اللقاء الحار لتحملنا إلى جزائر خضراء وسط بحر من الأشواق والحب، فضحكنا ضحك طفلين معاً فعدونا وسبقنا ظلنا.

كنَّا فعلاً نخطو إلى عالم لا نعرف مدى آفاقه المقبلة، ولكنا كنَّا واقعين تحت سحر ذلك الانسجام الذي ربطنا بدون إرادتنا في وحدة لم أكن متفكراً أنها قد تؤول إلى الفراق، كنت أعيش لحظات لم تتوفر لي من قبل بالرغم من تعدد العلاقات مع نساء مختلفات، إلا أن ذلك اللقاء لأسباب قد تكون بضياعي في ذلك الوقت، وأنا في دوامة من القلق حول مستقبلي ومستقبل العراق، وأنا في أواخر أيامي الدراسية في روسيا كنت كالغريق المتعلق بقشة أو طوق نجاة للبقاء حياً لبعض الوقت قبل أن تجرفه تيارات التجربة القوية.

كانت إيزيس لا تقل بهجةً وفرحاً عني وكانت تحتضنني بيديها وعينيها وكل نأمة في جسدها الحي.

كانت بنظراتها تقول: أنا معك ولن أفترق عنك فقد دخلت قلبي كما دخلت قلبك، كلي رغبة أن تدوم هذه العلاقة الجميلة بين شخصين جاءا من بلدين ينأى أحدهما عن الآخر آلاف الكيلومترات، ليلتقيا في قمم القفقاس ليعبَّرا عن قمم العواطف الدافئة وحب قطريهما كوبا والعراق.

لم يكن أي منَّا يتصور أو يأمل قبل ذلك اللقاء العجيب الذي جمع قلبين يعزفان لحن الحب الوليد في تلك الساعات الليلية على شاطئ

بحيرة ريتسا، بقينا نجوب تلك الحاضرة الخضراء المليئة بغابات أشجارها السود، البتولا، السنديان، الصنوبر، المعمرة والكثيفة وهي تظلل حبنا الوليد وتحميه من هجمات القدر وما يخبئه لنا في مستقبل الأيام من مفاجآت، استمر سمرنا وحديثنا لا ينقطع وكأننا كنا نخزن الكثير من الأحاديث لمثل تلك الليلة النادرة الحدوث، كنت أحياناً أناديها يا دونكاني الحبيبة وكانت ترد عليّ بظرافة وابتسامة معبرة يا شاعري العزيز، وكأنما فعلاً نمثل دور دونكان ويسينين اللذين وقعا في حب أحدهما الآخر في ذلك اللقاء العاصف بين الفن الأمريكي والشعر الروسي.

في اليوم التالي توجَّهت قافلتنا إلى المصيف جايكا، وكنت في ذهابنا إلى بحيرة ريتسا عائشاً مع تعاسة أفكاري وفي العودة كان ظل تلك المدينة الجميلة يعانقني بوجود صديقتي الجديدة إلى جنبي لتشعرني بدفئها وحيويتها، معيدة لي أملي في حياة جديدة سوف أنهل منها ما أستطيع من سعادة، صحيح أن الحب معجزة ويصنع المعجزات وقد رددت هذه الأبيات:

الحب معجزة تعلو مباهجه

في صبحه جمرات الشر تحترق

يعشعش الوجد في دنياه مبتهجاً

ومن لواعجه الأشواق تسترق

إن المتيَّم لا تحلو نسائمه

من دون عاشقة في جوفها شبق

كان ما تبقى لحكيم في مصيف جايكا أسبوعان فقط، فقرر أن تكون هذه الأيام آخر الثمرات لوجوده في روسيا، فلعل قطاف تلك

الثمرات اللذيذة بلقائي فتاتي العذبة والدافئة يكون زادي لعودتي المقبلة لبلدي المليء بالمصائب والويلات.

كان مصيف جايكا يعج بعشرات الشباب من مختلف الأقطار الدارسين في الاتحاد السوفيتي وكانت الفعاليات المختلفة من رياضية إلى فنية تمارس منذ الصباح الباكر وحتى منتصف الليل، فقد كنا نستيقظ في السادسة صباحاً ونمارس الرياضة السويدية صباياً وفتياناً في ساحة الرياضة لمدة نصف ساعة، تليها استراحة قصيرة ثم النزول إلى ساحل البحر لممارسة السباحة الصباحية في مياه البحر الأسود المنعشة في الساعات الأولى من الصباح.

تلي ذلك وجبة الإفطار الغنية بالبروتينات من لحوم وبقول وحليب، وبعدها يتفرق الطلبة كل إلى ممارسة ما يهوى من الهوايات فمنهم من يذهب إلى المسرح للتحضير إلى السهرة الليلية أو التحضير إلى أمسية أحد الأقطار التي ينتمي إليها قسم من الطلبة، وكان هذا التقليد يمارس بمبادرة من الروس تكريماً وتعزيزاً للصداقة بين الاتحاد السوفيتي والدولة المقصودة.

ويذهب آخرون لممارسة السباحة مرة أخرى والتمدد على شاطئ البحر للتمتع بدفء الشمس والحصول على اللون البرنزي، وكانت الفتيات الروسيات الشقراوات يلجأن إلى ذلك الحمام الشمسي بغية الحصول على سمرة عجيبة تغري الشباب بالألوان البرونزية الجميلة، وكنا نحن العرب السمر نتجنب التعرض إلى الشمس خوفاً من تركيز اللون الأسمر في أجسادنا فقد كان اللون الأسمر يكفي لسحر الفتيات البيضاوات.

قررت بعد تعرّفي إلى إيزيس أن أمضي الأيام بالتمتع بصحبتها وقضاء أطول وقت معها، تلك كانت آخر الأيام التي أقضيها في ربوع

روسيا، ولعلمي بأن ما سيأتي يلفه الغموض والإبهام فالمستقبل في العراق كان غائماً خصوصاً لخريج الاتحاد السوفيتي، وعلى الأخص من كان يعمل منهم في السياسة من اليساريين وكنت أحد أولئك.

خلال مصاحبتي لفتاتي تذكرت رواية ناظم حكمت (رومانتكا) التي تدور أحداثها في أحد المصايف الروسية بعد أن أنهى بطل الرواية وأعتقد أنه الشاعر الكبير بطل الرواية، كان يقضي آخر أيامه في إجازة قصيرة مع صديقته الروسية قبيل عودته إلى تركيا التي كان العنف والاضطهاد يعصف بها وكانت جعبة اليسار والشيوعيين كبيرة من ذلك الاضطهاد، فقد امتلأت سجونها بالأحرار وكان الشاعر الكبير يعيش في روايته يوماً بيوم في تلك الاستراحة وعاش في انطباعاته ونشاطه وما كان من حب مع حبيبته غاضاً الطرف مؤقتا عما ينتظره في بلده من هموم العمل السياسي وحياة السجون التي عاشها من قبل، كنت متشبها بذلك الشاعر الكبير ناذراً أيامي الـ 14 للانطلاق للتمتع يوماً بيوم بمصاحبة غادتي الجميلة وليأتي بعد ذلك الطوفان، ولكن هل كنت أستطيع الهروب من نفسي وأفكاري التي استغرقتني طيلة سني الدراسة الست في روسيا، فلم أبتعد يوماً عن بلدي بل كنت أعيش أحداثه المأساوية متصوراً الحكّام الفاسدين الذين حكموا العراق بعد انقلاب شباط عام 1963.

كنت أحاول ان أبتعد عن تلك الأقطار المعذبة ببعض ما تقدمه الحياة الرخوة والجميلة في تلك المرابع الخضراء وذلك البحر الهادئ الموج، مع عواطفي المتدفقة الممتلئة حباً لتلك الفتاة الكوبية، كنَّا بعد ذلك نمارس السباحة وسط الأمواج الصافية التي تبان من خلالها أسماك البحر الصغيرة وهي تتقافز بين أجسادنا وأحياناً تدغدغ أرجلنا حيث نتوقف وكأنها تلعب وتتعابث معنا.

كانت تلك الملامسة من الأسماك الصغيرة تثير فينا المرح والبهجة ونحن وسط ذلك البحر العميق الزرقة ونبقى نسبح حتى نتعب ونعود إلى الشاطئ للراحة والتمتع بأشعة الشمس الدافئة.

كنت حين أستلقي إلى جانبها تلتبسني العوالم السوداء المحيطة بأبناء بلدي ويقيدني إلى ما عانيت خلال أعوام النضال الخمسينية، فكنت في كل يوم من تلك الأيام البهيجة أكتب متفكّراً أو مقارناً بين أيامي الضاحكة والسعيدة، وتلك الأيام الصعبة التي عشناها ونحن نناضل ضد الحكم الرجعي في العراق، كنت أهرب منها بأفكاري بالرغم مما يحيطني من الجمال والمتعة لأغوص في سجلات تلك الأيام متذكراً سني النضال وقسوتها.

بدأت أكتب يوماً بيوم مستغلاً الفراغات القليلة بعيداً عنها، وابتدأت بالأيام الأولى من دخولي كلية الحقوق وكان ذلك في عام 1955 ذروة الاضطهاد وسيطرة الحكم الرجعي، حكومة نوري السعيد التي ألغت الأحزاب والجمعيات وأسقطت الجنسية عن المناضلين العراقيين ومنهم توفيق منير وكامل قزانجي المرحّلين إلى تركيا الفاشية عضو حلف بغداد السابق.

كانت المقارنة كبيرة وواضحة بين تلك الأيام البائسة التي عاشها حكيم وبين حياة الحرية والجنسية منها في روسيا الأوروبية التي وفرت لأمثال حكيم حرية جنسية وتعليمية وأكاديمية لن يحلموا بمثلها في الغرب الأوربي.

لا يستطيع حكيم أن ينسى المعاناة حين رفض والده الموافقة على سفره إلى لندن بعد إكماله الدراسة الثانوية بسبب مرض النوم الذي عانى منه حكيم كثيراً وجعل الوالد يخشى عليه أن يموت في بلاد الغربة.

توجه مضطراً إلى تكملة دراسته الأكاديمية في كلية الحقوق في بغداد وكانت بغداد تعني الكثير للشباب القادم من مدن الجنوب والوسط والشمال كانت بغداد رمز الحرية والتفتح والانطلاق في مختلف المجالات السياسية، الفنية، الاجتماعية والجنسية بانتشار بيوت الهوى الكثيرة في أرجائها والمحرَّمة في مدن الشمال والجنوب.

لن ينسى حكيم أيام مراهقته وهو طالب المدرسة الثانوية أحلام السفر إلى بغداد في العطلة الصيفية خصوصاً بعد أن قرأ الكثير من الروايات والكتب التي تتحدث عن حياة الحرية في مدن الغرب الكبرى، ويعلم أن بغداد أخذت معالم حريتها مقلدة الغرب في أمور كثيرة كالتخلص من الحجاب من قبل الصبايا المتنورات في بغداد، وانتشار دور السينما والمسارح والملاهي ودور الكتب والمكتبات والتي ليس لها مثيل في مدن الملح الكئيبة.

كيف ينسى ليلة السفر إلى بغداد خصوصاً في تلك الليلة التي سوف يرحل فيها نهائياً عن مدينته البائسة والرجعية، بقي ساهراً متفكراً ومتذكراً سفراته السابقة إلى العاصمة الجميلة تلك الذكريات العطرة المفعمة بعبير الجنس والطرب، كانت بغداد الحلم الذي لن يتحقق لكل من يرغب في السفر إليها لتكاليف المعيشة العالية والتكاليف المبذولة على الأنس والطرب، وقد سنحت له الفرصة أخيراً في العيش في تلك المدينة الكبيرة يتذكر كيف كان مع إخوته وأصدقائه البغداديين يتمتعون بعطلة الصيف في سينمات وملاهي ومتنزهات بغداد الفارهة والجميلة، وكان الحرمان من متعة السينما والملهى وبيوت الهوى أقسى ما عاناه ويعانيه شباب ذلك الجيل المحروم من كل متع الدنيا.

كان حكيم ورفاقه يقضون الوقت النهاري والليلي بين كازينوهات وسينمات وملاهي بغداد يلتقون صباحاً في كازينو فلسطين، التي يملكها فلسطيني مهجَّر من القدس وكانت (البوظة) الدوندرمة التي

تقدمها الكازينو من ألذ ما تذوَّقه حكيم في حياته مقارنة بتلك التي تباع في مدينتهم البائسة، ولم يمنع حكيم نفسه ازدراد قدحين أو ثلاثة من تلك الدوندرمة النادرة، والتي كانت أسعارها مناسبة لا تتجاوز الخمسين فلساً للقدح الواحد وهو الذي اصطحب معه خرجية السنة التي وفرها لمثل تلك السفرات.

وكان في الأماسي مع أحمد، أزهر، وسامي، موسى يذهبون إلى أبي نواس للتمتع بجمال شاطئ دجلة والكازينوهات والبارات المنتشرة على ضفتيه ومحلات سكف السمك، وكم تمتعوا بشرب البيرة العراقية (فريدة)، واستأنسوا بأكلات السمك المسكوف في ليالي بغداد الصيفية المعتدلة آنذاك فقد تغيَّر الجو خلال الثلاثين سنة الماضية، كانت أحلى سهراتهم في ملهى (ليالي الصفا) الصيفي المطل على نهر دجلة من جانب الكرخ وبجوار جسر الملك فيصل، كان الملهى يعج بالرواد لما يقدمه من فقرات أنس وطرب، ليتميز بها عن بقية الملاهي المعروفة آنذاك.

وكانت جوهرة الملهى غانية سورية اسمها (نهاوند) التي تركت أثراً لها يبقى في ذاكرة حكيم، وكانت بيضاء مدورة الوجه بعينين معبرتين وذات جسم أهيف رشيق يميل إلى الامتلاء، إلا أن ما غنت به تلك الغانية والمغنية من صوت رخيم يذكَّر أهل بغداد بأيام هارون الرشيد ولياليها الصاخبة المليئة بأصوات الجواري وليالي أبو نواس شاعر المتعة والخمرة.

غنت نهاوند قصيدة جميلة ومعبرة في إحدى الليالي بصوتها الناعم الرخيم الذي يهز أوتار القلوب العاشقة بالرغم من رنة الحزن التي تخللت عبارات القصيدة وكانت تنادي ليالي بغداد السابقة وحزن عميق يلفها ويلف الجمهور المعتاد على الحزن الكربلائي، كانت العبارات تتغلغل في نفوسنا وكأنها نسمات بغداد الرطبة مع جمرات الحزن المبثوثة في أطرافها.

أين يا ليل صباباتي وأحلامي وعرسي
ذهب السمَّار والأحلام والدنيا وكأسي
فتأسَّيت فلم يرض فؤادي بالتأسّي

وتستمر مرددة ذلك الحزن العراقي بشوق ولهفة وكأنها عاشقة لبغداد وشبابها وحياتها البهيجة كان يجلس مقابل المسرح (الشانو) ثلاثة رجال يرتدون العقال، وكانوا يهتزون طرباً وهم يعاقرون العرق العراقي، كان تصرفهم يجلب الانتباه خصوصاً وأن الحضور من مريدي ذلك الملهى جلهم (أفندية)، استفسرت من البوي الذي يخدم الموائد من هؤلاء (المعكلون الثلاثة) قال إنهم رواد الملهى الدائمون من عشاق الطرب وعشاق صوت نهاوند.

وتلك القصيدة التي غنتها كتبها أحدهم وهو شاعر كربلائي يدعى (أبا وداد) وكم هو صغير عالمنا فقد تعرّفت إلى وداد بعد أربعين عاماً، التي أهدتني الأغنية المؤلفة من قبل والدها ووعدتني بإهداء الديوان، كم غريبة هي الأقدار، فلم يدر بخلدي وأنا ابن السبعين أن ألتقي ابنة ذلك الشاعر الرقيق المحب للأنس والطرب، لتحدثني عن أبيها وشعره وهو ابن المدينة الحزينة والمقدسة هذه هي الحياة كما يقول الفرنسيون (سالفي).

كنت مستغرقا في كتابة ملاحظاتي عن حياتي السابقة، فلم أنتبه إلى دقات باب غرفتي المطلة على البحر الأسود وفي الأخير انتبهت إلى الدقات الخفيفة، أجبت الطارق: نعم تفضل في الدخول.

وإذا بالمفاجئة التي لم أكن أتوقعها، كانت إيزيس بشحمها ولحمها وتلك الابتسامة الجميلة التي تحلَّي ذلك المحيَّا البشوش والمؤثر لم يكن دخولاً اعتيادياً فقد رأيت هالة بيضاء تسير وأشعة جمالها تخترق حتى الجدران.

قلت: يا إلهي من أين جاءت تلك الغادة بهذا الجمال الأسطوري؟ فلم أر في حياتي فتاة تشبهها. كانت تجسد البساطة والتواضع وفي نفس الوقت الدفء والجمال والحيوية، اقتربت مني وأنا في حيرة من أمري لا أصدق بأني حظيت بتلك القطعة الفنية التي يعجز رودان النحات الفرنسي عن نحتها وتصور جمالها، فهي مكتملة المحاسن، فوجهها المشرق وشعرها الأسود الكثيف وعيونها عيون المها وأكثر، وجسدها اللين المتناسق بامتلاء، كل شيء فيها جميل فما أسعدني.

قالت وهي تبتسم بغنج ودلال: ما الذي تفعله في هذه الأمسية؟ هل نسيت أنك في إجازة لتبتعد عن الاسترخاء والتمتع بجمال هذه البقعة الربانية التي جمعت البحر والشجر، وأنا هنا بجنبك، فكيف تسمح لنفسك بالانعزال في هذه الغرفة المظلمة؟

لم أكن أتوقع مبادرتها، فالرجل هو من يبادر لدعوة الفتيات ولم يكن العكس معروفاً لدينا، ولكن تواضعها جعلها تبادر ولعلها كانت تضمر في نفسها بعض الإعجاب والميل لشخص، قلت: إنني أكتب عن حياتي السابقة المملة والمحزنة وأنا في خضم هذا الجمال الذي لا يستطع أن يفصلني عن حبي لبلدي وقومي بالرغم من كل المعاناة والاضطهاد الذي وقع عليَّ وأمثالي من الوطنيين في مجتمع متخلف لا يقدر الثقافة والسياسة والفن.

قالت هل تتصور أن كوبا أفضل من العراق في هذا المجال لولا كاسترو والنظام اليساري الجديد وكان هذا مدخل حديثنا بعد تلك الليلة الحميمة العاصفة على ضفاف بحيرة ريتسا.

قالت: هيا لنؤجل حديثنا الطويل عن حياتنا السابقة، فلنذهب إلى ساحة الرقص الصيفية لننعم ببعض المرح.

قادتني – وهي تمسك يدي الخشنة بيدها الناعمة البيضاء، اليد

التي بعثت في قلبي الرجفة وهزت كياني هزة كهربائية لم أجرب مثلها في حياتي فما معنى ذلك - إلى باحة الرقص الصيفية المفتوحة على مجاميع من الأشجار المتنوعة من جميع جهاتها والمكتظة بالراقصين والراقصات.

كان الراقصون جماعات يختلف بعضها عن البعض الآخر، فهناك كتلة سوداء من الأفارقة المتلامعة جلودهم تحت ضياء البراجكترات، وهم يتقافزون برقصاتهم العنيفة وكانت أرجلهم بخفة وسرعة حركاتهم، كان منظراً غريباً نقلني إلى عالم آخر، فقد تصورت كيف ترقص الذكور من الطيور عند التزاوج أمام إناثها وهي نافشة ريشها الملون لجلب انتباه الأنثى وتحظى بإعجابها، وها هم إخواننا الأفارقة يظهرون كل ما في دواخلهم من مشاعر القوة والعنف، لجذب انتباه الصبايا البيضاوات المحيطات بباحة الرقص، حقاً كان منظراً يثير الإعجاب بالرغم من بعض الروائح القوية والكريهة المنبعثة منهم؛ فالمعروف أن الأفارقة ينزفون روائح من آباطهم تبعد عنهم أمثالي من لم يعتادوا على تلك الروائح الزنجية، وفي الطرف الآخر كانت مجموعة أخرى خليطة، كانت سمراء وسوداء وبيضاء كما نقول (ماش ورز) ترقص بتناسق العالم الكبير في رقص السامبا، إنهم جماعة إيزيس الكوبيون الذين جمعوا ما بين أناقة حركات السامبا وقوة الشباب المندفع والمتطلع إلى الحب والإعجاب من الحسناوات.

قرصتني بيدها الرقيقة: انظر هؤلاء هم قومي الفرحون والمرحون الذين لا يمكن أن يتركوا فرصة دون أن يرقصوا ويأنسوا بدون موانع أو عُقد، هذا هو عالمنا وعالم أمريكا اللاتينية من البرازيل إلى كوبا وبوليفيا وتشيلي وغيرها من دول أمريكا اللاتينية، التي بالرغم من عوامل الضغط والاضطهاد والبؤس والفقر يرقص الناس فيها للتغلب على بؤسهم ومعاناتهم، ولا أعلم كيف تكونت لديهم هذه الميول، لعلها

ميول غريزية ورثوها من أجدادهم الأفارقة الذين تعوَّدوا على الرقص وقت الحرب ووقت الزواج وفي كل حزن ومسرة، إنهم يمتلكون عالماً غريباً، ولكنه جميل وممتع يجعلنا ننسى بؤسنا لبعض الوقت.

بعد انتهاء ذلك الرقص الجماعي الذي أداه الذكور من الراقصين بدأت تشنف أسماعنا موسيقا التانجو الهادئة التي تتغلغل في ثنايا قلوبنا وأجسادنا، التقت نظراتنا سوية وهي تعبّر عن دعوة للرقص، دخلنا عالم البهجة الحقيقي فقد كنت أعشق رقصتين التانجو والفالس، احتضنتها بقوة وشوق وكنا ننساب كالنسيم بين الراقصين في حركات متقنة وهادئة بعد رقصة التانجو بدأت موسيقا الفالس وكانت المقطوعة المحببة لدي الدانوب الأزرق (شتراوس).

ولهذه الرقصة ذكريات أخذتني في الحال إلى عالم بغداد الحبيبة، وسنوات الخمسينات المليئة بالحياة تعرّفت إلى هذه المقطوعة، وغيرها من الموسيقا الغربية الخفيفة منها والكلاسيكية، من خلال صديق كان قد عاد لتوه من فرنسا فوجدت لديه ضالتي الكبرى لتحقيق تطلعاتي الشبابية، وكانت داره مزاراً دائماً لي حيث أستمع معه لساعات للموسيقا الخفيفة والكلاسيكية بشكل خاص وبالرغم من عدم تعودي على سماع بيتهوفن وغيره من عمالقة الموسيقيين الكلاسيكيين إلا أنني مع الوقت ألفت تلك الموسيقا العميقة الأثر في النفوس بما تجمعه من انسجام وتلاحم أنغام الآلات المشاركة بالعزف، كان سماعي الأول لبتهوفن غريباً عليّ فلم أفهم من السمفونية التاسعة شيئاً ولكني تعلمت أخيرا أن أتذوق الموسيقا، ولم أتعرّف إلى النوتة وتطور النغمات صعوداً بل انسجمت مع تلك الأنغام الملائكية فقط، وكان للرقص الغربي قصة أخرى خصوصاً الفالس، وبالذات حبي للدانوب الأزرق لملك الفالس (شتراوس) كنت عند دخولي عاصمتي بغداد الحبيبة مليئا بالطموحات والمشاريع المختلفة، منها ما يتعلق بالعمل السياسي والنضال الذي بدأته

صغيراً في مدينتي ومنها ما يتعلق بحياة الأنس والطرب، وحبّ النساء في مدينة مفتوحة للجميع، تستطيع أن تحصل فيها على ما تريد من جنس وطرب وأنس، وكانت تلك الميول الشخصية متأتية من الحرمان الذي عرفت به مدننا، مدن الملح الصحراوية فقد كان ممنوعاً علينا الغناء والطرب بل حتى سماع الموسيقا، فكانت المآذن هي من ترتفع أصواتها صباحاً ومساءً بالأذان والأدعية وأنا المتمرد في حياتي كنت أصبو إلى عالم آخر غير ذلك العالم الذي خلق لغيري.

تعرّفت إلى عوالم الانفتاح والتطور من خلال قراءاتي للروايات العربية والغربية والعلاقات الحرة بين النساء والرجال المحرمة علينا وأفق الثقافة والفنون المختلفة من موسيقا، رسم، نحت والشعر قبل تلك العوالم التي تجعل المرء يحيا بشكل متقدم يختلف عن الشكل الذي نعيشه والمليء بالحرمان من كل ذلك.

في أيامي الأولى في بغداد الحبيبة تعرّفت في كازينو (روكس) من خلال صديقي أحمد إلى مجموعة من الشباب التقدمي، شهاب، ألبير، جوزيف، سليم، وكانوا من مختلف الانتماءات الدينية والمذهبية، كان فينا الشيعي والسني والمسيحي إلا أن ما جمعنا حبًّا للوطن ولبغداد عاصمتنا التاريخية العظيمة ومهدنا في سبيل تطويرها وتطوير أنفسنا لتلحق بركب الإنسانية المتطورة، وكم تغنيت ببغداد والتي قلت ولا زلت أقول:

بغداد يا غادة يشدو الزمان بها

فيمتلئ الكون أزهاراً وألواناً

وكانت مشاربنا وتطلعاتنا تلتقي في ريادة الفن والموسيقا وكنَّا زواراً دائمين لسينما روكس والأفلام الغربية الحديثة، التي تعرض فيها، والتي عملت على توسيع آفاقنا ومن ضمن ما قمنا به بشكل مشترك إقامة

(جرداغ) على ضفاف شارع (أبو نواس) في منطقة أبو قلام، وهناك يقع القصر المنيف لأخي عبد الوهاب الذي أمدنا ببعض وسائل الراحة، منضدة (البينغ بونغ) وكراسي وأدوات الطبخ، فكانت لياليا تتميز بالبهجة والطرب وكان العديد من أصدقائنا يشاركونا تلك البهجة بزيارتهم، وكانت الموسيقا التي جلبتها من داري حديثاً حيث حصلت على (گرام) حديث، كانت تلك الموسيقا رفيقتنا وصديقتنا في تلك الليالي الطويلة من صيف العراق الممتع على ضفاف شارع (أبو نواس).

كانت من ضمن هواياتنا حبنا للرقص الغربي الذي كنَّا نراه ونستمتع برؤيته في الأفلام الغربية، أخبرنا ألبير المسيحي بأن هناك معهدا جديدا فُتح في شارع السعدون إلى جانب سينما الأورفلي يُعلّم الرقص وكان ذلك غاية مبتغانا.

ذهبنا في اليوم التالي لذلك المعهد وسجلنا فيه وكان اثنان من الطائفة المسيحية أحدهم روبرت العائد لتوه من الولايات المتحدة والآخر جورج الذي يعمل موظفاً في البنك المركزي، كان روبرت يتمتع بطلعة جميلة وجسد متناسق ورشيق بعكس جورج الضخم الجسد، ولكنه خفيف الحركات في الرقص بالرغم من وزنه التسعين، كانت التانجو الرقصة الأولى التي تعلمناها وفرحنا وسعدنا بها، وكنا نرقص بعضنا مع بعض لانعدام العنصر النسوي في المعهد، ولكن ذلك الأمر لم يعقنا من التعلم والاستمرار في الرقص، توالت الرقصات الواحدة بعد الأخرى، فتعلمنا بعد التانجو الفوكس تروت، السامبا، والرومبا بلغنا قمة الرقصات (الفالس) وبعد الخطوات المطلوبة في تعليم تلك الرقصة الجميلة والصعبة بدأنا بتجربتها، مسكني جورج من وسطي، وأخذنا تحت أنظار الراقصين، ندور وندور، وأنا في عالم آخر حتى بلغت لحظة الدوار والغثيان، فطلبت منه التوقف، وأخذت أجرجر نفسي لأستنشق الهواء وأفرغ ما في جوفي لأني لم أتعود الدوران بذلك الشكل السريع،

ولكن ذلك لم يمنعني من الإصرار على تعلّم الفالس، الذي كنت في شوق عظيم لأدائه بعد أن شاهدت العديد من الأفلام التي يرقص فيها الشباب مع الصبايا في قاعات الرقص في عواصم الدنيا، موسكو، برلين، لندن، نيويورك وباريس، فلماذا لا نرقصها نحن الشرقيون المحرومون من أبسط المتع وفي مقدمتها الرقص الغربي؟ وكانت الرقصة الثانية على أنغام موسيقا الفالس (الدانوب الأزرق) في بيت صديقتي (نجاة) في عيد ميلادها.

ولهذه الرقصة قصة طويلة إذ تعرّفت إلى نجاة في كلية الحقوق وهي فتاة جميلة رشيقة بامتلاء (مربربة) كانت حياتي في الكلية جافة وبائسة، فقد خلت تقريباً من العنصر النسوي كنَّ ثلاث أو أربع في كل صف كل صف من الصفوف يجلسن في وقت المحاضرات في الكراسي الأولى التي تقابل منصة الأستاذ، وحين يدق الجرس يهرعن مرعوبات إلى غرفة الطالبات حتى يحين الدرس الآخر، وهكذا عاشت إناث كلية الحقوق في عزلة تكاد أن تكون تامة عن زملائهن الطلبة المشتاقين إلى التعرّف إليهن عن كثب.

وفي إطلالة رحيمة من القدر هبطت علينا (نجاة)، لتشاركنا حياة مختلفة بدون تحفظ، كانت قادمة من لندن بعد زواجها، جاءت لإتمام سنوات الدراسة، ويشاء القدر أن تجلس إلى جانبي في الصف وتبدأ علاقة غريبة مع تلك الفتاة الجميلة، طلبت بادئ الأمر مساعدتها في الحصول على المحاضرات أعددتها لها وأنا في غاية الامتنان وبدأت علاقة صداقة وزمالة معها، أخذت تلك العلاقة تتطور مع الأيام حتى بلغت ذروتها في دعوتي عدة مرات لمشاركتها في فنجان قهوة وكانت تصحبني معها في سيارتها الأمريكية (فورد) وكنت أشعر بالزهو لهذه العلاقة فقد تميزت عن أقراني في مصاحبة تلك الغادة الجميلة.

طلبت منها مساعدتي في اللغة الإنكليزية فرحبت بالفكرة وأخذت

أزورها بشكل متكرر للدراسة في أوقات مختلفة عرفتني إلى زوجها المتحرر، الذي لم يرَ في مثل تلك العلاقة أي ضير فكان الرجل مهندساً، أنهى دراسته في المعاهد البريطانية، واستمرت الحال على تلك الصورة حتى يوم ميلادها الحد الفاصل في الانتقال من العلاقة البريئة والزمالة إلى علاقة حب لم أسع لها لكن القدر كان بالمرصاد.

كانت مناسبة الاحتفال بأعياد الميلاد غريبة علينا نحن أبناء المدن المحافظة، حتى إنني الآن لا أعرف يوم وسنة ميلادي، كانت والدتي تقول جئت في شهر ربيع قبل ثورة رشيد علي الكيلاني 1941 بعدة سنوات، وكنت ألح عليها ألا تتذكرين السنة والشهر واليوم فكانت المسكينة والأمية، تسخر مني قائلة: أنا لا أعلم ما كان عشائي مساء البارحة، فكيف أتذكر سنة وشهر ويوم ميلادك؟ لم يبق إلا أن تسألني عن الساعة التي ولدت فيها؟

طلبت من أصدقائي البغداديين الجدد، عما يتوجب عليّ فعله بهذه المناسبة خصوصاً، وأن المحتفى بها فتاة جميلة أرتبط معها بمودة، أشاروا عليّ بشراء سوار أو ما شابه ذلك لأهمية تلك المناسبة.

اشتريت خلاخيل مضيئة ولا أدري، لماذا اخترت تلك الهدية الغريبة التي تتحلى بها النساء الريفيات، ولكن هاجس غريب دفعني لشراء تلك الهدية الغريبة من بغداد وأهالي بغداد، فكيف بفتاة مثقّفة وحديثة التربية ومن عائلة برجوازية كبيرة، ولكني كنت أردت التفرد بشراء مثل تلك الهدية الغريبة.

حلَّ يوم الميلاد العتيد وحضرت مع هديتي في الساعة الثامنة مساءً، وجدت القاعة الكبيرة مهيأة بشكل مميز لحفلة أرتادها بتلك الحميمية لأول مرة، فقد كنت أفضل الأماكن التي أرتادها مع أصحابي، كحفلات الملهى العمومية المليئة بمن هب ودب من طالبي الطرب الرخيص.

أية مفاجأة صعقتني وأنا أرى تلك الوجوه الريانة من شباب وصبايا يستعرضون أنفسهم بملابس الاحتفال الراقية، يرتدي الشباب البزّات السوداء، وترتدي النسوة البذلات الجميلة الطويلة والقصيرة، والتي تزهو بالألوان المختلفة حمراء، سوداء، زرقاء وكأنها قوس قزح يتموج مع حركة الفتيات الرشيقة.

كان في القاعة الكبيرة مسرح صغير (شانو) لم أكن أعرف سبب وجوده حتى وصول فرقة موسيقية صغيرة عازف كمنجه وعازف عود وعازف طبلة مع ناظم الغزالي المغني المحبوب تصاحبه زوجته الفنانة الكبيرة سليمة باشا.

تعرقت حين دخولي القاعة كان الحشد البرجوازي غريباً عليَّ ولكن نجاة خففت من توتري وعرفتني بشكل مؤدب ورقيق على الجمع الشبابي المميز، وبعد بعض الوقت حيث بدأت الكؤوس تدور بين المحتفلين زالت عصبيتي وتوتري وبدأت أتنشق عبير الروائح النسائية المنتشرة في ذلك الجو المضمَّخ بروائح السكائر الأجنبية شربت عدة كؤوس من الويسكي، وأنا منسجم مع الجميع ونحن نستمع إلى أغاني الغزالي التي بدأها:

سمراء من قوم عيسى من أباح لها

قتل امرئ مسلمٍ عاش بها ولها

وكان يتوجه إلى ربة المنزل المحتفى بها، وهي تتهادى بيننا بغنج ودلال، كان الغزالي وسليمة باشا يتبادلان الأدوار بينهما في غناء أصيل وحي فكنت أحلق مع تلك الألحان والأصوات الساحرة، إنه عالم جميل أتعرّف إليه لأول مرة وكنت أقول لنفسي ما أحلى حياة البرجوازيين التي أناضل ضد طبقتهم في تلك الفترة من شبابي.

سنحت لي الفرصة أن أرقص عدَّة رقصات مع الفتيات الجميلات

وكانت واحدة منهن التي أعجبتني بخفتها ورشاقتها وجمال وجهها وهي شقيقة زوج نجاة، لكني لاحظت صديقتي تخطفني منها بين رقصة وأخرى، وكأنها كان تغار من تلك الفتاة.

أثار سلوكها ملاحظتي لأول مرة فقد شككت بأنها كانت تستلطفني وقد تكون تحمل بعض المشاعر الحميمة، والتي لم أجرؤ على تسميتها حباً ولكنها كانت نشوانة بالخمرة الدائرة بيننا فلم أر أي تحفظ من جانبها في مغازلتي والرقص معي.

حلَّت لحظة الرقصة التي أحبها وأتقنها، كنت في غاية الشوق لأدائها مع فتاة خصوصاً اذا كانت جميلة وقد حصل ذلك بدون مقدمات، كانت موسيقا فالس الدانوب الأزرق تطوف بذلك الجو الساحر من الألفة والمحبة والحميمية فقد كانت نغماتها مسكرة أكثر من خمرة الواين والويسكي، أُخذ الجميع بلحن (شتراوس) كانوا جميعاً تقريباً من خريجي الجامعات الأجنبية وكانوا جميعاً يتقنون الرقصات المختلفة.

طلبتني نجاة للرقصة فرحت كثيراً وحين بدأنا ندور في نشوتها شعرت بأنها تلامسني بذلك القرب الدافئ لحضنها، كنا ندور وندور وكأنني أطير وأنا سكران أطير مع العصافير النسائية في عالم مزهر بجمال نسائه وفتوة شبابه، وأنا الغريب يدور مع سيدة الدار بدون حرج وبكل اندفاع، استمرت الرقصة حتى نهايتها ونحن بعيدون عن عالم الواقع مستمتعين بالدوران والموسيقا حتى توقفنا فقابلنا الجميع بالتصفيق الحاد، وكأنهم يرون معجزة وفعلاً كانت معجزة بالنسبة لحكيم فلم يكن يتصور الجميع أن فتىً قادماً من مدن الملح الكريهة يتمكن من أداء رقصة الفالس، وكانت تلك بداية حب مع نجاة ما أجمله وما أحلاه.

وها هو حكيم تحيطه البهجة، وهو يخطو مع فتاته نحو حلبة الرقص ليرقصا أجمل وأكمل ما حَلم به من رقصات، إنه الفالس وبالذات

(بلو دانوب) للموسيقار شتراوس كانت إيزيس ربعة القوام لا بالطويلة ولا بالقصيرة، رشيقة مع امتلاء وهذا غاية المنى وما يتأمله ويهواه حكيم، احتضنها بكل عاطفة واحتضنته بكل جوارحها وبدأ الرقص مع الآخرين من الصبايا والشباب، كان يدور ويدور وهو غارق في عالم سحري لا يعلم كيف بدأ ولا كيف سينتهي، كان يطير وهو في حالة نشوة قصوى وأصبحا كياناً واحداً متماسكاً لكأنه يخشى أن تهرب منه.

كانت الليلة تتميز عن بقية الليالي باعتدال جوها وبالنسيم الذي يحمل معه روائح البحر السخية بكل ما ينعش النفوس وكان حكيم كأنه في حلمٍ من أحلامه السابقة، لا يمكن أن يتصور أنه يراقص تلك الصبية الشهية والفاتنة، حلق في أجواء سحرية مع معشوقته فوق بحر عاصف وعاصفة الحب تدير رأسه، كان وهو يراقصها كما لو أنه في قاعة رقص كبيرة وحفلة عظيمة كحفلة تولستوي التي بهرت ناتاشا في رقصتها الأولى للفالس النمساوي، يدق قلبها ويرتجف جسدها نشوة وطرباً وهي تدور مع إيفان في تلك القاعة الباهرة الضوء بتحفها البراقة بالشباب القيصري، وهم يتمايلون مع جسد تلك الفاتنة ورقصها المتقن والساحر وهي في حفلة البال الأولى في حياتها البرجوازية. كم كان تولستوي عميقاً ومعبراً وهو يصف عواطف تلك الفتاة "ناتاشا" وهي تستقبل حياة الترف وتشارك للمرة الأولى في حفلة مصيرية كبيرة.

كنت في حالة من السحر لكأني أراقص ناتاشا وفي أجمل بقعة وإن كانت بسيطة بدون تزويق وبدون أضواء فكفاني أني أحتضن إيزيس، وهذا لوحده يكفي أن يبعث النشوة والسعادة في قلبي الذي لم يعرف مثل تلك البهجة من قبل، فحياته السابقة كانت جافة ومليئة بالبؤس والهم.

كان يدور ويتمنى أن تدوم تلك الرقصة إلى ما لا نهاية فهو يعلم علم اليقين أنه لن يحظى في مستقبله الغامض بمثل تلك الرقصة والراقصة إلى أن أعاده الواقع إلى عالم الحقيقة.

انتهت الرقصة بعد أن تعب الراقصون وعاد مع فتاته إلى عالم لم يكن يفكر به أو يتوقعه، ولكن هذا هو القدر وضع في دربه تلك الفتاة، لعلها تعيد إليه حب الحياة والأمل في المستقبل الذي أقفل أبوابه ولا يدري ما يترصده من هم وخطر في مستقبل أيامه.

بعد تلك الساعات الهنية من الرقص والمرح أوصل صديقته إلى غرفتها تشبك يده بيدها الدافئة، وهو يترنح بدون سكر من طرب تلك الأمسية البديعة، والتي كانت أولى الأماسي من أيامه في روسيا، بداية الـ 14 يوماً الذي قرر قضاءها في جوف الحب والمرح.

قبّلها على وجنتيها قبل أن يغادرها بدون أن تمتنع بل كانت منتشيه بتلك الرفقة المسائية، واتفقا على اللقاء في اليوم التالي فلا فرقة بعد اليوم كما همست له تلك الحبيبة الصغيرة.

بعد توديعه لفتاته في تلك الليلة الجميلة من ليالي تموز عام 1966 عاد حكيم متفكراً مستعيداً بعض تجاربه ومغامراته النسائية، وأول تساؤل شغله وجعله يحاور نفسه كثرة تجاربه النسائية منذ عرف المرأة، وهو طفل صغير حتى هذه التجربة العجيبة التي أخذته إلى عوالم جديدة لم يكن يعرفها من قبل كانت مليحة أول تجربة علقت في ذهنه وبقيت ذكراها متألقة تراوده مع كل تجربة عاطفية يخوضها، فقد كانت الفتاة مليحة وهي فعلاً لا اسماً كانت من الملاحة ما يؤجج الحب حتى في نفس حكيم ذي الخمس سنوات، كانت تحتضنه وتقبله بعنف فتاة ناضجة وعاشقة وهو لم يكن يدرك عمق تلك القبلات، وما تتركه من أثر لدى فتاة بالغة ومندفعة الجنس والتي لحرمانها من علاقات طبيعية مع الرجال لم تكن تستطيع مبادلتهم حباً بحب وجنساً بجنس فالجنس أكبر المحرمات في مجتمع محافظ إلى أسفل الدرك.

كانت مليحة تعريه وتعلمه كل معاني الجنس وتتعرى لتعرّفه إلى مكامن الجنس والنشوة وهو الصغير، يأخذ الأمور بكل بساطة بالرغم

من عدم إدراكه للشهوة الجنسية ولكن تلك الملامسات والأحضان جعلته يفتح عينيه مبكراً على الجنس وخفاياه، بقيت ذكريات تلك الفتاة عالقة بمخيلته وهو يعانق ويضاجع النساء التي تعرّف إليهن في مجرى حياته، وكأن مليحة مستلقية عارية أمامه في تلك الطفولة التي عرف فيها معالم الجسد النسائي ومكوراته ومكامن اللذة فيه بالرغم من بلوغه مرحلة النشوة الجنسية.

ومرت الأيام وهو يتنقل من حب إلى حب ويعجب ممن يقول: إن الإنسان يحب مرة واحدة وإلى الأبد. وها هو بعد تلك الأيام الطفولية الناضجة جنسياً يتعرّف ويحب نساء عديدة (مكية، سميرة، لميس، عالية، نينا، لودا، وأخيراً إيزيس) وهو لم يشبعه حب امرأة واحدة ليبقى لطيفاً ومتفانياً لذكراها.

وأحب زوجته حباً عنيفاً بعد كل تلك التجارب محدثاً إياها بصراحته الوجودية المعهودة عن حبه لتلك النساء وخصوصاً إيزيس، كان يتصور أنها لن تغار من تجارب حبه السابقة متصوراً أنها تكتفي بما تشعر به من حب مخلص ودائم ولكن غيرة المرأة تبقى مواكبة لحياتها مهما أعطاها الرجل من وصال وحب، على ذلك تذكره لحبيبته التي حدثها يوماً عن علاقته بها منذ سنوات طويلة، فهو يضحك من غيرتها وكيف تسطيع أن تقارن علاقتها بتلك المرأة التي مرَّت بحياته كطيف جميل لم يترك سوى بعض الذكريات التي تعطّر مسار تلك الحياة الجميلة، التي اختارها إلى جنب امرأة لا يمكن أن يخلق مثلها هي زوجته إيمان، فقد تعلق بها وهي ابنة 14 عاماً.

وكان يتحلى ويتغلغل في أعطافها الجميلة الريانة التي سحرته وأثارت في نفسه كل عوامل الحب والشوق، كان يتابعها بنظراته وعواطفه أينما تذهب وتجلس وتنام فهو معها لا يفارقها في تخيلاته

وأحلامه، وقرر أن يطلب يدها قبل سفره للدراسة لكن أصدقاءه ممن مروا بتجارب عديدة خلال وجودهم في الغرب أقنعوه بترك الموضوع، حتى عودته لعله سوف يشبع من الشقراوات والبيضاوات في الغرب فينسى تلك الفتاة المراهقة، التي احتلت قلبه وعقله لكنه أصرَّ على الارتباط بها، وطلب من أخته أن تخبر أهلها بنيته الارتباط بها، وبالرغم من كل ما مر به من تجارب نسائية وحبه لمختلف النساء، إلا أنه بقي حافظاً لذكرى تلك الغادة الجميلة التي ألزم نفسه بالارتباط بها طوال عمره ولزوم الرضوخ لمستلزمات البيئة القسرية وما أنتجته من تجارب حبيَّة وجنسية إلا أنها كانت دائماً تحوز الكأس المغلي من عقله وعاطفته.

وعاد بدون زوجة كما فعل إخوانه وأصدقائه ليجدها تزهو توهجاً وجمالاً، وهي مكتملة النضوج، تجدد الحب الذي علاه الرماد سنين طويلة، ليعود أقوى وأقوى من الماضي وارتبط بها، وكانت عالماً كاملاً ملأت حياته حباً ودفئاً وعاطفةً تفتقت شاعريته المكبوتة وهو يعشقها ويتحلى في أجزاء جسدها المغري وعيونها الفتاكة وعقلها الكامل فكتب فيها أرق القصائد منها هذه القصيدة بعد أربعين عاماً:

ماذا تقولين يا أم الربيعين
أعطيتني في حياتي ملأ فصلين
كان الربيع وصالاً لا حدود له
وفي الخريف نبيذ الحب تسقيني
إيمان يا روعة الدنيا وبهجتها
من لي سواكِ لدفء الحب يُدنيني

واستمر في حبه تبادله حباً بحب وصمدت معه طيلة سنوات من الحرمان والحروب والحصار القاتل، وهي تشجعه وتواسيه وتقف إلى

جنبه، خصوصاً حين طرده النظام الفاشي وإخوانه من الجامعات، فلم تؤثر فيها سنوات الحرمان بل زادتها حباً وحرصاً عليه، فكانت الشجرة الحنونة التي تظلله وتحميه وتسقيه من لماها أحلى من الخمر، وقد كتب فيها بعد أن تفتحت شاعريته الكثير من القصائد الحبّية المعبّرة عن حبه الحقيقي لتلك الفتاة الصغيرة التي عشقها، والتي احتضنته وآوته وحمته من صدمات الزمن القاسي، وهذه بعض الأبيات من القصائد التي احتوتها دواويني، وها أنا ذا أصفها بإحدى القصائد (بالزنبق الحلو):

إيمان يا زنبقاً من عطره ثَمُلت
تلك الليالي فأغنت كل ماضينا
سعدت من وصلها دهراً وما برحت
أطيافها من عوادي الدهر تحمينا
كانت ربيعاً عيون الشمس تعشقها
من لطفها أشرقت حباً أغانينا
وأزهر الورد من أطلال نسمتها
والزرع من فرحةٍ نوراً يغطينا
تناغمت زفرات الحقل معلنةً
بأن غانيةً حلَّت بوادينا
قد استحلت قلوباً أمحلت جزعاً
فها هو النهر حباً جاء يسقينا

وفي قصيدة سنابل الحب التي زرعتها في قلبي وانبعث حباً وارفاً كان زادي في حياتي الطويلة معها:

زرعتِ في قلبي الولهان سنبلةً
أعطت سنابل حب زهرها ألق
من كل سنبلةٍ يهفو الندى عبقاً
يدب من لمسها في أضلعي قلق
تنسَّم السنبل العطشان مئزرها
فصار من عطرها مفتون منطلق
قد أثمر الحب يا إيمان (جنبذةً)
لهيب أحمرها في الروح يرتفقُ

وتوَّجت سني عمرها الخمسة والأربعين معها بالقصيدة الأخيرة في ذكرى زواجنا في تلك السنة وهنا قلت:

سنين بعمري جزافاً تدور
وما زال حباً بقلبي يمور
لشمعة عُرس علاها الضمور
وشعلتها تحتمي في الجذور
تنسمت أيامها الحالماتْ
فماجت حياتي بعطر الزهور
وكم غمرتني عبر السنين
صنوف من الوجد حلو العبير
وسرنا خطاً نتحدى الصعاب
فكانت عضيدي بقلبٍ جسور
سنين من المحن الطاحنات

استطعنا بحبّ تخطي الجسور
وكنت زمان الهوى تسطعين
بنور جمالٍ يضاهي البدور
وها أنت في سنوات النضوج
تشعين زهواً يقينا الهجير

كل هذا الحب وما يحمل من معانٍ ووصال لم ينفع في إطفاء نيران الغيرة في قلب امرأتي العزيزة والمحبة وأنا فرح بذلك، إن ذلك يعني أنها تحمل لي في قلبها آيات كبيرة من الحب لا يمكن أن تنطفئ شعلتها يوماً ما وجدت تفسيراً منطقياً في الدراسات العلمية حول أنواع الحب وموجاته لدى العالم النفسي الأمريكي الألماني الأصل الهارب من ألمانيا النازية (إريك فروم) في كتابه (فن الحب) جاء في الكتاب أن ما مر بي في مراحل حياتي خصوصاً الأولى لم يكن حباً حقيقياً بل كان في أغلبه بدافع الجنس نظراً لما عشته وبقية أبناء مدننا المحافظة من حرمان في عالم لا يبيح حتى الاختلاط بين الجنسين.

إلا أن إريك فروم يتحدث عن الحب الحقيقي فيصفه بأنه ينشأ من بذرة تنمو لتنفتح برعماً أخضر بحياة حب حقيقي وينمو البرعم لتتكون مع الأيام والسنين شجرة وارفة قوية الجذور، من حب حقيقي يدوم ما دامت حياة المحبين مستمرة وهذا ما وجدته في حياتي مع زوجتي العزيزة التي رعيت معها حبنا المشترك، فمنذ زرعناه بذرة نمت وتشكلت فروعها وأغصانها مع السنين حتى أضحت شجرة سنديانة عميقة الجذور قوية، وقد تجاوزت سنوات حياتنا المشتركة الـ 45 عاماً، لعل ما أثار استغرابي وأنا في خضم هذه التجربة الجديدة مع إيزيس أنني نسيت علاقتي مع لوسا التي تركتها في لينينغراد، تلك العلاقة التي

استمرت أربع سنوات وكانت مليئة باللقاءات الحميمة والمشاركة بالكثير في العواطف نسيت أن لي صديقة تحبني واعتقدت أنني أبادلها الحب.

اتضح أن ما كنت أُسميه حباً غير موجود فقد احتلت إيزيس قلبي كاملاً ولم تبق أي بقعة لتلك المرأة الجميلة التي شاركتني سنوات الغربة بكل إيثار وتضحية، عجيب أمر الحب والذي لا يمكن أن أجد تفسيراً لهذه العواطف الجديدة التي لم تخلف ذكرى لتلك السنين الطويلة.

كان هذا الهاجس يؤرقني حقاً إذ كيف سأواجه تلك المرأة بعد أن مات ما كنت أسميه حباً في قلبي.

مرة أخرى أطلَّت عليّ في اليوم الثاني من أيامي الأخيرة في روسيا لتخرجني من أفكاري النهائية وكوابيس الضجر القاتلة وأنا في خضم تصوري لما ينتظرني من مستقبل مليء بالحزن والبؤس.

خرجنا إلى ساحة الرقص المفتوحة يدها تحضن يدي الخشنة الكبيرة تلك اليد الناعمة الملساء والدافئة كأني أحتضن الدنيا وليس يد تلك الغادة، رقصنا طويلاً مختلف الرقصات التي عُزفت ونحن في أعلى طبقات المزاج الشفاف نغترف من جمال الحياة وبهجتها أحلى اللحظات الخالدة، ناسين ما يعكر صفونا وصفو الدنيا من مآسٍ وحروب وخلافات تغرق أبناء البشرية المعذبة.

بعد انتهاء جولة الرقص توجهنا إلى البحر نعتلي سروجه المبثوثة على طول شاطئ للعشاق المعاميد، جلسنا على إحدى المصاطب الخشبية نتغذى من دفء أجسادنا الملتصقة بل الذائبة بعضها في بعضها الآخر. ما أحلى تلك الجلسة الهادئة في ليل البحر الأسود الحالك السواد بنجومه المتدلية كأنها قناديل تضيء فرحا حبنا الوليد! وكأن كل ما يحيط بنا من أصوات أزيز الحشرات الليلية موسيقا بهيجة

تدغدغ أسماعنا، فصوت الأمواج الهادئة المتسابقة للوصول إلى الشاطئ لتغسل أطرافه من أدران المتطفلين على شواطئ البحر.

قلت لها: لم تحدثيني عن نفسك وعائلتك وعن كوبا وثورتها وحياة الناس؟ فيها وحصارها من قبل المارد الأمريكي، أريد أن أعرف كل جزيئة ومعلومة بسيطة عنك وعن عائلتك، وعن كوبا البطلة التي تقاوم بشجاعة عنف الامبريالية الأمريكية. أجابتني: إن اسم والدي (كليب) كما أخبرتك سابقاً وهو من أرومة عربية كما يدعي وأعتقد وفقاً لمعلوماتي بالعربي إن اسمه (كليب) بالكاف وليس گليب بالگاف، لأن العربية لا تعرف هذا الحرف في أبجديتها، وقد حدثني والدي كثيراً وبفخر عن جذوره الممتدة مئات السنين، إلى ذُرا الجزيرة العربية، وكم مرة أخرج بجذر ورقة ملفوفة شجرة العائلة التي تمتد إلى مئات السنين، تلك الملفوفة التي حافظ عليها آباؤه وأجداده من التلف والاعتداء بعد القضاء على الحكم العربي في الأندلس.

كان يتحدث بألم عن المعاناة والموت والتعذيب الذي لاقاه أجداده في غرناطة وقرطبة وبقية المدن الأندلسية، على يد الإسبان ولجان التفتيش التي كانت تفتك بوحشية بالعرب المسلمين واليهود، تريد اجتثاثهم واجتثاث حضارتهم، وقد مات تحت وطأة التعذيب خيرة العلماء والشعراء ورجال الفن والناس الطيبين، ممن يقرّ أن دينه الإسلام ولا يتحول إلى المسيحية، لكن القسم القليل منهم تحول إلى المسيحية ليحفظ حياته وحياة عائلته من بطش لجان التفتيش، التي كانت تطاردهم في الليل والنهار في البراري والبحار لتجتث كل ما يعود إلى الحضارة العربية التي دامت أكثر من 800 سنة، تلك الحضارة المزدهرة من أغنى حضارات الغرب بمختلف العلوم والآداب والفنون.

حافظ الأجداد القدماء على تلك الشجرة المرسومة على الملفوفة القديمة لتبقي أرومة العائلة العربية قائمة، لا يمكن أن تلغيها وحشية

لجان التفتيش وقوة الزمن، كان فخوراً بأجداده العرب، فكان يقول إنه من الموريسكيين المسلمين أصحاب الحضارة القائمة في الأندلس، كانت وهي تحدثني عن عائلتها وجذورها الممتدة مئات السنين إلى الجزيرة العربية التي جاء منها الغزاة العرب طارق ابن زياد ورفاقه الذين أخضعوا إسبانيا لسلطتهم، ذهب بعيداً إلى حادثة كان شاهدها .

ففي أحد الأيام دخل جنرال إلى دار صديقي (طالب الطباطبائي) بعد أخذ الإذن بالدخول وكان برفقة مترجم من السفارة الإسبانية، وبعد تبادل المجاملات المطلوبة في تلك الجلسة، عرّف نفسه مع وجود شجرة يحملها أنه من سلالة طباطبائية وجاء العراق ليتعرّف إلى من تبقّى من عائلته ليعيد الأواصر القديمة، وبعد الدراسة والتحري اتضح أن طالب والجنرال الإسباني يعودان إلى عائلة علوية سكنت الأندلس أيام الاضطهاد الأموي في الشام، وها هم أحفاد تلك العائلة يلتقون بعد مئات السنين، فلا غرابة بما تحدثني به إيزيس عن عائلتها وامتداداتها العربية وفخر أبيها بأرومته الأصيلة، كان الوالد وهو يتحدث بحسرة كبيرة عن الأندلس وآثارها الحضارية التي لم يستطع العنصريون الإسبان اجتثاثها كما اجتثوا المسلمين العرب واليهود بأساليبهم البربرية.

هل تعلمين يا ابنتي كم سائحا يزور قصر الحمراء ذلك الصرح العربي الكبير الذي بناه أجدادنا العرب، السواح بالملايين يزورون القصر متمعنين بهندسته المعمارية المتطورة وبأسوده التي تكاد أن تنقض على من أراد تدمير حضارة العرب في الأندلس، وتلك النافورات وسط حدائق غنّاء بنيت بذوق وهندسة تدل على رقي الحضارة العربية التي دامت ثمانية قرون في (آيبريا).

ويسألها حكيم إذا كان والدك يعتز بتلك الحضارة التي ينتمي إليها فلماذا لم يسمّيك مريم، أو مريانا لماذا اسم إيزيس؟ قالت: سألته

عندما اكتمل وعيي لماذا اسم إيزيس؟ أجابني: إنه سماها تيمناً بتلك الآلهة المصرية، حين زيارته مصر واطلاعه على إنجازات الفراعنة في معابدهم وأهراماتهم وحضاراتهم المتقدمة، ثم تقديسهم للآلهة إيزيس آلهة الحب والخصب، فأسميتك على اسم تلك الآلهة التي احتضنت مصر وحضارتها آلاف السنين.

ممجداً قدرة وعظمة الأجداد الذين استطاعوا أن يبنوا حضارة لا تضاهيها أي حضارة في العالم، استمرت إيزيس في تلك الحبكة الشاعرية تحدثني بإلهام عن عائلتها، وعن كوبا التي أحبتها كثيراً.

قلت لها: أخبريني عن وطنك الذي أعتز به وبصموده أمام حصار أمريكا ومؤامراتها المستمرة للإطاحة بنظام كاسترو الاشتراكي.

لو تعلم يا حكيم ماذا كانت كوبا قبل الثورة، كانت بلداً بدون كرامة في ظل (باتيستا) الدكتاتور وجماعته الحكّام الخونة، كانت عبارة عن (بورديل) أي مبغى عام للسواح والمحتلين الأمريكان، كانت بدون كرامة وطنية مستباحة، فلا احترام لامرأة أو رجل في ظل ذلك النظام اللاوطني.

وحدثت الثورة بقيادة كاسترو ورفاقه الذين غيروا معالم كوبا وأعادوا لها روعتها وجمالها المنتهب من قبل المستعمرين الأمريكان، عادت كوبا تتغني بمجدها وجمالها، وكنا مستعدين للتضحية في سبيلها بأرواحنا، وهناك أهزوجة يرددها الصغير والكبير في وطني (يوآ موآ مي باتريا فسيروس) أحبك يا وطني وسوف ننتصر.

وبالفعل كان التفاف الكوبيون حول قيادتهم، لمحاولة النزول الأمريكية في خليج الخنازير عام 1962 أكبر مأثرة وطنية، خرج الجميع بمختلف الأسلحة الحديثة والبسيطة ليحاربوا المتدخلين، فأسقطوا المؤامرة وانتصر الشعب الكوبي الذي لم يكن مستعداً أن يتنازل عن جمهوريته الفتية والوطنية بقيادة كاسترو، الرجل الذي وفر الكرامة

والغذاء والحرية لأبناء وطنه بالرغم من الحصار الظالم المفروض على الجمهورية الكوبية من قبل (اليانكي).

لقد حاولت أمريكا مرات عديدة إسقاط النظام بالتآمر عليه مع إخوانها المحليين لكن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل، فالشعب الكوبي يساند بقوة النظام الاشتراكي ولن يتنازل عن المكاسب الكبيرة والعودة إلى موضع كوبا السابق المهان والذي تسميه أمريكا بدار البغاء.

حدثتني بكلامها العفوي عن رحلتهم مع بقية الطلبة في الباخرة المتجهة إلى روسيا التي رافقهم فيها، راؤول كاسترو، وهو الشخص الثاني في الحكومة الكوبية بعد أن غادرها ذلك الزعيم الأسطوري (جيفارا).

حدثنا راؤول في إحدى الأمسيات على ظهر الباخرة ونحن في وسط البحر يتقاذف الموج العاتي سفينتنا صعوداً ونزولاً، قال: سوف أذيع لكم سراً لا يعرفه العالم.

بعد أن غادرنا جيفارا تاركاً مناصبه في الحكومة والحزب وذهب يجمع حوله الفلاحين والعمال في دول أمريكا اللاتينية في ثورات متواصلة تطيح بعملاء أمريكا.

ولم تنفع توسلات فيدل كاستر وبقية الزعماء في ثنيه عن توجهه الثوري الذي كان عالم الظلم والطغيان مستعداً له بعد نجاح الثورة الكوبية، بل حتى الاتحاد السوفيتي كان معارضاً لتلك الثورات المحلية فقد تجمَّدت أفكار وعقول الحكام السوفيت ونسوا ثورتهم، وبقوا دائرين في معمعة الجمل الماركسية والإيديولوجية المنغلقة، مرتعبين من عدوهم الرأسمالي وما يمكن أن يحدث لو نجحت ثورات أخرى في عالم أمريكا الجنوبية، التي كانت خاضعة خضوعاً كاملاً للامبريالية الأمريكية.

لم تنفع توسلات القادة الكوبيين من ثني جيفارا عن خططه في إشعال الثورات في أمريكا اللاتينية وإسقاط نظمها الدائرة في فلك

أمريكا، وكان السوفيت يقفون موقف الخصم لتلك الثورات وهذا الموقف يعرفه كاسترو وجيفارا ورفاقهم الثوريين.

عانت كوبا وشعبها من المهانة لموقف الاتحاد السوفيتي في خصومته لأمريكا وتراجعهم في معركة الصواريخ التي أقيمت على البر الكوبي، في مواجهة الولايات المتحدة، حدث ذلك في عام 1963 في ولاية كندي، تراجعت حكومة الاتحاد السوفيتي بعد توجيه الإنذار الأمريكي الشديد فسحب السوفيت صواريخهم مذعورين من الهجمة الأمريكية.

عرَّضوا بخطواتهم تلك كرامة ومكانة كوبا أمام دول العالم وأمريكا اللاتينية لمهانة وازدراء كبيرين ناعتين الجمهورية الفتية بالصنيعة الدائرة في فلك الروس.

لكن حكمة كاسترو ورفاقه جعلتهم يتلقون تلك الإهانة حفاظاً على العلاقة القوية مع الاتحاد السوفيتي.

قلت لها: سأحدثك يا إيزيس عن مواقف شبيهة بما حدث معكم في كوبا فقد عانينا وَقدمنا الأضاحي، لتدخل الحزب الشيوعي السوفيتي في شؤوننا الداخلية الوطنية والحزبية، ولا ندري إلى أي مدى سوف تستمر القيادة المتعفنة في هذا السلوك الذي يضر بالسوفيت وشعوب العالم الآخر؟ ويضر برفاقهم الشيوعيين في دول العالم.

ولا سيما بعد النزاع الإيديولوجي مع الصين والذي أدى إلى انشقاق الحركة الشيوعية في عموم القارات وفي داخل الأحزاب الشيوعية والأوربية ودول العالم الثالث، وكان من أبرز ما حدث من مذابح ضد الحزب الشيوعي الإندنوسي المؤيد للموقف الصيني في محاولة الانقلاب ضد نظام (سوكارنو) وسقوط مئات الآلاف من الشيوعيين في ساحات القتال بدون أن يتحرك السوفيت داخل الأمم المتحدة وعلى النطاق الدولي بل استمروا على صمتهم لأن الشيوعيين الإندونيسيون كانوا يناصرون التوجه الصيني.

طالت جلستنا وامتدت حتى الثانية عشر ليلاً، قلتُ لها: سنكمل حديثنا غداً ولسوف أطلعك على الكثير من المآسي التي تعرض لها العراقيون من الشيوعيين والوَطنيين بسبب المواقف المتخاذلة للسوفيت.

رافقتها وكان بودي ألا أفارقها حتى غرفتها وقبلت وجنتيها وعدت بخفي حنين إلى غرفتي تموج في داخلي عواصف متناقضة من خوف على بلدي وحبي الوليد لتلك الفتاة الجميلة.

استيقظ حكيم في صبيحة اليوم الثالث في المصيف معكر المزاج فقد استهلكته الكوابيس اللعينة، التي لم تفارقه منذ طفولته ولا يعلم متى سينتهي أمرها.

حدثته والدته العزيزة حين شكا لها ما يعانيه من كوابيس تعذبه خصوصاً ذلك الكابوس الذي يجد نفسه محاصراً من أشخاص مجهولين يرومون قتله وهو لا يستطيع حراكاً، بل حتى لا يستطيع الاستغاثة فخرجت منه أصوات اختناق توقظ أحياناً بعض أهله فيوقظونه بدورهم، ويجلس بعد ذلك الكابوس ينز منه العرق حتى في أبرد أيام الشتاء، قالت والدته عندما كنتُ صغيراً أي لا تتجاوز الخمس سنوات أصابك مرض (التيفو) أي التيفوئيد.

وكان شديداً عليك غبت عني وعنك، أربعون يوماً وأنا بجنبك أحاول إنقاذك من الحمى الشديدة مستخدمة الكمادات الباردة والتي لا نملك سواها في عام 1941 فلم يكن البنسلين مكتشفاً آنذاك، وحين فتحت عينيك بعد أربعين يوماً وزعت على الفقراء النذر الذي نذرته حين تستيقظ وتنجو من فراش الموت.

كان النذر عبارة عن (ملبس وأبنات) وبعض النقود لم أكن معتقدة أنك ستنجو من ذلك المرض الذي جعلك كالعصيدة خاوي الوفاض فلا لحم يكسوك ولا نبض أسمعه يدق في قلبك، كانت أياماً قاسية كما

روتها الوالدة، بعدها سافرت بك إلى بغداد لعرضك على الدكتور الإنكليزي في أيام نقاهتك، واستعدت صحتك تدريجياً، لكني لاحظت أنك تهذي وتختنق في نومك وأحياناً تسير في النوم حتى نعيدك إلى فراشك، وألزمت من ربتك وهي (خالة تاجة) بمداراتك ومرافقتك حتى وأنت في سن البلوغ.

ها هي الكوابيس تعذبني بالرغم من تلك الليلة الهادئة والسعيدة التي أمضيتها برفقة إيزيس العزيزة، وأنا أكاد أن أذوب فيها وهي تتحدث وتأتي كلماتها كالنسيم العليل لتداوي مرارة أيامي ومعاناتي، بقيت ساكناً ساعات طويلة أتأمل في أيامي الماضية وما سيأتي في أيامي اللاحقات، قطعت عليَّ حزني المقيم إيزيس بطلعتها البهيجة وبتلك الطلَّة المنعشة والابتسامة الصادقة، معنفة إياي على بقائي ساكناً في ظلام الغرفة وتلك الدنيا المشرقة خارج جدران الغرفة وذلك البحر الأزرق الذي يطفئ فيه المرء نار آلامه.

قالت: هيا نذهب مع أصدقائنا ونأخذ قسطا في السباحة، رافقتها وأنا أشكر القدر الذي وضعها في طريقي في تلك الأيام المليئة بالأفكار والهلوسة وأنا على مقربة من مغادرة الربوع الجميلة والذهاب إلى بلدي المنكوب بآلاف النكبات.

استمتعت كثيراً بالسباحة ونسيت في رفقتها الكوابيس والمعاناة التي ترافقني أينما أحل، لعبنا وسبحنا وكان الموج يداعب أجسادنا الشابة ونحن في عمق المتعة الحياتية المسروقة من الزمن الكئيب الذي كنت فيه، كنا نسبح بعيداً نسابق الموج حتى حدود البحر المسموح لنا السباحة فيه، ونتسابق في السباحة، أي منا يصل قبل صاحبه، وكنت أدعها تسبقني خوفاً من أن يداهمها البحر الغدّار بموجه وتغرق لتغرق معها آمالي في حب لا يمكن أن أجد مثله في حياتي.

وكالعادة في المساء رقصنا حتى بلغ التعب بنا حداً لا يمكن بعده التمتع بالرقص، جرتني معها إلى تلك الجلسة المطلَّة على شاطئ البحر، جلست وأنا أشعر بدفء جسدها البض حين ألامسه فتثير في دواخلي إلى آخر خلية كل كوامن الجنس المكبوت من أيامي الأولى، ولكني كنت متماسكاً فلم أعمد إلى محاولة التحرش بها معللاً نفسي بأن الأيام القادمة ستحل هذه الكارثة.

قالت اليوم جاء دورك لتحدثني عن نفسك وعن عائلتك وبلدك وآمالك ومشاريعك المستقبلية، أريد أن أتعرّف إلى كل صغيرة وكبيرة مرّت في حياتك أريد أن تغرقني بتفاصيل ما عشته من وقائع حتى وإن كانت تافهة وصغيرة.

قلت سوف تتكدرين من بؤس حياتي وما عانيت في مراهقتي ونضوجي فنحن أبناء البلدان المتخلفة عشنا حياةً قليل وصفها بالتعيسة، فقد كتب علينا أن نتعذب ونشقى ليحيا أبناء المراكز التي استعمرتنا حياة جميلة قائمة على شقائنا مستغلة كل ما يمكن أن يمتّعنا ويحيينا، هكذا خلقنا بمثل هذه الموازنة التي كانت وما زالت سائدة، نشقى ليحيا غيرنا في سعادة.

نعم يا سيدتي أنا أنتمي إلى مدينة صحراوية من مدن الملح، التي لا تجدين فيها نبتاً أخضر يزين حياتك وفي أغلب فصول السنة يلف المدينة غبار كثيف يكاد أن يخنق أبناءها، لكن هذه المدينة تتمتع بقدسية كبيرة لدى المسلمين الشيعة، بسبب وجود قبر الأمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) الخليفة الرابع من خلفاء المسلمين، وبسبب عظمة هذا الرجل يؤم المدينة سنوياً آلاف بل مئات الآلاف من الزوار، للتبرك بزيارة قبره، ويوصي الشيعة بدفنهم في مدافن هذه المدينة التي تعتبر من أكبر المقابر في العالم وتمتد على مساحات واسعة بجوار مقام الإمام.

يعتقد الشيعة بأن موتاهم سوف لن يتعرضوا إلى عقاب جهنم مهما ارتكبوا من المخالفات والخروقات للشريعة الإسلامية، فهو أي الإمام سوف يوفر لهم الحماية خلال وجودهم في المقابر القريبة، وفي يوم القيامة فهم شيعته الذين أخلصوا له وأحبوه وهناك من كتب شعراً معبراً بهذه المدينة يقول:

صادرات بلدتي عمائمٌ وواردات بلدتي جنائز

والعمائم هي رمز المتدينين ودارسي الشريعة الإسلامية في ما يسمى بالحوزة العلمية التي يدرس فيها آلاف الطلاب المتدينين القادمين من مختلف مدن ودول العالم الإسلامية، من التبت في الصين، أفغانستان، باكستان، الهند، إيران، ومن الدول العربية وخصوصاً من لبنان، وكذلك من مختلف المدن العراقية المسكونة من الشيعة.

هذه هي الصفة السائدة لمدينتي التي فرض القدر مشيئته أن أُولد فيها، ومن سماتها الأخرى الحزن المقيم طيلة أغلب أيام السنة، فقد قضى القدر أن يقتل يزيد بن معاوية الخليفة الأموي سبط الرسول الحسين بن علي (عليه السلام) في كربلاء مع أولاده وأصحابه في مجزرة تاريخية في عام (61هـ)، وهذه الجريمة جعلت الشيعة ومنذ 1400 سنة ينوحون ويلطمون الصدر ويضربون الظهور بالزناجيل ويضربون الرؤوس بالسيوف والقامات لتتفجر الدماء الغزيرة لعلها تقربهم من آل البيت، الذين يشفعون لهم في الآخرة ويدخلونهم جنان الخلد لأنهم يؤمنون بأن الخلود في العالم الآخر قادمٌ.

ولعل لاستكمال تعاستي أنني ولدت في دار حزينة تقام فيها مجالس العزاء النسائية من قبل والدتي المتدينة جداً، ووالدي التاجر الكبير في كل مناسبة وفاة لأحد الأئمة، أما في ذكرى عاشوراء أي مقتل الحسين (عليه السلام) فتقام مجالس العزاء ولأيام كثيرة ونلبس طيلة شهرين ملابس الحداد السوداء.

هذا هو ديدن حياتنا ويلفُ أهل النجف حزن مقيم منذ فاجعة كربلاء وحتى الوقت الحاضر، حتى إن معظم الرجال والنساء أصبحوا (مازوخيين) يتلذذون بمظاهر الحزن واللطم والضرب على الظهور والصدور والبكاء المقيم في عقولهم وأفئدتهم لعلهم يجدون النصرة من آل البيت في الدنيا والآخرة، متناسين أن هناك حياة قائمة تتطلب منهم أن يحيوها كما يجب؛ بدون حزن أو لطم على الصدور ليتمتعوا بجمالها ويزينوا بيوتهم بدل السواد بالورود ويصبغوها بألوان الحياة البهيجة، لا باللون الرمادي الذي يُعمي كل رغبة في الحياة.

فلون بيوتنا هو لون الإعصار والتراب الذي يخيم عليه ولا ترى لألوان الحياة البهيجة أي أثر حتى لا تقوّينا ونبتعد عن الحزن والتعبد، بتصوري أي حياة تعيسة عاشها ويعيشها أبناء مدينتي وأنا واحدٌ منهم، ولسوف أخبرك عن نفوسنا حين نجدها في جوار المقابر ونذهب إلى هناك نتمشى بين آلاف بل مئات آلاف القبور، لنطبق المقولة الشرعية والحياتية (إذا ضاقت بك الصدور فأذهب وتمشى وسط القبور) لكي نتذكر أن نهاية الحياة تتمثل في الموت القادم قريباً أو بعيداً.

ماذا أحكي لك يا سيدتي عن بؤس حياتي في هذه المدينة، فلقد وعيت مبكراً بسببَ تطلعي وسعة أفقي، التي اكتسبتها من قراءاتي للروايات العالمية والعربية، فقد قرأت وأنا ابن الثانية عشر روايات تولستوي وغوركي ودوستويفسكي من الروس ولا سيما رواية الحرب والسلام لتولستوي والأم لغوركي والجريمة والعقاب لدوستويفسكي.

واطلعت على عوالم فسيحة وجميلة تزهر بكل معاني الحياة والصراعات بين الخير والشر بعيداً عن الحزن والكرب، تظهره جمال الطبيعة وجمال المرأة وعلاقات الرجل بالمرأة والانفتاح الجنسي الذي يغني حياة الإنسان، وتلك الطبيعة المليئة بكل ما يهيج النفس من جمال

الغابات وتساقط الثلوج في المناطق الباردة ورياضة التزحلق والعربات الفخمة التي تجرها الجياد ... إلخ، من مباهج الأنس والطرب التي تتمتع فيها أبناء الأمم الغربية ونحن أبناء مدن الملح تغرق حياتنا بالحزن والبكاء!!

تصوري يا سيدتي إننا لم نكن نملك نادياً في مدينتنا ولا دار سينما فهذه وسائل التسلية تعتبر من المحرمات، بل تحرم علينا الموسيقا والغناء وامتلاك راديو داخل الدار حتى يبقى للمتمسكين بأواصر أمتنا الحزينة على مولاها الحسين (عليه السلام) ولا تبتعد عن التعبد وذكر الله، لكأن الله لا يُعرف إلا بالحزن والبكاء، وهو الذي خلق كل جماليات الحياة فلماذا لا نتمتع بها؟

كنت أخاطب نفسي لماذا يمتنع المجانين من أهلنا من العيش بشكل سوي والتمتع بمرافقة النساء الجميلات، والسفر إلى المدن الفسيحة والكبيرة والتعرّف إلى ملاذ الدنيا والاستمتاع بمباهجها بدون أن يؤثر ذلك على ما في جوفنا من إيمان بالمقدسات وبأذيال الشريعة فليس هنالك من تناقص بين الاثنين.

كانت أفكاري وتطلعاتي تنمو مع سنوات عمري، لينمو معها تمردي على ذلك المجتمع المغلق والمليء بكل مضادات الحياة، والمتقوقع في العبادات القديمة والرجعية ولم أكن بمفردي ممن فتحوا أعينهم وأبصارهم على ما يدور من أسىً وحزن وإعاقة لحياتنا، بل كان معي العديد من أقراني ممن تفتحت أدمغتهم على مباهج وعظمة الحياة من خلال قراءاتهم، وهذه ميزة لا أنكرها، أن مدينتي وأهلها تمتعوا بقراءات مختلفة، فإلى الكتب الدينية كان أصحاب المكتبات الدينية من المثقّفين يجلبون كتب الأدب الحديثة والقديمة، وكتب الفلسفة والسياسية ومختلف العلوم وكانت لهذه الكتب آثارها البليغة على جيلنا الذي بدأ

يتطلع إلى حياة أخرى ويتمرد على تلك الحياة السقيمة التي عاشها أهلنا وأرادوها لنا، ولكننا نقضناها وحاربناها بالتمرد عليها وعليهم مما جلب علينا الويلات من قبلهم.

ولعل المضحك المبكي ما كنا نمارسه ونحن صغار ومراهقين من تسلية ألعاب فقد كنا نجمع من داخل بيوتنا قطع القماش ونجمعها على هيئة طابة تخيطها لنا والدتي ونمارس لعبة كرة القدم في (عگودنا) الأزقة العتيقة ونبقى نمارس تلك اللعبة حتى تهترئ الطابة القماشية ونعاود الكرّة مرة أخرى.

ومن الألعاب التي شغلتنا فترات من طفولتنا اللعب بالدعبل، وهي كرات صغيرة ملونة كنا نشتري منها من البقال، ونلعب بها مع أقراننا في الدربونة (العگد) راسمين خطة على هيئة مثلث واضعين الدعبل عن أطرافها ونقوم بدفع الدعبلة الكبيرة لنصطاد الدعابل الموجودة في تلك الخطة.

ومن الألعاب الأخرى اللعب (بالجعاب) وهي الغضاريف الموجودة في مفاصل الخروف نجمعها ونلعب بها، تلك كانت أهم وسائل تسليتنا، كنت أتحدث وقد بان على وجهي الانفعال وأنا أتذكر تلك الأيام البائسة، احتضنت يداي بحركة تعاطف رقيقة وبانت على وجهها السمح تعابير التعاطف معي، جعلتني حركتها أسترخي منتقلاً من آلام فترة الصبا إلى بذخ هذه الفترة المليئة بالجمال والحنان والحب.

قلت لها كم كنت أتمنى مخلصاً أن أجد فتاة جميلة تقف إلى جانبي في تلك الأيام العصيبة تملؤني حباً ودفئاً وحناناً، وتخرجني من تلك الحياة الجافة المليئة بالمنعطفات والآلام ولكنه حلم لم يتحقق! وها أنذا بالرغم من وجودك إلى جنبي أشعر كأني أحلم ولست أعيش حقيقة حب يتغلغل في أعماقي ويملؤني سعادة، وينتشلني من الضيق والألم

الذي أعانيه في الوقت الحاضر ولكني وجدت أن ذلك الحلم الذي عشته في داخلي يتحقق وأنا إلى جنبك أيتها العزيزة.

قالت: غريب أن تكون حياتكم كلها حزن وألم، لعل مرجع ذلك إلى عقائد دينية تعدكم بالتعويض عن معاناتكم بفرح وسعادة أيامكم في الخلود في الدنيا الآخرة، نعيش في كوبا ودول أمريكا اللاتينية، أقوام أصليون من الهنود الحمر وغيرهم مع من جلبهم الاستعمار من أفريقيا وأسيادهم البيض، يعيش هؤلاء في فقر وبؤس ولكنهم يعبرون عن حزنهم وآلمهم بالرقص في كل الأوقات، في الأعياد والأحزان والحروب لينفضوا ما في داخلهم ويتحرروا من مخانق البؤس والشقاء لعلها ميكانيزمات الدفاع عن النفس للاستمرار في العيش مع كل الصعوبات التي تعصرهم ليبقوا على قيد الحياة.

واصلت الحديث معها عن حربنا الضروس نحن الشباب أو المراهقون الواعون لحالهم البائسة وأسباب بؤسنا، انضم أكثر شبابنا وهم في سن مبكرة إلى العمل السياسي مع التيار اليساري، فكنا نعمل جماعات على شكل خلايا منظمة نجتمع خارج المدينة في أماكن بعيدة عن مراقبة الأهل والشرطة في مناطق تدعى (الطارات) وهي مرتفعات صخرية، تطل على نهر صغير يجلب الماء من منطقة (أبو صخير) البعيدة، هذا النهر الذي أمر بحفره ملك كان يحب العراق (غازي) لكي يستطيع أبناء المدينة الصحراوية أن يعملوا في الحقول الزراعية، ليكسبوا قوتهم ويعيشوا على المنتوجات الزراعية القادمة من تلك الحقول.

كنا نجتمع على تلك الصخور لنقرأ المنشورات اليسارية المحرّضة على الثورة ضد الحكم الإقطاعي الرجعي المتسبب بكل معاناتنا، ونقرأ أيضا الكتيبات التي أهلتنا وحرضتنا ضد الحكومات الرجعية وضد التقاليد البائدة، وحين كنا لا ننتهي من ذلك حتى يعم الظلام نخبئ

تلك المنشورات، والكتيبات تحت الصخور حتى لا تعد مبررات جرمية حين تفتيشنا والقبض علينا.

تصوري وأنا في سن 12عاماً كنت مع صديق لي نتشارك في المظاهرات العارمة في عام 1948التي خرجت تندد بمعاهدة العبودية مع بريطانيا، وكنا فخورين بحمل شعارات المطالبة بالخير للجماهير وسقوط حكومة صالح جبر، الذي وقع المعاهدة مع (بيڤن) وزير خارجية بريطانيا.

وفعلاً أسقطت مظاهراتنا حكومة صالح جبر، وأسقطت معها معاهدة الذل والعبودية، ولكن أعوان الاستعمار لم يستسلموا بل ردوا علينا بعد استلاب فلسطين من أهلها، وهذه قصة أخرى لنضالنا، امتدت سنوات طويلة، كانت هجمة الحكام شرسة أطاحت برؤوس قادة الحزب الشيوعي، وتم إلقاء القبض عليهم، وسجن مئات المناضلين اليساريين، وعمت البلاد حركة رجعية أبأس من سابقتها لنبقى تابعين للاستعمار البريطاني، ويبقى نفطنا يسرق من قبل الإنكليز المستعمرين وشركائهم الأمريكان.

لم نترك الكفاح الذي وجدنا فيه تحقيق ذاتنا الضائعة، وسط تلك العواصف العاتية التي هبت علينا من أعوان الاستعمار الرجعيين، كان العمل السياسي مهرباً لنا من قسوة حياتنا وبؤس أيامنا، وكنا مراهقين صغاراً لكن وعينا كان كبيراً بسبب ظروف مجتمعنا، وتشخيصنا المسؤول عن كل معاناتنا تلك الطغمة التي كانت تسرق مواردنا وثرواتنا لتهنأ بها تاركة الشعب يعاني من الجوع والحرمان.

لم نستكن ونستسلم للهجمة الرجعية بعد عام 1948 فعدنا إلى الانتفاضة الطلابية العارمة عام 1952 وكنا نحن الطلاب الصغار المساهمون الرئيسون في تلك التظاهرات الكبيرة، التي هزَّت أركان

الحكم الرجعي، استلم الحكم قائد عسكري (نور الدين محمود) ولم نتراجع فأُعلنت الأحكام العرفية وامتلأت السجون بالأحرار.

حدث أثناء تظاهراتنا في مدينتي أن قتل أحد المتظاهرين بجنبي (حمودي عبد) راعني منظر الموت ولاسيما شاب لم يرَ من دنياه شيئاً، كنت أتمعن في وجهه الأصفر والدماء المتدفقة من رأسه، أصابني الخوف والغثيان ولكن أصدقائي أمسكوا بي وأخرجوني من التظاهرة، لكن صورة ذلك الشاب المغدور بقيت راسخة في ذهني حتى الوقت الحاضر.

هكذا سارت حياتنا من بؤس إلى تمرد وإلى ثورة حتى دخلت كلية القانون التي تقع في عاصمة العراق بغداد، وهناك التقيت بعصبة الثوار من الطلبة الثوريين، كنت وأنا في خضم العمل السياسي أتوق إلى حياة مريحة وأنا ابن العائلة البرجوازية التي يعيش أغلب أفرادها في هناء وبحبوحة من السعادة، كنتُ أتساءل مع نفسي: ألا يصح أن يعمل الإنسان في صفوف المناضلين ويحيا بشكل طبيعي؟ لا يسكنه الخوف من رجال الأمن الذين يطاردونه في الليل والنهار ويعيش على حافة الحياة الجافة والقاسية.

كان العمل السياسي بعد أن التحقت بكلية القانون أخصب وأكثر أفقاً من العمل في مدينتي القديمة، وكان محور العمل السياسي ومركزه الحركة الطلابية النشطة والبارعة التي تأسس اتحادها عام 1948 في ساحة تسمى (ساحة السباع) وهي ساحة عامة اجتمع فيها ممثلو الطلبة، من جميع أنحاء العراق ليقرروا تأسيس حركة طلابية بعد أن منعتهم الحكومة من الاجتماع في إحدى قاعاتنا لإعاقة تكوين الاتحاد، كنا نعمل على هيئة حلقات صغيرة في الصفوف تتكون من أربعة إلى خمسة أشخاص، وتجتمع هذه الحلقات أسبوعياً للبحث فيما يجري داخل المؤسسة (كلية القانون) والكليات الأخرى، كما كنا نناقش الوضع السياسي المتأزم، ونقترح حسب اجتهادنا ما يتوجب عمله في الممارسات

السياسية، كان الأمن الحكومي قوياً ويراقب حركاتنا لكننا كنا نزوغ عنه ونجتمع بشكل سري في البيوت أو البساتين المحيطة ببغداد.

وكانت المناسبات الوطنية محور نشاطنا الرئيس يجتذب صفوف الطلاب وبقية أبناء الشعب من غير السياسيين فقد كنا نهتم ونحضّر لعيد النيروز الكردي، عيد الحرية لدى إخواننا الأكراد الذين يمثلون القومية الثانية في العراق، وكانوا محرومين من جميع الحريات في ظل الحكومة الرجعية، التي لم تعترف بحقوقهم الإنسانية المشروعة.

ومن أبرز ما ساهمت به بشكل فعال عيد النيروز المصادف 21 آذار عام 1956 توجهنا بصفوف مرصوصة لقرية قريبة تدعى (سلمان باك) تتميز بغابات النخيل والأشجار المثمرة، تبعد عن العاصمة 30 كيلومتراً وبعيدة عن رقابة رجال الأمن، وكان الاجتماع ناجحاً بما تضمنه من برامج غزيرة بالفعاليات والرقصات والكلمات الثورية.

كنت أمثل الاتحاد العام لطلبة العراق وألقيت كلمة وطنية طالبت فيها لأول مرة باسم الطلبة بتقرير المصير لإخواننا الكرد الذين تحملوا طيلة عهود الدولة العراقية شتى أنواع الاضطهاد والظلم، وهم المكون السكاني الثاني في العراق وتنتشر بقية قوميتهم في تركيا وإيران وسوريا، حُيث حرموا من تكوين دولتهم المستقلة بعد الحرب العالمية الأولى وتكوين الدول القومية، التي كانت خاضعة للدولة العثمانية.

كنا نعمل جادين يداً بيد نحن الطلبة اليساريون مع الأحزاب الوطنية والقومية لتكوين جبهة وطنية تحارب الحكومات الرجعية وهذه الأحزاب، الوطني الديمقراطي القريب لليسار، وحزب الاستقلال القومي، حزب البعث، والحزب الديمقراطي الكردستاني.

وكانت اجتماعاتنا مستمرة والتنسيق داخل الكليات بين ممثلي تلك الأحزاب واتحادنا مستمر ونشيط حتى سنحت فرصة ثورية كبيرة عام 1956.

في هذا العام عبد الناصر، الذي قاد ثورة عام 1952 في مصر، أمم قناة السويس الشركة الاستعمارية التي كانت تدير دولة مصر من الداخل، وسبب القوة التي امتلكتها والمتمثلة بالجنود الإنكليز القادمين من معسكرات قريبة من القناة لحماية مصالح بريطانيا العظمى كما كانت تحتضن بمساندة فرنسا الدولة الاستعمارية الثانية في تلك السنوات.

قامت القوات الفرنسية والإنكليزية بمساندة جيش إسرائيل في نوفمبر بمهاجمة مصر، قامت المظاهرات لمساندة الشعب المصري بمطالبة حكوماتها بالوقوف وقفة وطنية ضد الدول الاستعمارية، وقمنا نحن بانتفاضة هزت أركان الحكومة العراقية، التي كان يقودها الزعيم المتعاون مع بريطانيا نوري السعيد، وعمت المظاهرات ليس في العاصمة فحسب بل في جميع مدن العراق.

قمنا بحملة قوية من المظاهرات وكانت أكبر وأقوى المظاهرات التي قدناها من كلية القانون بالتعاون مع ممثلي الحركات الوطنية، وباشتراك الكليات الأخرى التجارة ودار المعلمين العالية، خرج الآلاف من الطلاب في حالة ثورة منددين بالحكام الخونة ومطالبين بإسقاط حكومة نوري السعيد، كانت الشرطة على أتم الاستعداد مزودة بالأسلحة الرشاشة، أطلقت الرصاص الحي على جماهيرنا قرب باب المعظم الساحة التاريخية الكبرى فسقط شهيدان عواد الصفار وناجي، وجرح العديد من المتظاهرين.

استمرت التظاهرات أياماً عديدة، ألقي القبض خلال تلك الأيام على المئات من الطلاب وكنت من ضمنهم وكذلك زعماء ومنتسبي الأحزاب الوطنية، حشرونا نحن الطلاب في معتقل داخل بغداد، ووضعوا البقية في معسكر للجيش في منطقة أبو غريب.

تعرضنا للتعذيب والسب والإهانة، ولكننا صمدنا فاضطروا في النهاية لإطلاق سراحنا، وكان الكسب في تلك المعركة كبيراً، حيث التأمت صفوف الوطنيين من مختلف الأحزاب لتكوين جبهة وطنية قوية، ابتدأت من القاعدة الواسعة التي مثلها الطلاب الثوريون بمختلف اتجاهاتهم القومية واليسارية والديمقراطية، تلك الجبهة التي قادت البلد إلى ثورة عارمة في 14 تموز أطاحت بالنظام الملكي وأسست جمهورية جديدة معادية للاستعمار، حيث خرجت بغداد من حلف بغداد العدواني وألغت الاتفاقات المكبلة لسيادة العراق مع بريطانيا، وانتهجت سياسة حياد إيجابي وفي الداخل أجازت الجمعيات والنقابات والأحزاب، إلا إن هذه الثورة لم تستمر نتيجة التآمر الاستعماري الذي أطاح بقادتها وأحزابها الوطنية عام 1963.

استلم الحكم بالتعاون مع أمريكا وإنكلترا ممثلو حزب البعث الذي خرج من الجبهة وعاث قتلاً واضطهاداً بصفوف اليسار والوطنيين العراقيين، سوف أحدثك عن تفصيلات مهمة في جلسة قادمة عن الأخطاء التي رافقت الثورة والتي اقترفها الحزب الشيوعي بإيعاز من موسكو وما آل اليه مصير ذلك الحزب الجماهيري.

كانت إيزيس متجاوبة ومتعاطفة مع الحديث المحزن الذي يجيده حكيم، احتضنته لتخفف من آلامه وهو يتذكر تلك المآسي التي عاشها في العراق، افترقا على أمل اللقاء في صبيحة اليوم الرابع من تلك الأيام الخالدة في حياة حكيم.

كان حكيم يتفكر في أيامه الجميلة وسرعة انقضائها وها هو اليوم الرابع يحل وهو يزداد قرباً من محبوبته، ولكن علاقته بها ما زالت تراوح مشتملة على تبادل الأحاديث عن حياتهما السابقة، صحيح أن الحديث الصريح عن الحياة الماضية وما تسببه من آلام وآثار عميقة في

حياة حكيم، ولكنها لم تكف لإشباعه وإروائه من الفاتنة الساكنة والمستكينة إليه، كان يطمع بالقرب أكثر وأكثر من القبل البريئة.

خطط في هذا اليوم الرابع وهو منشغل في كتابة مذكراته أن يقتحم تلك الفاتنة غير الممتنعة عنه، وأن يقترب منها للتلذذ بمفاتنها وجمالها القاتل.

كان قد اقتنى زجاجتين من شراب العيون السود حين كانوا في بحيرة ريتسا، وجد أن دور أحدهما قد حل في هذه الليلة، اقترح على رفيقته اقتراحاً جريئاً أن يخرجوا ليلاً من تلك الغرف الخانقة إلى فضاء الدنيا الواسعة المغرية، كان قد لاحظ في إحدى نزهاته معها ملعباً صغيراً لكرة القدم فيه العديد من المصاطب العريضة التي تصلح للرقاد عليها ليلاً.

قال لها: لماذا لا نأتي ببعض البطانيات ونقضي الليل وحدنا؟ وسط هذا المكان الهادئ الجميل تظللنا السماء بدلا من ذلك السقف المنخفض الذي يكاد أن يخنقنا داخل غرفنا، كان رد فعلها سريعاً وإيجابياً، انتظر حتى فرغت ساحة الرقص ومحيطها من الراقصين والمتنزهين، وحمل كل منهم بطانيته إلى ذلك المأوى الجديد للحب، اصطحب معه زجاجته المفضلة التي استطاع عن طريقها تلمس طريقه إلى قلب تلك الفاتنة، جلسا وسط الملعب لوحدهما فشعراً بذلك القرب الذي يجمع العشاق ويزيل العوائق بينهم.

كان الظلام متكاملاً وكان ضوؤه الوحيد إشعاع عيونها السوداء المعبرة عن الحب والمنادية بالرغبة في استكمال عوامل الوصال الحميمة، شربا من عنق الزجاجة وكأنهما فم واحد يرون ما يرافق الشراب من طاولة وكؤوس ومزة، كانت هي كأسه ومزته وشرابه، قال لها: ما أحلى هذه الليلة الصافية والنجوم شاهدة ومراقبة بلآلئها على حبنا.

وكانت النجوم في ذلك الليل الحالك السواد كأنها عناقيد من اللآلئ البيضاء متدلية تكاد أن تلامسنا لكثرتها وكثافتها، لم ير في حياته قبل ذلك التوهج للنجوم سوى ما كان يراه من سطح بيته في المدينة القديمة في ليالي الصيف وهو منطلق في خياله بالبحث عن أجوبة لأسئلته الحائرة حول العالم، السماء، النجوم، القمر، الحياة، الموت، السماء وجمال نجومها البيضاء بعد عدة جرعات من شراب العيون السود الحلو المذاق، والمسكر اقترب منها فكانت السباقة بدفئها وحلاوتها مقتربة من الوصال.

قبَّلها قبلة طويلة من تلك الشفاه المكتنزة وهي تذوب في كل خلية من خلايا جسده المتوتر والمستقبل لكل ملامسة وقبلة وغمرها بالقبلات، وهي تبادله قبلة بقبلة كأنها أكثر شوقاً منه إلى تلك القبلات والأحضان الدافئة، استمرا وهما على ذلك القرب وهو يشمها من رأسها إلى قدميها متمتعاً بذلك العطر الأنثوي المثير.

تعانقا بعنف وجردها من ملابسها في تلك الظلمة، وهو يقبل حلمات ثدييها البارزتين وبطنها الأملس ويشم روائحها الفتاكة، وحين أراد الدخول فيها .

قالت له: احذر فأنا ما زلت عذراء. جعله ذلك النداء يتريث فلم يدر بخلده أن تكون تلك الزهرة المنفتحة على عوالم كوبا والحياة الأوربية أن تكون عذراء حتى ذلك الوقت.

قالت له: أدخل ولا تتريث، تقحمني فهذا هو الموعد الذي انتظرته لسنوات والذي لم يتجرأ أحد على اقتحامي.

لكنه لم يقدم على إزالة بكارتها لسبب لم يعرفه في تلك اللحظة، لعله فكر أن نزيف الدم قد يسبب لها مضاعفات في تلك الساحة المكشوفة بدون أن يكونا قادرين على وقفه، وهو يعلم من خلال ما

جربه سابقاً ما حصل لبعض أصدقائه، حيث نقلت الفتيات بعد إزالة غشاء البكارة إلى المستشفى لعلهُ تخوَّف من ذلك، أو فكر بأن وقت الاقتحام سوف يأتي في مقبل أيامه فلم يعملهُ.

استفاقا في الصباح بعد ساعتين من إغفاءتهما السريعة وذهبا ليغتسلا في مياه البحر الأسود الباردة، أنعشهما البحر فسبحا بعيداً وطويلاً وهما في نشوة الليلة الماضية يحتضن أحدهما الآخر بين سبحة وأخرى، وهما في عالم الخيال بعيدان عن عالم الدنيا المليء بكل المرارات، إلا ما أجملها من سويعات سوف تبقى خالدة في أعماق حكيم يعود إليها من آن إلى آخر.

كان اليوم الخامس مليئاً باللقاءات مع أصدقائه العرب للتحضير لإحياء يوم العرب في (جايكا) اعتاد الروس أن يخصصوا لكل مجموعة من الطلاب الأجانب يوماً يحتفلون به، ويقدموا فيه ما لديهم من فعاليات ورقصات وأغان يشاركهم في ذلك الروس وأصدقاؤهم من الجماعات الطلابية، كوبيون، عرب، فيتناميون، أفارقة، ومن أبناء القوميات الأخرى.

اجتمعت في هذا اليوم من أيام تموز مع صديقي المصري ممدوح الموصلي، الذي كان يمثل الطلبة المصريين المتواجدين معنا في المصيف، وكان نجاح السوري هو الثالث الذي أبلغناه بحضور الاجتماع كممثل للطلبة السوريين لمناقشة فعالية مشتركة للعرب المتواجدين هناك، صدر الاقتراح مني لجمع الطلبة العرب في فعالية واحدة مشتركة للتعبير الحقيقي عن التفاهم والتضامن بين العرب على الأقل، في مثل تلك التجمعات خصوصاً بعد فشل محاولات الوحدة الثنائية بين مصر وسوريا، وفشل المحاولة الثانية لتوحيد العراق، مصر، سوريا.

وهنالك أسباب كثيرة لفشل تلك المحاولات البائسة، يقف في مقدمتها أنها لم تتوافق وتعبّر عن رأي الشعوب العربية وأحزابها، بل

كانت مفروضة من قبل الحكام المعادين لشعوبهم، ولا يمكن لمثل هذه الوحدة أن تتم خلافاً لرأي الشعوب العربية، وجدنا نحن الطلبة المتواجدون في المنتجع أن نبدأ بخطوة صغيرة توحد جهودنا المشتركة لإبراز التضامن والوحدة الحقيقية بين الطلبة العرب، وهي أولى الخطوات التي يجب أن نبدأ بها صعوداً إلى توحيد التنظيمات الرسمية العمالية والطلابية والفلاحية وإلى توحيد الاقتصاد المشترك للدول العربية، وكانت هذه هي فكرتنا المخلصة لتوحيد شعوبنا.

اجتمعنا نحن الثلاثة وبعد المقدمات حول ضرورة التعاون المشترك بين طلبة البلدان الثلاث، ولا سيما بعد فشل محاولة الوحدة الثنائية، أن نخطو الخطوة الصحيحة في مثل تلك المنتديات، وقررنا أن نوحد فعالياتنا بمناسبة ذكرى ثورة تموز العراقية في الـ14 من الشهر وثورة يوليو المصرية في 23 يوليو مع الجهد السوري المخلص نحو توحيد شعوبنا.

أوكل ممثل الطلاب السوريين أمر وضع البرنامج والكلمة المشتركة التي سوف تلقى في التجمع الطلابي مساءً إلى ممدوح ولي، جلسنا مع صديقي المختص بفرع الكيمياء والذي كان على وشك إكمال دراسته للدكتوراه، وهو في آخر أيامه في الاتحاد السوفيتي، جلسنا معاً نتحادث بشكل صريح عن صعود ونزول حركة التحرر العربية والوحدة العربية في الخمسينات، وكيف تراجعت واندحرت في أعوام الستينات.

بدأ ممدوح حديثه عن مصر وما لاقته في زمن الملكية وخسارة الحرب مع إسرائيل عام 1948 بسبب الخيانات والأسلحة الفاسدة للجيش المصري، وما بقى ذلك من ثورة 1952 التي قادها جمال عبد الناصر، وكيف استبشر الشعب المصري الذي كان يخوض بقيادة التيار الوطني نضالاً تحررياً ضد الوجود الإنكليزي في مصر، والتي كانت

الحكومات الرجعية تعمل لتعزيز ذلك الوجود حتى نجاح ثورة الضباط الأحرار، كانت تلك خطوات مهمة سارت بها القيادة المصرية من جلاء الجيش الإنكليزي إلى تأميم قناة شركة قناة السويس، بعد رفض الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تقديم قرض مالي لبناء السد العالي.

وبعد ذلك شراء الأسلحة الروسية وكسر احتكار السلاح من قبل الغرب، ودخول مصر بقيادة عبد الناصر معسكر عدم الانحياز إلى غيره من الخطوات الاقتصادية والتحريرية داخل مصر، كقانون الإصلاح الزراعي الذي قضى على سيطرة الإقطاع، وحرية الصحافة وإبداء الرأي إلى التضامن ودعم الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، كل تلك الخطوات المهمة في تطور حركة التحرر المصرية قادت إلى تآمر الغرب، إنكلترا وفرنسا بالتعاون مع إسرائيل، لشن حرب التدخل الفلاحي لإسقاط حكومة مصر التحررية.

وكانت تلك الشرارة الأولى التي التف من خلالها الشعب المصري حول حكومته واندفعت الشعوب العربية في انتفاضات كبرى ضد الاستعمار الإنكليزي والفرنسي داعمة الحكومة المصرية في حربها ضد المتدخلين، ووقوف الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت، وإنذار السوفيت للمحتلين بالانسحاب، مما عجل في فشل العدوان الثلاثي على مصر الثورة، ومن ثم دعم الاتحاد السوفيتي اقتصادياً وعسكرياً حكومة مصر خصوصاً مساعدته في بناء السد العالي.

كل تلك الخطوات لثورة مصر التحررية ونحن نسير واثقين من أننا سوف نحقق الاستقلال الكامل ونبني مصر الجديدة، في ظل قوانين تقدمية ضد الإقطاع والرأسمالية المستغلة لاقتصاد مصر من خلال بناء صناعة مصرية متطورة، وهكذا التفت صفوفنا نحن المثقّفون واليساريون حول حكومة مصر التقدمية حتى حصول الوحدة العربية مع سوريا عام 1958 وانطلاق ثورة 14 تموز في بغداد.

بعد هذين الحدثين تراجعت خطوات الثوار المصريين بقيادة جمال عبد الناصر، وبانت حقيقة الوحدة مع سوريا، والتي كان هدفها ليس توحيد الأهداف التقدمية لنجدة الشعبين وتطوير بلديهما في ظل وحدة مشتركة وإنما كانت الوحدة احتلالاً كاملاً لسوريا.

ألغى عبد الناصر الأحزاب القائمة في سوريا، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي الذي كان يهدد أقطاب البعث القومي في سوريا والذي ارتأى مساندة الوحدة للقضاء على نفوذ الحزب الشيوعي، الذي تصاعد تأثيره ونفوذه داخل صفوف الشعب السوري.

وبعدها يقول لي ممدوح بدأت مطاردة اليسار والوطنيين المصريين المعارضين لخطوات عبد الناصر التي بدأت تقدمية وانحدرت إلى أعمال دكتاتورية سلطوية لدعم حكم الفرد في مصر وسوريا، فألقي بالآلاف من اليساريين والديمقراطيين في السجون وبدأت حملة اضطهاد، وتنكيل في صفوف الشعب المصري فقوَّض بتلك الخطوات الثورة الجبارة التي قامت بها زمرة الضباط في 1952.

وبعد نجاح ثورة تموز وجد عبد الناصر أن لإدخال العراق في الوحدة القائمة دعماً اقتصادياً واستراتيجياً، لثورة وحكومة مصر التي بدأت تعاني من المشاكل الاقتصادية والتي وجدت في العراق الغني الذي يملك ثروات نفطية هائلة، مجالاً لتنفس الضباط المصريين وقيادة عبد الناصر وتعزيز حكمه، بدأ الرجل بالتعاون مع الأحزاب القومية في التآمر على حكومة عبد الكريم قاسم فحصلت انتفاضة آذار العسكرية بقيادة عبد الوهاب الشواف وبدعم مباشر من حكومة مصر وتزويد المتمردين بالسلاح، وبعد فشل تلك الانتفاضة لجأ عبد الناصر إلى تعزيز سياسته التعسفية في اضطهاد اليسار والشيوعيين المصريين والسوريين، وبعدها في تشرين عام 1961 انتهت الوحدة السورية المصرية التي قامت على أسس خاطئة.

وها نحن الطلاب نبدأ عملنا من توحيد جهودنا في التضامن والتعاون المشترك لبناء وحدة مقاومة صحيحة تقوم على أسس الفهم الواقعي بوضع الظروف الموضوعية في كل بلد عربي، والذي يؤدي نجاحها إلى عمل سنوات كثيرة من أجل بناء منظومة من التعاون بين مختلف التنظيمات والهيئات الاقتصادية ومنظمات المجتمع المدني والأحزاب القائمة في بلداننا وتوحيد السوق العربية المشتركة إلى غيرها من الخطوات الضرورية المهمة في بناء هيكل الوحدة الصحيح.

آه وألف آه يا صديقي ممدوح على تلك الأيام الخالدة في تأريخنا العربي الحديث، يوم كان عبد الناصر وهمنا الجميل في تلك الأيام، ذلك البطل الأسمر الذي بنينا الآمال الكبيرة على قيادته للأمة العربية في نضالها ضد الاستعمار والرجعية والإقطاع وبناء المجتمع الاشتراكي، وإعادة الكرامة العربية المهدورة إلى أهلها.

لو كنت تعلم يا صديقي كيف خرجنا نحن الطلبة العراقيون في ثورة ضد حكومة نوري السعيد، حيث اعتدى المستعمرون الإنكليز والفرنسيون على مصر الحبيبة، وكم سقط منا قتلى وجرحى في تلك المظاهرات ونحن ننادي (ناصر، ناصر، نحن جنودك يا ناصر).

نسينا خلافاتنا الإيديولوجية من شيوعيين وبعثيين وقوميين وديمقراطيين لنتوحد في خضم مظاهرات عاصفة، مطالبين بسقوط حكومة نوري السعيد العميلة للإنكليز وكان الجميع يتوجهون بفكرهم وإرادتهم، نحو مصر الحبيبة لدعمها في حربها ونضالها، كانت تلك الأيام هي التي وحَّدت العرب من المحيط إلى الخليج، خلف قيادة عبد الناصر وكنا مستعدين لتقديم كل التضحيات من أجل نجاح الثورة المصرية في تحقيق أهدافها.

كانت تلك الانطلاقة هي محور توحيد قوانا الحزبية والجماهيرية، نحن طلبة العراق رأس النفيضة المتقدمة لقيادة الجماهير، ونحن من

دعا وعجل من أجل إقامة جبهة وطنية موحدة في العراق، وفعلاً قامت جبهة وطنية جمعت الأحزاب اليسارية والقومية التي قادت العراقيون إلى النصر في 14 تموز 1958، وقادت بعدها الشعوب العربية إلى ثورات أخرى كثورة اليمن وانتصار الشعب الجزائري في نضاله ضد الاستعمار الفرنسي وبعدها إلى تحرير جنوب اليمن وخروج الاستعمار البريطاني بأكمله من الأراضي العربية.

لكن ما حصل بعد نجاح ثورة تموز، كانت انتكاسة مؤلمة في تأريخنا العربي والعراق خصوصاً، فقد تدخلت مصر في تفتيت وحدة الشعب وتدمير الجبهة الوطنية بعد محاولة الزعيم، الذي أحببناه في ضم العراق للوحدة المصرية السورية العرجاء، في تلك السنة وما تلاها فقد بانت وتأكدت وتعمقت في فكر وسياسة الزعيم عبد الناصر، وقد تأكد تدخل عبد الناصر في الانتفاضة العسكرية في الموصل التي قادها عبد الوهاب الشواف، وضُبطت الأسلحة المصرية والإذاعة الموجهة لدعم تلك الانتفاضة وبدأت الأخطاء ترى بعد ذلك الخرق الكبير لوحدة شعبنا العراقي.

كان من أهم ردود الفعل الخاطئة ما قام بها الحزب الشيوعي العراقي إزاء الأحزاب القومية من قتل وترهيب ومطاردة لم تحسب لها حساباً، بل سار وراء عواطف طفولية ضد زعامة عبد الناصر وحركة الوحدة العربية حتى بلغ الأمر بتبني شعارات غير لائقة إزاء القيادة المصرية، كنا نحن من أحب مصر وعبد الناصر، يشعر بالألم بتقصيرنا ونحن نشاهد تلك المشاهد المخزية على الجدران منددة ومشهرة بعبد الناصر، ذلك الزعيم الذي قاد وأبرز النضال العربي وأعاد كرامتنا المهدورة أن يعامل بتلك المعاملة غير اللائقة.

أية أيام تعيسة مرت بنا وتوجت بانقلاب 8 شباط عام 1963 الذي تعاون عبد الناصر لإنجاحه مع المستعمرين الأمريكان والانكليز فقامت

المجازر الرهيبة، خصوصاً بعد بيان رقم (13) الذي أصدره عبد السلام عارف لقتل الشيوعيين أينما وجدوا في الأراضي العراقية.

تلك كانت الأخطاء الرهيبة التي وقعت فيها أحزاب الجبهة الوطنية، بدعم من زعامة عبد الناصر، والتي أدَّت إلى سقوط الجبهة وسقوط آلاف القتلى وعشرات الآلاف من السجناء لا زالوا يقبعون في سجون العراق، تفتتت الجبهة وقتل قادتها غير الناضجين سياسياً والتابعين لزعامات خارجية لتطبيق تجاربها في العراق.

كان الحزب الشيوعي العراقي الذي ارتكب العديد من الأخطاء وفي مقدمتها تبعيته لتوجيهات الحزب الرائد، الحزب الشيوعي السوفيتي الذين كان هو القائد لخطوات الشيوعيين العراقيين، الذين سنحت لهم الفرصة لاستلام الحكم لولا الموقف السوفيتي المعارض لذلك خصوصاً بعد محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم.

وهكذا سرنا من خطأ إلى رد فعل أكثر خطأً حتى وصلنا بالتضامن والتعاون والوحدة مع مصر والدول العربية الأخرى إلى شقاق وتنافر وحقد كبير، اليوم أعدنا نحن الطلبة وقادة المستقبل، ومنهم جمهرة طلبتنا هنا في هذا المنتجع محاولة بناء وزرع ثمرة جديدة للتعاون الصحيح بين جماهيرنا العربية، نبدأ من الأسفل من القاعدة صعوداً إلى المؤسسات المختلفة لبناء وحدة عربية صحيحة وقوية تؤمّن للفرد العربي مستقبله وحياته الكريمة.

لكن ما حصل بعد عودتنا إلى بلداننا، ونحن جادون في بناء تنظيمات تقدمية تعتمد التعاون والتكامل بين شعوبنا العربية، تلك الهزيمة الكبرى التي حصلت في حزيران عام 1967 أمام إسرائيل، والتي بانت من خلالها جهل الحكام الدكتاتوريين العرب واضطهادهم شعوبهم وتكبيل الحركات الوطنية بالقيود، ومطاردة الأحزاب والشخصيات

الوطنية مما أدى ويؤدي إلى إضعاف جبهتنا الداخلية وجبهتنا العربية التي يقودها حكام متعاونون مع الاستعمار الأمريكي والبريطاني.

كانت تلك الخيبة دافعاً لي لأكتب بعد سنين من عودتنا قصيدتي لصديقي المصري، الذي لم أره منذ عام 1968 وهي تفيض حزناً وألماً، معبرة عن واقع بلداننا وواقع حكامنا الخونة، المتمسكين بالحكم بدون أن يقدموا لشعوبهم الخدمة اللازمة وهذه بعض الأبيات: إلى صديقي المصري ممدوحٍ:

تحية مخلصة إليك يا ممدوح
أبعثها من وطنٍ مكبلٍ ينوح
يملؤني النشيج والأنين والجروح
فكل جرحٍ غائرٍ من سرنا يبوح

****

أُنبيك يا ممدوح ما حل بنا من محن
منذ قرون سيدي نغوص بالنتن
أقدارنا، أعراضنا على مدى الأيام تمتهن
وما بقي من لحمنا يأكله العفن
مر شباب العمرٍ، ونحن صامتون
وكلما فاض بنا الحمل يصفعنا الشجون
ومن يقول كلمة جريئة يوضع في السجون
كيف ينال من زعيم أمةٍ مأفون

ها هو اليوم الخامس يطل بأنواره البهيجة على منتجع جايكا، ليشعرني بأن الوقت يهرب مني سريعاً، ولا يمكن إيقافه وهذا هو

منطق الزمن، استيقظت مبكرا لاستلام مهمتي في هذا اليوم المكرس للعرب، وزعنا بالأمس المهمات على بعض زملائنا للقيام بواجبات المعسكر بمفردنا، وكان افتتاح اليوم من نصيبي.

أول ما قمت به تعليق الأعلام العربية في ساحة الرياضة السويدية إلى جنب العلم السوفيتي، أخذت الأعلام العربية ترفرف وهي تبعث النشوة في النفوس وتحكي قصتنا للناس، هذه هي أعلامنا الشامخة بعد أن كنَّا تابعين ومقسمين بين دول الاستعمار الكبرى، بريطانيا العظمى، فرنسا، وفقاً لمعاهدة (سايكس بيكو).

أشرفت وقدت اللوحة الرياضية وأعطيت التعليمات بالحركات التي كنت أتقنها بشكل جيد، استمر الحال في أداء الحركات الرياضية المختلفة حوالي نصف ساعة، بعدها تفرق جمع الطلبة وتوجهوا نحو البحر لينعموا بجماله ويتنعموا بمائه البارد في الصباح، كان بقية الإخوان موزعين في مختلف جوانب المنتجع للإشراف على نظافته، ومنهم من كان يساعد في المطعم لتهيئة الفطور، واستمر الحال بشكل منظم حتى بلغنا غاية ذلك اليوم من الأيام البهيجة بالاحتفال باليوم العربي في المسرح الصيفي المعد من قبل أعضاء فرقتنا، كنت خلال ذلك اليوم ألتقي بغادتي الحسناء من آن لآخر.

كنَّا نتعاون على تهيئة كلمتها، التي سوف تفتتح بها حفلنا الليلة، فقد ارتأينا أن تكون هي عريف الحفل لإعطاء الاحتفال نكهة جميلة تشعرنا بوجود التضامن والتعاون بين شعوب العالم الثالث.

اجتمع الطلاب في ذلك المساء من أماسي تموز المعتدلة الجو من المسرح الصيفي وكانوا من مختلف القوميات الآسيوية والإفريقية والأوربية، وكانت البهجة تتضح من وجوههم السمراء التي كانت باللون الحنطي من شمس البحر الأسود.

خرجت إيزيس لتعتلي خشبة المسرح وهي مشرقة بقوامها ووجهها الباسم لتحيي الجماهير الطلابية التي علتها الدهشة من ظهور كوبية تقوم بتقديم فقرات البرنامج، لكن سرعان ما زالت الدهشة حيث بدأت كلامها بمقدمة ذات مغزى عميق.

قالت: نعم أنا كوبية لكن أجدادي هم عرب إسبان فوالدي هو (گليب) بشجرته وأرومته العربية، فنحن عرب إسبانيا الذين حكمناها 800 سنة، وأنا حفيدة أولئك البناة العظام الذين خلفوا حضارة كبيرة أغنت أوروبا ودعمت حضارتها، واليوم أنا بينكم أعلن تضامني وتضامن الطلاب الكوبيين المنتمين إلى تلك الجزيرة المتمردة على الاستعمار الأمريكي لينصهر كفاحنا مع كفاح العرب في بوتقة واحدة تعادي الاستعمار، وتدعو للسلام والديمقراطية وبناء مجتمعاتنا الحرة التي سوف تنعم بالعدل في ظل النظام الاشتراكي المعلن من قبلنا، والذي سوف ينتصر حتماً في نهاية المطاف ببنود الأخوة والعدالة الاجتماعية في مختلف بلداننا نحن شعوب العالم الثالث، بعد هذه المقدمة القصيرة التي قوبلت بتصفيق حاد من قبل جموع الطلبة، تقدم ممدوح المصري ليلقي كلمتنا الموحدة التي أعددناها مساء الأمس حتى ساعة متأخرة من الليل، تلك الكلمة التي أعددتها والتي حرمتني من لقاء حبيبتي على قلة ما تبقى من أيامي في المنتجع، ولكن الضرورة لها أحكام لا يمكن أن نتجاوزها.

قدَّم ممدوح الكلمة مادحاً اللجنة الدولة المضيفة، وما تقدمه من مساعدات لشعوبنا في مختلف المجالات وفي مقدمتها المجالات العلمية، مشيراً إلى وجودنا الكثيف في معاهد وجامعات الاتحاد السوفيتي لتلقي العلم والعودة إلى أوطاننا لنساهم في بنائها، بعد نيل قسط من العلوم تطرق الخطيب إلى الوضع السياسي في بلداننا، الذي ينم عن تدخل مفرط من قبل الدول الاستعمارية في شؤوننا، والتي خرجت جيوشها

لتحل محلها سيطرة سياسية واقتصادية، بعد أن صنعت تلك الدول حكاماً خاضعين لمشيئتها.

حين بدأت شعوبنا تتململ وتطالب بالاستقلال الناجز، وتنادي بالحياد الإيجابي عن طريق مصر وبعض الدول العربية، تدخلت عسكرياً للإطاحة بالحكام الوطنيين داعمة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، الذي زرعته في قلب أمتنا العربية فلسطين واكتمل من خلال وجود دولة إسرائيل، التي تريد أن تفرض هيمنتها الدائمة على أوطاننا وشعوبنا العربية، وهذا هو المخطط الذي وضعته أوساط السياسيين الغربيين.

ألقى بعض ممثلي الطلبة الأفارقة والآسيويين كلماتهم المعبرة عن تضامن شعوبهم المكافحة مع شعوبنا وكانت تلك الكلمات تلقى ترحيباً وتصفيقاً من جموع الطلبة المحتفلين معنا.

بعدها بدأت الفعاليات التي حضرناها لتلك الأمسية، فكانت أولى الفعاليات التي قدمتها إيزيس لممثلي الطلبة الكوبيين الذين اندمجوا بوجودهم ونشاطهم بنا حتى بلغنا أعلى ما يمكن من أواصر التضامن والصداقة.

ابتدأت فعاليتهم بأغنية قبلني، قبلني كثيراً (يَس مَ، يَس مَ موجو) بصوت فتاة سمراء اسمها مارينا، فأطربت الحضور بذلك الصوت الساحر، الذي تغلغل كالنسيم العليل في نفوس الحضور، ناقلاً إياهم إلى أجواء أمريكا اللاتينية وجمال طبيعتها وسكانها وطربهم الأصيل المعبر عن أجمل المشاعر الدفينة.

بعدها قدَّم جمع الكوبيين رقصة كوبية سريعة يصحبها الطبل والمزمار، حركت الرقصة الحاضرين الذين تجاوبوا معها، التحمَ الحضور جميعاً راقصين على تلك الأنغام الكوبية، التي تحرك حتى

الروح المسبية وتلك الأنغام التي تشبه أنغام الدبكات اللبنانية الجميلة والدبكات الكردية.

إنها رقصات الشعوب المحركة للنفوس التي تعاني من الاضطهاد والظلم لتعبر بالرقص العنيف عن مأساتها، مخرجة من دواخلها كل ما تشعر به من حزن وألم، ومن أبرز الفعاليات التي قدمها العراقيون كانت الفعالية التي قدمها بمفرده الفنان قاسم محمد الذي جاءنا ضيفاً من منتجع (بوريفستنك) المجاور، فقد كان قاسم يدرس في موسكو وهذا المنتجع مخصص لطلبة جامعات ومعاهد موسكو.

قدَّم قاسم لوحة من إخراجه وتمثيله، وكانت إيمائية معبرة عن كفاح الشعب العراقي الذي كان يخوض معركة ضارية ضد جلاديه من الحكام الديكتاتوريين، ولاقت اللوحة بمعانيها تجاوب الحشد المثقّف فصفقوا طويلاً، وكانت الفعالية الثانية إنشاد قصيدة للشاعر الروسي الكبير (يسينين)، التي يحبها ويحفظها الشعب الروسي بأكمله لشاعره الرومانسي الذي انتحر وهو في عز عطائه وشبابه.

كان إلقاء قاسم متميزا بقوته وبلاغته، وعدم وجود لكنة غريبة في كلامه المتدفق كأنه روسي يلقي القصيدة، كان لإلقائه وحفظه تلك القصيدة وعدم إلقائه بالورقة أثر كبير وصدى واسع لدى الحضور، وبشكل خاص لدى الطلبة الروس حيث وقف الجميع يصفقون لمدة (5) دقائق لفنَّاننا المتميز والمبدع.

ترك الرجل العراق في نهاية السبعينات مهاجراً إلى الإمارات، ليغني في هذه الدولة العربية الفتية، بعيداً عن بلده الذي أحب كل ما فيه، وعبَّر في فنه عن أجمل أمانيه وتعلقاته، وفي الأخير مات غريباً في الإمارات كما مات الكثير من العلماء والفنانين والشعراء العراقيين في الغربة.

في نهاية الحفل ألقى ممثل الطلبة السوفيت كلمته ليعبر عن الصداقة والمحبة، التي تربط الشعب السوفيتي بشعوبنا المناضلة لبناء أقطارها، وتكلم عن المساعدات المختلفة التي قدمتها وتقدمها الحكومة الوطنية لشعوبنا منها الثقافية والأكاديمية تستضيف آلاف الطلاب في معاهد الاتحاد السوفيتي، وتخريجهم علماء يقدمون خدماتهم الجليلة لشعوبهم.

في الختام تقدمت إيزيس عريفة الحفل بالشكر الجزيل، لجميع من شارك في إحياء تلك الأمسية الجميلة معبَّرة بصدقها العفوي عن مشاعر الاحترام والمحبة لشعوبنا المغلوبة على أمرها.

خرجنا من الحفل متماسكين يداً بيد، كنت منتعشاً من الدور الذي قامت به إيزيس لإحياء جمعنا، وكانت نظراتها المليئة بالحب والحنان والدفء تشعرني بوجودي الحي إلى جانبها، قبلت يدها على دورها الرائع وكانت منتشيه بالنصر الذي حققته من خلال دورها في الحفلة، بعدها توجهت إلى غرفتي لتحضير معدات السهر في ذلك الملعب الصغير والجميل الذي شهد ليلتنا الأولى جلبت معي قنينة (العيون السود)، والبطانية وأنا في عالم لا أستطيع وصفه من البهجة، بأعلى صورها محتضناً تلك الغادة الجميلة والشهية، والتي لم أكن متخيلاً يوماً أن ذلك الصعلوك القادم من مدينة الملح سوف يحظى بمثلها، عذبة وهنية ورخصة وجميلة وشهية، كانت تلك الساعات أحلى ما عشته في حياتي.

وصلنا إلى الملعب الصغير وكنا في عناق حار يكاد أحدنا يلتهم الآخر، جلست معها، وأخذنا نكرع كؤوس ذلك الواين الشهي المذاق متلذذين بخلوتنا وسط ذلك الظلام الدامس.

كانت النجوم هي حارسنا الأمين، وكان ذلك الليل مليئا بالأصوات الغنائية الرائعة التي تغنيها حشرات الليل بأزيزها المتواصل، وكانت

السماء مشتعلة في تلك الليلة بتساقط الشهب والنيازك كأنها العاب نارية يلقيها الله لكي نكمل احتفالنا البهيج.

قلت لها: إنني كنت في صغري ونحن نيام على سطح دارنا أخاف من تلك الشهب النارية متصوراً أنها ستحرقنا جميعاً.

وكانت والدتي الحبيبة ببساطتها تقول: لا تكتئب يا ولدي إن الله يرسل تلك الشهب والنيازك لإحراق الشياطين الطائرة نحو السماء حتى لا تصل أهدافها وكنت أصدق ما تقول، ما أجملها من ليال طفولية رائعة!

كنا نحتضن بعضنا بعضاً نكاد أن نتوحد في كيان واحد ذائب في حرارة القبلات ودفء الجسد الأنثوي المثير.

قلت لها: كتبت بعض الأبيات الشعرية لليلتنا الأولى قرأتها لها في العربية وكان لها وقع جميل بالرغم من عدم فهمها لمعاني الأبيات الشعرية وترجمت معانيها، فرحت كثيراً وقبلتني بقوة لتخليدي تلك الليلة الرائعة التي لم أكن أتوقع حدوثها مرة أخرى في حياتي هذه هي بعض أبيات القصيدة.

الأمل

متى ألقاك يا أمل

فقد ضاقت بنا الحيل

فمن همّ إلى همّ

يثقل كاهلي الملل

زمان العشق في دنياك

يشبه طعمه العسل

وكانت (إيزيس) فاتنتي

فتاة زادها قبل

يغطي الليل ملقانا

ويبقى شاهداً زحل

أمص رضابها شهداً

وأرقد جنبها ثمل

تهدهدني بنهديها

طوال الليل منشغل

وتعصرني بفخذيها

أمد يدي فلا أصل

ضحكت من أعماق قلبها، وأنا أترجم الكلمات المعبرة في تلك الأبيات الشعرية الجميلة.

كنت أمص من كأسي جرعة وأمص رضابها جرعة أخرى، وكان الرضاب أشهى كثيراً من ذلك الواين الحلو المذاق، أي شفتين مغريتين ومكتنزتين كانت تملك تلك الغادة، كنت أغرق فيها ممتصاً منها رحيق الحياة الحقيقي غارقاً في متعة لم أذق مثلها في حياتي كاملة.

كنت وأنا أمص شفتيها أردد هذه الأبيات:

وهل أحلى من الكأس

يذيب الهم في نفسي

ويغدو المرء مشتاقاً

وحين تتم جمعتنا وتصفو الروح للحب وللأنس

فنختال بلا رجس

بدون الكأس حال العاشق الولهان في كدرٍ وفي بؤسِ

إن الدهر حباني بحظوة مهمة في حياتي تمثلت برعاية الآلهة لشخصي البائس، فها هي إيزيس آلهة الحب والخصب المصرية أتصورها متلبسة بشخصية حبيبتي، فهي فارشة حضنها وأنا أركع واضعاً رأسي في حجرها الدافئ مستنشقاً ذلك العبير، الذي يهب من موضع كنزها الثمين فينعشني، ويجعلني أحلق في عالم سحري يشبه عوالم ألف ليلة وليلة غارقاً في مكامن جسدها الناعم، مكرراً وداعياً لها آلهتي إنني أعبدك، لكني لا أريد أن تغمري الآخرين برعايتك وبركاتك، أنا من يحتاج بمفردي إلى تلك البركات والرعاية لا أريد أن (تمنحي حبك ودفئك بشراً آخرين، دعيني أتمتع بهذا الوقت المقتطع من عالم شقائي لأنهل من مواضع الحب الشهي ولو ساعات قليلة).

نسيت في أحضان إيزيس في تلك الليلة العاصفة بالحب آلام ومعاناة الماضي وهموم المستقبل، التي أنهكتني وأنا مقبل على دنيا وطني الحزينة، لم ننم تلك الليلة حتى بزوغ الفجر، احتضنتها بكل شوق وحرارة وكنت أحترق من حرارة جسدها وهي تتلوى تحب ثقل جسدي طالبة مني أن أدخل فيها وأزيل ذلك العائق الذي يمنع استكمال نشوتها ووصولها قمة النشوة.

كنت أقول لها: لا يمكن أن أقوم بهذا الفعل وستبقين عذراء مالكة لذلك المانع طيلة ما أستطيع الصبر على الوقوف عند عتبته فلا أريد اختراق القلعة الحصينة، دعيني أتمتع بكِ وبجسدك البض وبعواطفك الساخنة وبجمالك الفيَّاض فلا داعي للدخول إلىَ عمق سحيق قد يورثني من الهموم أكثر مما يسليني وينعشني.

بقينا نتبادل الحب ممتزجين في روحينا وجسدينا لا أريد الاختراق وكأن هاجساً يخيّم علينا، يقول تمتعوا ما دمتم سويةً فمن سيعلم ما تحمله لكم الأيام من مفاجآت.

أشرق فجر السادس من لقائي بغادتي وكان الأصيل بحمرته القانية يظلل البحر ليسبغ عليه لوناً متموجاً بألوان زاهية تنادي البشر أن ينهلوا من جمال الطبيعة، التي حبتهم هذه النعمة، وحبتنا نحن العشاق الإحساس العميق بجمال الكون وجمال أشعة الشمس المشرقة والتي تضفي على الكون نوراً يفتح القلب ويشرح النفس.

نزلنا إلى البحر الأزرق الذي احتضنت مياهه جسد الحبيبة لتعكس تموجاته جمال جسدها الأملس والأسمر الذي لوحته شمس القفقاس، وأنا أمتع ناظري بجمال ذلك الجسد.

لا يعرف جمال البحر وروعة موجه إلا العشاق، ففي أحضانه يجدون كل ما ينقصهم من صفاء الحب وعنفوان الموج وملوحة الأرض، والتي فقدنا جمالها وروعتها منذ زمن بعيد، إنه الحب الذي يبارك حب العشاق ويبعث فيهم القوة والنشاط ليديم ليالي العشق الجميلة.

كنت وأنا في أحضان البحر أردد هذين البيتين:

زمان العشق في واديك يشبه طعمه العسل

تعب الحب في نهم وفي مجراك نغتسل

عدنا إلى الشاطئ منهكين من السباحة إلى رماله الدافئة، ألقينا أنفسنا على الأرض مستمتعين بحنانها ودفئها نرى كل شيء جميل، البحر، الشاطئ، طيور النورس التي ترفرف فوق رؤوسنا وهي تزقزق كأنها تزفنا في عرس أسطوري.

غرقنا في أحضان بعضنا واستغرقنا في نوم عميق أيقظتنا الشمس الحارة فعدنا إلى أنفسنا لنعيش من جديد ما تمنته الحياة لنا لكني لم أكن مرتاحاً فكأن هاجساً في داخلي يشعرني بأن هناك ما ينتظرني من منغصات ودائماً يصدق معي ذلك الهاجس اللعين.

هذا هو اليوم السادس الذي كنت أضعه في خانة الأيام الجميلة التي أحياها في ظل حب مليء بكل ما تيسّر لكن ما حدث زلزلني وهز كياني وتحقق الهاجس الذي راودني قبل ساعات.

كنت أتناول فطوري وأنا في حالة انتعاش وسرور بعد تلك الليلة الخرافية التي أمضيتها متمرغاً في أحضان أجمل مخلوقة مرت في حياتي، مرت في خاطري قصة سمعتها في أحد المجالس في بغداد، تتحدث عن مسؤول عراقي زار لندن لأول مرة في حياته، تجول بصحبة أحد المرافقين في مختلف المرافق والمحلات المشهورة في عاصمة الامبراطورية البريطانية، وانتهت جولته في المقبرة البريطانية الخضراء المزروعة بأجمل الأشجار، وكأنها غابة يانعة الخضرة فانزوت بين أشجارها قبور الإنكليز.

لاحظ وهو يتجول وسط ذلك البساط الأخضر كتابات غريبة مختلفة كانت حياة المتوفين مكتوبة تدل على عمر كل منهم الذي يصل أحياناً إلى الستين أو السبعين ولكن هنالك ملاحظة تقول إن ما عاشه فلان لا يتجاوز اليوم أو اليومين في حياته، وآخر كتب على قبر إنه عاش ساعات قليلة، تعجب صاحبنا فسأل مرافقه ماذا تعني هذه الملاحظة المتناقضة مع حقيقة عمر المتوفى، ابتسم المرافق، قائلاً: إن ما عاشه هؤلاء الناس في غمرة سعادة حقيقية هي تلك السويعات أو الأيام المعدودة وليس السنين الطويلة التي تنقضي بالروتين والحياة العادية.

استعاد صاحبنا العراقي شريط حياته البائس وسط تلك الأحلام التي عاشها ولم يذق خلال سنواتها أي نوع مميز من السعادة والهناء، التي عاشها الراقدون في هذه المقبرة فقال كلماته التي يعرفها الكثير منا: (كامل جبر من بطن أمك للگبر).

نعم عشت أجمل الساعات على قصرها لكن ما هزني في تلك اللحظة،

هو رؤيتي لمسؤول المنتجع وهو يتجه نحوي حاملاً مظروفاً معه سلمني إياه، وكانت في داخله عدة كلمات أيقظت في داخلي كل الوساوس، والأفكار السيئة التي اعتدت عليها، كانت الكلمات سريعة قادمة من مدينة لينينغراد، وتقول إن أخي سليم سيصل بعد يومين لزيارتي بتوقيع صديقي الذي يشاركني في الغرفة في بيت الطلبة، صمتّ طويلاً متفكراً أو مسترجعاً العديد من المفاجآت الحاسمة في حياتي أو التي غيرت مجراها السلس والطبيعي، كنت عند إكمالي دراستي الثانوية على وشك السفر إلى لندن لاستكمال دراستي وكانت كل الأمور مهيأة لذلك.

جواز السفر والنقود والقبول في إحدى الكليات البريطانية وفي صباح يوم السفر أخبرني الوالد الذي لم يكن غيرنا في الدار بعد سفر جميع أفراد العائلة إلى سوريا وإيران، قال: لن تسافر أبداً إلى لندن.

ضحكت من كلامه واعتبرته بمثابة نكته بريئة، لكن وجهه العابس ونظراته القاسية أخبرتني أنه القرار النهائي الذي لم أكن أعرف سببه، بادرني: يا ولدي لا أستطيع أن أسمح لنفسي بفقدانك فقد كنت في الليلة السابقة على وشك أن ترمي نفسك من سطح الدار لولا إمساكي بك، فكيف أسمح لك بالسفر إلى ذلك البلد البعيد؟ ولعلك ستكرر ما حاولت فعله، فترمي نفسك من الباخرة أو من العمارة التي تسكن فيها فما الذي سأقوله لنفسي ولأمك وللناس؟ سيقولون إنني من أرسلتك للهلاك.

وكنت آنذاك أتجول ليلاً في نومي، ومصابا بما يسمى مرض النوم، الذي صاحبني سنين طويلة، لم أستطع إقناع والدي بأن ما يقوله لا علاقة له بحياتي المقبلة، لكنه أصر وخرجت والدمع يملأ عيوني لحرماني من الحرية التي كنت على وشك أن أحصل عليها بمغادرتي مدينتي التعيسة إلى رحاب ذلك العالم الجميل، المليء بالشعر والنساء والعلم والرقص وكل ما يسر الإنسان، بعدها تقدمت إلى كلية القانون مرغماً لأتخرج محاميا لا يحب مهنة المحاماة.

وفي مرة أخرى من النازلات الغريبة في حياتي، والتي غيرت مجراها ما حصل لي بعد تخرجي من كلية القانون وتهيئة أموري لتكملة دراسة الدكتوراه في لندن، طلب الحزب الذي أنتمي اليه حضور مؤتمر المحامين المنعقد في بيروت ولم يراعِ ظروفي وتهيئتي للسفر من أجل الدراسة، سافرت برفقة العديد من رفاقي وأصدقائي إلى المؤتمر ولعلّي سأتحدث عنه في فرصة أخرى بالتفصيل، وبعد عودتي دعيت إلى الخدمة العسكرية فذهبت الفرصة أدراج الرياح ولم أستطع استكمال دراستي في بلد الإنكليز، وتحولت الرحلة إلى الاتحاد السوفيتي بعد إكمالي خدمة الاحتياط.

وفي مناسبة أخرى حصل لي ما غيَّر مجرى حياتي، كنت في أثناء دراستي في كمبردج بعد تخرجي في روسيا، وكنت جاداً في الحصول على شهادة ثانية، لأن المسؤولين في العراق عدّوا دراستنا في روسيا باطلة لا يمكن معادلتها ولكن في منتصف السنة الثانية وردتني رسالة من أخي الصغير ينبئني بأن والدي مريض جداً ويتوجب عليّ العودة.

جمعت أمتعتي وأنا ألعن القدر الذي حرمني مرات عديدة مما قررته وغير مجرى حياتي، وحين وصولي العراق اكتشفت أن تلك الرسالة غير صحيحة، فلم يكن والدي مريضاً بل عملوا له عملية إزالة الماء الأبيض من العين، تأسفت وتعصبت ولعنت أخي وكل من حرضه على كتابة تلك الرسالة التي غيَّرت هدفي مرة أخرى ولكن ما حصل، أنني تزوجت بعد شهور قليلة من المرأة التي أحببتها قبل سفري ولكأن القدر رسم خطته لأعود وأتزوجها.

واليوم أرى أن القدر لم يسمح لي باستكمال ما خططت له من قضاء بقية أيامي الحافلة بالسعادة، والمليئة بذلك الحب العنيف، هذه هي ضربات القدر القاسي والتي نتحملها على مضض.

ذهبت إلى غرفتي وأنا حزين حملت أغراضي، وتوجهت إلى سوجي لقطع بطاقة بالطائرة لاستقبال أخي القادم بعد يومين لزيارتي، لم أودع إيزيس بل تركتها تضرب أخماساً بأسداس لا تعرّف ما حل بي، وما دفعني لمغادرتها بعد تلك الأيام والليالي الجميلة على قصرها والتي عشناها عشّاقاً معاً مستمتعين بما وضعه القدر أمامنا في غفلة من البؤس والتعاسة التي عشتها سابقاً.

قررت عدم إخبارها والهرب منها، فلماذا أعذب تلك البنية البريئة، وأنا في طريقي بعد شهرين إلى بلدي، ولا أعرف ما هو مصيري هناك، كنت أعرف أنها ستتعذب ولكن عذابها سيكون قصيراً ليس كعذابي معها في بلد لا حرية فيه، ولا حياة لأمثالي وأمثالها.

جلس حكيم في القاطرة الكهربائية التي تقله إلى ميناء أدلر البحري، فلم تمتلك سوجي آنذاك مطاراً، وأدلر الميناء البحري لا يبعد كثيراً عن المصيف المشهور، جلس الرجل متأملاً في حياته السابقة وهو يطل على البحر الأسود في تلك الساعة الصباحية، حيث الموج يتكسر على الشاطئ مالئاً الشاطئ بالزبد الأبيض، في تقاطع واضح مع زرقة البحر القانية، كم كانت أيامه ولياليه جميلة منذ بداية مجيئه مع زملائه الطلبة إلى شواطئ هذا البحر المكنَّى بالسواد، وهو يمتلك ألوان قوس قزح متغيراً حسب سطوع الشمس وغروبها فمن التموجات الحمراء في الأصيل، التي تفاوت الألوان من زرقة خفيفة إلى زرقة داكنة، حسب عمق البحر وقربه من الساحل حتى المساء حين يبتلع البحر الكرة الشمسية لتعود الألوان الحمراء إلى أمواجه، أي غنىً في ذلك البحر بمياهه المنعشة وأمواجه العاتية أثناء العواصف.

إن امتداد مياهه على مدى النظر يأخذ الإنسان إلى آفاق بعيدة لا تحدها حدود، لكأني جالس على طرف صخرة عالية في النجف أطالع

أمامي ذلك الأفق البعيد، والممتد إلى آلاف الكيلومترات، لكن الفرق بين هذا الشاطئ الجميل والمليء بالخضرة والأشجار وبالصبايا المتهاديات على شواطئه والمسترخيات على رمالها ليكتسين سمرة اصطناعية تعطيهن لوناً برونزياً، فقد سئمت الشقراوات من اللون الأبيض وجئن إلى شواطئ البحر الأسود ليكتسين لوناً جديداً يمتع العشاق في مدن روسيا الرحبة.

جلست متفكراً وأنا أمرر ناظري منتقلاً من موج البحر الهادئ وألوانه الجميلة إلى الصبايا، وهن يفترشن الرمال بأجسادهن الشهية، كان المنظر في غاية الروعة ولكني لم أكن في حالٍ جيدة بعد مغادرتي السريعة، بدون وداع تلك الفتاة الدافئة والجميلة، مرت الذكريات كشريط حي أمام عيوني، منذ وطئت قدماي رمال هذا الشاطئ حتى الوقت الحاضر، تذكرت الأيام الأولى، وأنا مستغرق في أفكاري مردداً الشعر الذي نظمته، مخاطباً فيه البحر ولجوئي إليه بعد تلك المآسي التي عشناها وعاشها شعبنا المسكين والحياة المزرية في مدن الملح البائسة، خاطبت البحر قائلاً:

يا بحر جئتك هارباً من وطنى كى أستجير بموجك المتلاطم
هلا أجرت فتى أتاك مخلفاً شعباً أناخ عليه ظلم الحاكم
خذنى إليك معمداً بتمائمى فلقد سئمت العيش وسط بهائم

كنت أناجي هذا المدى الفسيح الممتد أمامي، وهو يحتضن تلك الأجساد الرخصة والشهية، الشقراوات والسمراوات، وهن يستعرضن أجسادهن الرشيقة أمام الفتيان ينادين تقدموا، فها نحن جئنا لننعم بالحرية فلا تخافوا من الاقتراب منّا، كنت أرى في حالات كثيرة كيف كان العشاق في النهار وفي المساء يحتضنون بعضهم بعضاً بدون حسيب أو رقيب، منطلقين في دنيا يملؤها البحر بموسيقاه الدافئة وتحرسها

طيور النورس البيضاء، وهي تزقزق محييةً العشاق الغارقين في دفء الأحضان الشهية.

تذكرت تجاربي خلال السنين السابقة مع بعض الفتيات، كانت (أبويا) الهنغارية الهاربة من جحيم المجر السياسي، بعد أن خطفوا حبيبها وهي نائمة في أحضاني تشكو من قسوة القدر، وأنا أخفف عنها معاناتها مغرقا إياها بالقبل والأحضان المطمئنة، وكم كانت تجربتي مع لودا التي طاردتني حتى أوقعتني في حبالها ومتعتني في يوم ميلادي بذلك الوصال الحار، الذي لا تزال حرارتها تغرق جسدي المعذب.

وكم كانت نينا الحلوة مغرية وهي تعانقني وتضع جسدها الناعم الأملس تحت تصرف جسدي الخشن العدواني، لعلها كانت تستأنس بعدوانية وصالي لها، وهي مستسلمة تتأوه من لذة الجنس الخارجة من أعماق جسدها اللدن، بالرغم من لقائي القصير بتلك الفتاة الجميلة لكني لم أنس ما غمرتني به من متع الحياة على قصرها.

استمر القطار في سيره المحاذي لشواطئ البحر، وأنا غارق بتلك الذكريات الجميلة، وصلنا أدلر وقبل صعودي الطائرة شدَّني منظر الزهور الكثيرة لبائعات الورد الريفيات المختلفات الألوان بينهن الشقراء والبيضاء والسمراء والسمينة والرشيقة، وكانت هناك دعوة مفتوحة لمحبي الورد بشكل ابتسامات مغرية وكان ورد الجلاديولس هو سيد الميدان، وما أرخصه آنذاك فقد كان سعر الزهرة (2 كوبيك) قارنت بين ذلك السعر الزهيد وأسعار لندن الباهظة التي بسعر واحدة منها استطعت أن أشتري خمسين زهرة حمراء اصطحبتها معي لتزين غرفتي في بيت الطلبة وأنا استقبل ضيفي سالم.

في مقعدي في الطيارة وأنا أهيم في دنيا بعيدة عن واقع الحال الذي يكربني، استذكرت علاقتي بذلك الأخ القادم من لندن، وكيف كانت في صعود ونزول حسب الظروف التي مرت بها تلك العلاقة.

كان سالم يختلف في الكثير من الأمور عني، فلم يكن في أيام صبانا يشاركني أفكاري اليسارية، بل كان دائماً من هواة مطاردة الفتيات والاعتناء بمظهره وأناقته حتى إنه كان يطفئ لمبة الكهرباء في السطح، حين كنت أطالع الروايات أو الكتب الجدّية، وكنا في هذه الفترة على خلاف في هذا الموضوع وغيره، واستمر الحال على هذا النسق حتى حينما عشنا سوية في بغداد، وبتلك الدار الواقعة في حي الكرادة شارع العطَّار، الدار التي عرفت الكثير من المتناقضات؛ ففيها كنا ندير الاجتماعات السرية للجان طلبة الكليات، ونطبع الصور والمنشورات، كما كنا نستخدمها في سهراتنا الغربية مع أصدقائنا المقربين مع بنات الهوى والعربدة حتى الصباح، أي حياة عشناها؟! فيها من البؤس ما يؤلم كما فيها من الحب والعواطف ما يملأ القلب بالفرح.

كان أخي الكبير محظوظاً في علاقته مع الوالد في مجال العطايا والسفر حتى إنه كسب دراسته في لندن على حساب والدي، في الوقت الذي لم أستطع أن أجد عطفاً من الوالد على مشاريعي في تكملة دراستي وصلت إلى حد الهروب من الدار بسبب أفكاري اليسارية التي لم يرض عنها والدي وأفراد العشيرة الرجعيين.

كان محظوظاً في علاقاته الغرامية في مدينتنا المحافظة كانت لديه صديقه يلتقي بها ويضاجعها وأنا منخرط في مجرى الكفاح الوطني على صغر سني وكان يسخر مني قائلاً: لماذا لا تتمتع بمتع الحياة؟ حارقاً نفسك في عمل لا جدوى منه، فما معنى أن تضحي بسعادتك وحريتك من أجل شعب جاهل لا يفهم شيئاً من دعوتك وإخوانك لإصلاح الأمور؟

حزَّ في نفسي وآلمني وأرقني موقف شقيقي وأفراد العائلة من المحافظين بل الرجعيين من كبار التجَّار والملّاك، حين طاردتني الشرطة السرية وأنا طالب في الصف الثالث من كلية القانون، كنت في هذا

الوقت بالذات أمارس نشاطاً سياسياً وحركة دائبة ضد حكم نور السعيد الرجعي المرتبط بالاستعمار، ولم يستطع في البداية البوليس من إلقاء القبض عليّ، وسجني لأني استطعت التخفي من مطارتهم، إلا أنهم أخذوا في التحري والتهجم على أعمامي وأخي الأكبر في بيوتهم بحجة البحث عني مما أغاظ الرجال المحافظين، وأغضب عائلتي، والذين لم يكونوا يوماً ما على معرفة أو علاقة بالنضال في سبيل قضية سياسية، زاد هلعهم واستنكارهم ضد هذا التمرد اليساري الذي سربلهم بالعار كما يدَّعون.

حين زارني أخي بعدئذ في الموقف، تلفظ بلفظة جارحة آلمتني كثيراً، وبدلا من مؤاساتي قام بمهاجمتي، متهماً إياي بتلويث سمعة العائلة بسبب نشاطي السياسي المعادي لعملاء الاستعمار، عجبت لكلامه وقلت له: كيف تلصق بأخيك الذي يشرفك والعائلة نضاله السياسي؟ وهو موقوف بهذه التهمة وليست تهمة الزنا وسرقة الأموال والتحايل في الإعمال التجارية والمضاربات غير القانونية.

تلك الممارسات التي يقوم بها أغلب أعضاء العائلة (المحترمة) ولا يوجه لهم النقد، فوجدوا في نضالي ثلماً لشرفهم العتيد! أية سخرية يا شقيقي تبصقها في وجهي وأنا في هذه الحال! عارٌ عليكم جميعاً أن تقفوا هذا الموقف الظالم ضد من يناضل من أجل قضية شعبه.

ولن أنسى موقف العائلة بمناسبة زواج أحد أبناء عمومتي إذ نصبوا لي ما يشبه المحاكمة، من قبل من يدعي رجحان العقل والخبرة الحياتية والشرف، أرادوا أن يسيئوا إلي ولمبادئي، تكلم كبيرهم بألفاظ جارحة ولكني رددته متهماً إياه وأمثاله بالخروج على شريعة الله وشريعة المجتمع والقوانين، وهم يمارسون الأعمال التجارية غير القانونية التي يدينها الله والمجتمع، ويكيلون الاتهامات الباطلة لمن يشرفهم بنضاله، وخرجت من اجتماعهم تاركا إياهم يضربون أخماساً

بأسداس وهم يواجهون كلماتي التي زلزلت مقامهم وأعمالهم غير الشريفة لكسب المال.

كانت هذه الأفكار تدور في رأسي وأنا في حالة من الشرود بعيداً عن فتاتي التي حُرمت منها بسبب تلك الزيارة المفاجئة لأخي سليم، ولم يكن بوسعي الاعتذار عن استضافته خصوصاً أنه كان مضيفي في لندن في العام الماضي وأكرمني في تلك الضيافة، فلا بدّ من رد الجميل بغض النظر عما أنا فيه من حالٍ لا يعلم بها أخي.

قبل ركوبي الطائرة تجولت في ذلك الميناء البحري للتعرّف إلى معالمه، فلم أزر (أدلر) قبل هذا الوقت، كان موقع المطار محاذياً لشاطئ البحر الذي ذكرني بمطار جبل طارق، الذي يربض مباشرة على صخرة عالية وطويلة تكاد الطائرة حين تهبط أو تقلع أن تسقط في البحر، ولكن مطار أدلر كان أوسع بكثير محاطاً بحدائق غناء تبهج النفس بورودها المتنوعة، الروز، عصافير الجنة، التي تشبه رؤوسها العصافير الحقيقية بألوانها المختلفة (الكلاديولس) الدفلة المتنوعة الألوان، الأحمر الصارخ والأصفر والبرتقالي وزهور كثيرة منسقة وبشكل فني يبهج النفس، وكانت المدينة مسرحاً للفتيات القادمات من مختلف جمهوريات الاتحاد السوفيتي.

تجد الشقراء إلى جانب السمراء والوجوه المختلفة هيئاتها، فوجوه الروسيات تتميز بالسماحة والجمال، بينما نجد وجوه الكازاخيات والطاجيكيات بهيئات مفلطحة لا تبهج النفس، وأجسادهن ممتلئة حد السمنة الغثَّة لكن متابعة ورؤية تلك الزرافات من النساء الفتيات تفرح القلب وهن في نصف رداء عارضات أفخاذهن وأذرعهن للمارة بحجة اكتساب السمرة من الشمس الساطعة.

أعادت تلك النزهة قبل إقلاع الطائرة بعض المزاج الذي تعكر لمغادرة

صديقتي الجميلة، وصلت مطار لينينغراد فوجدت بانتظاري صديقي الذي كتب تلك البرقية كقنبلة ضربت أيامي في (جايكا) كان كامي الشاب الكردي اللطيف، الذي تعرّفت إليه في بغداد أيام حياتي في كلية القانون وهو طالب في كلية بغداد، وقد عرفني إليه ابن عمه كمال، واستمرت علاقتي به وتوطدت في مدينة لينينغراد وسوف أعود إلى ذكر تفاصيل لقاءاتنا الحميمة في تلك المدينة الأسطورية.

استقبلني بابتسامته المعبرة عن صداقة ووفاء الكرد وكان في ظنه أن ما قام به عين الصواب، لا يعلم ما ورثتني برقيته من شجن وحزن.

وصلنا القسم الداخلي وأنا صامت مما أثار انتباهه فراح يتساءل عن سر صمتي ولم أكن مستعداً في تلك الساعة للحديث عن تجربتي الغريبة وعلاقتي بإيزيس مؤجلاً ذلك إلى وقت قريب.

كان باستقبالنا صديقنا الذي يسكن معنا بنفس الغرفة الكردي القبيح المحيا والجميل الروح، الذي اصطفيته من دون بقية الزملاء لخفته وجمال روحه ومرحه الدائم، وكان حضوره معي مصدر فرح وبهجة سألت (عول) وهو اسم الدلال لعبد الرحمن باللغة الكردية ما هي أخبار صديقي (محمد)؟ أجابني بمرارة إنه يعاني من نوية كآبة محزنة مما أثار في نفسي الكثير من الشجون، لأن محمد كان صديقي اللدود، الذي لم يفارق لقاءاتنا وطيس المعارك التي نخوضها ونحن نناقش أمور السياسة وأمور بلدنا، وهو يتفلسف بأفكاره الوجودية ولم نفترق لاختلاف آرائنا بل كنا نزداد التصاقا على مر الأيام.

لعلني سوف أتحدث بإسهاب في بعض الصفحات عن لقائي الأول به في بغداد، وكيف تكرر في موسكو، وبعدها في لينينغراد، وما تركته تلك اللقاءات من آثار على مجرى حياتي وأفكاري.

كان كامي وعول زميلاي في الغرفة الكبيرة في قسم الطلبة رقم (4)

الذي ضمّنا لسنوات طويلة، أبدى الطرفان استعدادهما لمساعدتي مادياً لتلافي كلفة ضيافة شقيقي، شكرتهما وأنا في حيرة من أمري، لأن ما كان لدي من نقود مدخرة صرفتها في مصيف (جايكا) وعلى بطاقة السفر في الطائرة.

كنت متفكراً بحالي وكيف سأتدبر أموري المالية للصرف على أخي القادم من بلد الإنكليز، حتى وقعت عيني على بدلتي السوداء الأنيقة، فرحت لمرآها وقلت إنها من سينقذني من حيرتي ويوفر لي النقود الكافية لإقامة أخي في لينينغراد.

جلست مواجهاً لبدلتي السوداء لإلقاء آخر نظرات الوداع عليها مودعاً معها ما شاهدته تلك البذلة من أحداث مهمة في حياتي.

ما أسرع ما برز من بين الضباب الذي يغلف مجرى حياتي، وجه والدتي السمح ودموعها المدرارة التي تذرفها في الحزن والفرح، إنها من تكلفت بخياطة تلك البذلة حين رأتني جالساً بين أصحابي، وهي تزورني بعد خروجي من الموقف وجدتني في سترتي العتيقة، التي دخلت مرتدياً إياها كلية القانون والتي أصابتها لعنة الزمن وكانت على وشك الانهيار، طلبت من صديقي منعم أن يرافقها لتخيط بذلة جديدة عند أفضل الخياطين في بغداد، مستنكفة من حالة السترة السبورت التي رافقت كفاحي مع رفاقي في الكلية، فلم ترض أن أبقى على ذلك الحال وأنا الذي كان بين أقرانه في غاية الأناقة.

ذهبت بعد شراء قطعة القماش من سوق البزازين وكان القماش (فاصونة سوداء) إلى الخياط الأرمني بصحبة صديقي (مينوسيان)، أفضل الخياطين بشهادة اللبّاسة البغداديين، وكان يتقاضى أجوراً عالية لخياطة البذلة تبلغ (15) ديناراً، والتي تكفيني للعيش بها شهراً كاملاً، إلا أنها إرادة الوالدة.

حين زرت (مينوسيان) ذلك الشاب الذكي الأشقر – وهو يتوسط محل عمله ويشرف على الجميع بابتسامة محببة للزبائن، وكان يتميز بعينين سوداوين إحداهما اليمنى أكبر من العين اليسرى- لعمل (البروفة) التي تسمى بالدارجة (البروة)، لاحظته وهو يدقق بأكتافي نظرة الذكاء البارزة وبعد أيام قليلة استلمت البذلة بفرح غامر، فلكل جديد لذة كما يقول المثل.

كم شاهدت وعاشت بدلتي مناسبات سعيدة، ومعارك في مؤتمر المحامين وأمام القضاء العسكري والعرفي.

كانت المناسبة الأولى لارتدائي تلك البذلة السوداء الأنيقة في عيد ميلاد صديقتي (نجاة)، ولن أنسى نظرات الإعجاب التي واجهتني من الحضور وإطراء صديقتي لأناقتي، كانت الرقصة الجميلة التي أديناها أنا ونجاة مع الحضور (الفالس النمساوي الدانوب الأزرق)، وأنا ملتصق بها ونحن ندور على أنغام الموسيقا، لم أكن أحس بالأرض تحت أقدامي، كنت طائراً أرفرف في سماء زاهية مضيئة في عالم مسحور، وكانت بدلتي المصاحبة لي قد ارتوت من عطر نجاة، الذي بقيت أحتفظ به داخل طيات البذلة لزمن طويل، ولا زلت بعد تلك السنوات أشم تلك الرائحة العبقة داخل البذلة ومتصوراً أنها لا زالت تعطر أنفاسي وتذكرني بما أفتقده دائماً.

كانت المناسبة الثانية لارتدائي البذلة حفلة التخرج في كلية القانون، كنت مزهوا بها وبالمناسبة فقد انتهت فترة من أجمل وأقسى الأيام التي عشتها في تلك الكلية، أيام النضال ضد الحكم الرجعي، وكنت مطارداً من قبل عملاء السلطة لنشاطي مع بقية رفاقي داخل الكلية وخارجها، ولم يدر بخلدي أنني قادر على إكمال سني الكلية بعد مطاردتي من البوليس السري وتوقيفي، خصوصاً بعد النشاطات المهمة في سنوات 1956– 1958، سنوات الكفاح ومساندة الثورة المصرية،

وتكوين الجبهة الوطنية حتى نجاح ثورة 14 تموز التي أرعبت الرجعية العربية وعملاء الاستعمار في بلدنا وفي الوطن العربي.

كانت الحفلة في قاعة الشعب القاعة الوحيدة آنذاك المعدّة لإقامة الاحتفالات الرسمية، ألقيت كلمة الخريجين وأنا في قمة نشاطي لحصولي على درجة الليسانس في الحقوق التي تؤهله إلى ممارسة المحاماة وتكملة الدراسات العليا التي كنت أعد نفسي لاستكمالها، كانت الكلمة معتدلة وقد تضمنت فقرات مهمة في العمل على ترصين الجبهة الوطنية والشعبية التي بدأت عام 1959 تتفكك لظروف خارجية وداخلية، خصوصاً بعدما أدار الزعيم عبد الكريم قاسم ظهره لليسار مسانداً القوى اليمينية، وكنت أوجه كلامي للطلبة الذين عاشرتهم أربع سنوات متمنياً لهم العيش الرغيد والعمل الطلابي والأكاديمي الجاد لخدمة العراق.

وكانت المناسبة التاريخية الثالثة لارتدائي البذلة السوداء مؤتمر المحامين في بيروت، شاركت مع نفر قليل من أصدقائي الديمقراطيين واليساريين في أعمال ذلك المؤتمر، فقد طلب منا الحزب أن نسافر لدعم الثورة، التي كان رئيس الوفد عبد الرزاق شبيب من خصومها بعد نجاحه في الانتخابات، كنا حوالي 40 محامياً من الديمقراطيين واليساريين بقيادة عزيز شريف، محاطين بمئات المحاميين المعادين لنا من عرب وعراقيين ومناصرين لعبد الناصر والقومية العربية، حدثت معارك عديدة كلامية واشتباك في الأيدي مع العراقيين المعادين للثورة والعاملين على إسقاط اليسار العراقي، وكان من أبرز هؤلاء: المحامي هلال ناجي، الشاعر والأديب ولكن العنيف في تطرفه السياسي.

حصلت المعركة حين بدأ أحد الخطباء من السوريين بمهاجمة الثورة وعبد الكريم قاسم، قمنا نحن الأربعون محامياً وأوقفنا الخطاب وحصل التماسك والضرب حتى تدخلت (فرقة 16) من الشرطة

اللبنانية المعدة لمثل تلك الأحوال، وقفت بيننا وأنهت العراك واستمر المؤتمر على ذلك الحال.

إن من غرائب الزمن أن نلتقي بعد خمسين عاماً في مؤتمر ثقافي في مدينة النجف مع المحامي هلال ناجي مستذكرين تلك المعركة والمؤتمر الأول للمحاميين، قال لي يا حكيم: كم كنا مدفوعين عاطفياً بعضنا ضد البعض الآخر، وكلنا وطنيون مخلصون، تفرّقنا وتقاتلنا وسقط آلاف منا ومنكم من استلم الحكم بعدئذٍ، عملاء الاستعمار من حكام شموليين أغرقوا البلد بأكمله بالدماء وأشعلوا الحروب الداخلية والخارجية، إنهم قادة البعث برئاسة صدام حسين. وها أنت ترى مدى خسارتنا.

قلت له: لم نكن بهذا النضج الذي اكتمل بعد سنوات طويلة من التجارب الداخلية ومعاركنا مع النظام وكفاحنا ضد الاستعمار حسب فترات التأريخ، والذي تحول من استعمار مباشر إلى غير مباشر مستعيناً بالحكام المحليين للمحافظة على مصالحه، وها نحن نرى كيف استمر الحكم الدكتاتوري وهو في خدمة أسياده يدمر ويقتل ويسجن ونحن من كان أحد أسباب وصول هذه الفئة الظالمة للحكم، منذ وصولي بيروت مع وفد نقابة المحامين كان حلم غريب ينتابني من آن إلى آخر.

وخلاصة ذلك الحلم محاولة العثور على ليلى بنت حلب الجميلة، التي هربت منها حين اكتمل ونضج حبنا، وكان ذلك الهرب مدعاة للسخرية من قبل أصدقائي الذين حدثتهم عن تجربتي وحبي لتلك البنية اللذيذة التي التقيتها في حمدون عام1955.

والآن جالت في رأسي فكرة خيالية، كنت أحلم وأنا أرتاد بعض الأماكن التي كنا نزورها سوية لعلي أراها ثانية بعد فراق أربع سنوات، وما أسخف ذلك الحلم الذي هو ليس حلماً بل عبارة عن نوع من الهلوسة التي تنم عن سذاجة عجيبة! كيف كنت أفكر أن فتاة بذلك

الجمال والدفء الأنثوي تبقى منتظرة أربع سنوات بدون تواصل أو وعد باستمرار الحب والعلاقة الحميمة. كيف تنتظر من هرب منها بدون وداع، ولكن كنت أغالط نفسي وأذهب إلى أماكن اللهو التي عرفناها .

ذهبت إلى شاطئ سان جورج على شاطئ البحر الأبيض، كنت أسير على الرمال الدافئة الملساء، ولكأنني أرى آثار خطاها الصغيرة وهي تسير بجنبي مرتدية المايوه، ونحن في غاية السعادة، فلم أتحسس سوى حرارة الخيبة المنبعثة من رمال الشاطئ التي أحرقت قدماي، وكنت أغوص في مياه البحر، علّي أراها طافية على موجة من تلك الموجات القوية، التي كانت تحملنا سوية إلى رمال الشاطئ لترمينا في أحضان بعضنا بعضا وكأنني أمتلك الدنيا وهي في أحضاني.

كانت رئاسة المؤتمر قد دعتنا إلى احتفال في مصيف زحلة بهدف مصالحة وفدنا مع الوفود الأخرى وكان ذلك محاولة جميلة من قبل قيادة المؤتمر.

كانت لزحلة ذكرى ما أروعها وأنا أتصفح الصور الجميلة المكتنزة في خيالي، كنت مع ليلى لأول مرة في ربوع زحلة الجميلة، وكأني دخلت جنة غناء مليئة بحور العين من الصبايا الجميلات، والفتيان الباسمي الوجوه المفتولي العضلات يحيطون بفتياتهم بكل دفء ومحبة، وكنت أحضن صديقتي وأنا أتقدم في ذلك النهر الطويل المحاط بطرفي الجبل، والذي تغمره الأضواء من كل جانب ويخترقه من وسط ذلك النهير الصغير القادم من نبع جبال زحلة؛ وقد عمدوا إلى جعله في جريانه كشلالات صغيرة بين مسافة وأخرى يبعث في مسيره خريراً حلواً كموسيقا عبد الوهاب (شهرزاد).

جلسنا ونحن في فرح غامر محاطين بعشرات الصبايا الجميلات وهن سادرات في فرح وسعادة مكتملة، يشربن الخمرة في أقداح صغيرة

كانت خمرة زحلة التي سمي باسمها ذلك الخمر، ويدخن (الأركيلة) الصغيرة فما كان مني إلا وطلبت تلك الخمرة اللذيذة وأنا في عالم سحري من عوالم ألف ليلة وليلة.

كانت المرة الأولى التي أشرب فيها (العرق اللبناني)، والذي بقيت ذكراه تراودني كلما شربت من ذلك الصنف في بلدي العراق، لم أنس ولن أنسى تلك الليلة الخالدة التي عشتها في مرابع زحلة والتي بقيت ملازمة لي حتى بلوغي سن السبعين فكتبت تلك الأبيات، مقارناً بين زحلة ودبي المدينة التي يعتبرها العالم من أجمل المدن، مقارنا بين حياة البهجة في ذلك العالم بكل ما يسعد المرء، وبين عالم دبي المسكون بأصحاب الملايين القادمين من أنحاء العالم لاكتناز المال في هذه المدينة الصغيرة.

ما بين زحلة ودبي
اللّه يا بلد النجوم أحب فيك حرائر شبه النجوم
أنا ها هنا في عالم يهفو إلى تلك النجوم
هو عالم لا تلقى فيه سوى أبراج تخنقها التخوم
لا لن تطاول صرحك الزاهي
فما فيها شواهد لا تدوم
لبنان أنتِ محبتي فبك التقيت نجوم
أحلامي تحاور زنبقاً خالي الهموم
فيك الحياة مسرةٌ تعلو على أسطورة
البرج المنيف بلا كروم
لا لن تكون (دبي) بما فيها من الأبراج
غير غلالة وسط السديم

فهناك في أرجاء (زحلة) تلتقي

غرر الصبايا ينطلقن بلا وجوم

فيها مئات من شباب يرقصون

ويرقصون بدون أن تخفي انطلاقتهم غيوم

أما هنا في عالم الزيف المزيَّن بالمظاهر

لن ترى غير الهموم

الكل يطمح للمغانم وهي أكداس النقود

ثمارها قتل النجوم

وأعود خائباً بعد بحثي المستحيل عن حبيبة هربت منها، فهل ينفع الندم والبحث المتأخر عن حلم اختفى في مهاوي الخيبات التي عشتها بعد فراقها، عدت لأسطر هذه الأبيات المعبرة عن ألمي وحسرتي.

حبي الغارب في بيروت

بيروت يا حباً حلمت به وقلبي يستعر

ومضيت في مسعاي أبحث في متاهات القدر

عن ذلك العشق الذي ملكت يداه سنا القمر

وتدفقت ذكرى غرامٍ لم يعد فيه وطر

فرأيت بحمدون عصفوراً يغرد في السحر

يا نجمةً لمعت فكانت مرفأً في ليلي الباكي الكدر

فتمازج القلب الرهيف بروحي ليلاي العطر

اليوم جئت أزور ذاك العش علَّي ألتقى طيفاً يمر

لكن أوراق الخريف تراكمت تحكي روايات عن الحظ العثر

وكان لي في ارتدائي لتلك البذلة السوداء مقابلة مع المحكمة العسكرية الخاصة، التي أنشأها نظام الزعيم عبد الكريم قاسم لمحاكمة الشيوعيين بعد أن أدار ظهره لهم وابتدأت مطارداته ومحاكماته الصورية لمئات الشيوعيين.

كنت بعد تخرجي في كلية الحقوق (القانون) انتميت بطلب من الحزب إلى مكتب الدفاع عن حرية السياسيين من الاتجاه اليساري المتهمين بجرائم سياسية، وكان يقود هذا المكتب الشهيد المناضل المعروف توفيق منير، الذي عانى في زمن حكم النظام الرجعي في العراق أقسى ما يمكن من الاضطهاد، وابتدأ عهد التسفيرات للشيوعيين بتسفيره مع كامل قزانجي المحامي اليساري المعروف، والذي اغتاله القوميون في حركة الشواف، آذار1959، وكان توفيق منير من المحامين المشهورين الذي تبنى وقاد المكتب بكل احتراف وموضوعية، للدفاع عن آلاف الشيوعيين واليساريين الذين حاكمتهم محاكم عبد الكريم قاسم العرفية، المحكمة العرفية الأولى بقيادة الضابط شمس الدين عبد الله، المعروف بمعاداته للشيوعية والديمقراطية، والذي زج ظلماً وعدواناً مئات الشيوعيين بدون وجه حق في السجن.

شكلت هذه المحاكم بالإضافة إلى المحكمة العسكرية الخاصة لمنتسبي الجيش العراقي بعد أن تراجع قاسم عن تعاونه مع الحزب الشيوعي، استغل الزعيم عبد الكريم مناسبة خطيرة في تأريخ العراق وتأريخ الحزب الشيوعي العراقي، التي شكلت خطأ جسيماً في ممارساته الفوضوية، منشقاً مع الجماهير الغاضبة والمنفلتة في كركوك بمناسبة ثورة تموز عام 1959 حيث قتل وسجن العديد من التركمان الذي اعتبرهم الأكراد والشيوعيون من المعادين لثورة تموز، استغل قاسم هذه المناسبة ليهاجم سياسة الحزب الشيوعي داعياً إلى مكافحة

الفوضى، التي تسبب بها الحزب متهماً إياه بالجرائم المرتكبة بحق التركمان في كركوك.

بعد ذلك الخطاب الذي ألقاه قاسم في افتتاح كنيسة ماري يوسف، بدأت مطاردة الشيوعيين وزجهم في السجون والحكم على المئات منهم بأحكام ثقيلة، لاتهامهم بقتل الأبرياء والتعدي على حريات المواطنين، دخلت المحكمة العسكرية الخاصة للدفاع مع المحامي المعروف وأحد المسؤولين الكبار في لجنة الدفاع عن حريات المتهمين من الشيوعيين واليساريين، وكانت أول مرافعة لي في حياتي القانونية أمام المحاكم، وكان المتهم فيها أحد معارفي القريبين مني وجاري في مدينة النجف الأشرف (جابر الصراف)، الذي كان في خدمة الاحتياط مع مجموعة من أقرانه، الذين اتهموا بمحاولة العصيان للأوامر وبث المبادئ الشيوعية بين الجنود، والتي حرّمها قانون عبد الكريم قاسم حين ارتدَّ عن مبادئ الثورة، وبدأ يمد يده للعناصر اليمنية، التي تآمرت عليه وأطاحت بنظامه في انقلاب شباط 1963.

دخلت المحكمة وأنا في غاية الأناقة ببدلتي السوداء، وكنت عامداً في ارتدائها لأن الهيبة مطلوبة في مثل تلك المناسبة، حيث يحترم العراقيون عموماً والرسميون العاملون في المحاكم ودوائر الدولة المظاهر أكثر مما يحترمون الثقافة والعلم لمن لا يظهر بمظهر محترم في لباسه وكانت البذلة والرباط من مستلزمات تلك الهيبة المطلوبة.

تحدثت لأول مرة مخاطباً الضباط الحكام الثلاثة، وكان رئيسهم برتبة عميد والاثنان الآخران برتبة عقيد، وأدنت التهم المنسوبة لموكلي جابر وزملائه معتبراً أن التهم كيدية للإساءة إلى اليساريين العراقيين، الذين دعموا الثورة ونظام عبد الكريم قاسم بكل وسيلة وكان جزاءهم بعد أن أعلن قاسم معاداتهم إلحاق التهم الكاذبة بحقهم.

أجّلت المحاكمة لشهرين، وطلبت إطلاق سراحهم بكفالة فاستجاب رئيس المحكمة لطلبي، وحين قابلت صديقي جابر خارج المحكمة نصحته بكل صراحة أن يهرب ويترك العراق إذا أتيحت له الفرصة، لأن التوجه الحكومي آنذاك يقضي بسجنه ورفاقه، استجاب صديقي وهرب خارج العراق ناجياً بنفسه وإلا كان مقامه السجن أو القتل بعد انقلاب 8 شباط 1963.

ولعل من أجمل الذكريات التي أحتفظ بها لتلك البذلة المهمة في حياتي ارتدائي إياها في مناسبة عزيزة على قلبي، حين لبَّيت دعوة صديقتي (لود ميلا) لمشاهدة والاستماع إلى أوبرا (عايدة) في المسرح الصغير (مالي تياتر)، وكان حبي للأوبرا بدأ يتملكني منذ تعرّفي إلى صديقي عزيز أبو التمن، ذلك الإنسان الطيب والذي يكبرني بعشر سنوات، ولكن عودته إلى كلية الحقوق كانت بعد أن بذر أمواله في ملاهي أوروبا، ملاحقاً الشقراوات عاد بخفي حنين إلى الدراسة، التي تركها منذ سنوات ولا أدري ما الذي جمعني به وتمكنت صداقتنا من نفوسنا بقوة.

فكنا لا نفترق صباحاً مواصلين الدراسة وفي المساء كنت أصاحبه إلى داره لاستماع الموسيقا الكلاسيكية والأوبرا بالذات التي أحب سماعها بصوت عالٍ جداً.

في البداية كنت نافراً من تلك الأصوات الغريبة على مسمعي، ولكني مع الزمن بدأت أستمتع بالأوبرات لأنها تتميز باللحن والغناء الحزين، المعبر عن المآسي الدرامية والتي تتكامل مع شخصيتي التي نشأت في وسط الحزن الكربلائي معبرة عن مكامن الألم والمعاناة، التي تتطابق وتنسجم مع أحداث الأوبرا الحزينة كأوبرا عايدة ومأساة بطلتها الأثيوبية، التي أحبت القائد المصري ومتنكرة لوالدها والنهاية المأساوية لذلك الحب.

لم تكن معرفتي بالموسيقا الكلاسيكية وتنوعاتها، الأوبرا والبالية، تينك النوعين الأسهل على الهضم والتعرّف إلى التفاصيل المختلفة الأحداث، كبحيرة البجع وشهرزاد وغيرها من الباليهات خصوصاً التي أنتجها الموسيقار الكبير (جايكوفسكي)، وكانت بحيرة البجع من أوائل الأسطوانات التي اشتريتها واستمعت إليها في بغداد، ولكنني لم أكن مشدودا إلى الموسيقا الكلاسيكية في البداية؛ بل كنت أهوّم في عوالم بعيدة عن سماعها، حتى اعتدت مع الزمن على تذوقها خصوصاً السيمفونية التاسعة لبيتهوفن واقتنعت بأن تلك الموسيقا المعقدة الألوان والألحان والصادرة عن عشرات الآلات الموسيقية لا يمكن فهمها، ولا سيما نحن الذين اعتدنا على الموسيقا الشرقية ذات النصف حرف في السلم الموسيقي، فكلما استمعت أكثر ارتبطت بذلك الفن الرفيع أكثر.

لكن الأوبرا ولا أدري قد أكون على خطأ أم صواب وجدت فيها ضالتي، تلك الأصوات والحوار بلغة (الباص والسوبرانو) والمعبرة عن مأساة، كنت كلما أستمع إليها تطوف بي الأحزان وتنقلني إلى مدينتي المعمرة بالحزن والأسى.

كان صوت (الباص) للمغنين ذا أثر قوي عليَّ، وأحيانا أتجاوز في انسجامي مع تلك الأصوات إلى درجة البكاء، ومن الأصوات التي أحببتها لصاحب صوت (الباص) والمغني المشهور (شلابن).

دخلت مع لودميلا ذلك المسرح الجميل المليء بالأضواء الساطعة وبالثريات الكبيرة، وكان يشبه (البولشوي تياتر) ولكنه أصغر مساحة واستيعاباً للمستمعين والمتفرجين، كان المسرح مرتباً ومنسقاً على هيئة مستديرة في الطابق الأول وفي الطابق الثاني تقع (اللوجات) التي تدور مع البناء تلك (اللوجات) أو المقصورات الفخمة بأثاثها وبديكورها الجميل، وبدا لي أنها كانت لكبار القوم في العهد القيصري.

كانت أوبرا عايدة لروسيني معروفة لدينا تاريخياً ألَّفها ذلك الموسيقي العبقري وتم عرضها في افتتاح قناة السويس، في دار الأوبرا في مصر في عهد فؤاد الأول الذي صرف أموال الخزينة لإقامة دار الأوبرا، والحفلات الباذخة وكان هدفه إعطاء صورة عن مصر الحديثة التي لا تختلف عن أوروبا ذلك الزمان، في القرن التاسع عشر.

كانت سهرتي الأولى مع صديقتي (لودميلا) بعد أن عرفتني إليها زميلتي في قسم القانون الدولي (تامارا)، وكانتا صديقتان منذ عهد الدراسة الأولى في كلية القانون بجامعة لينينغراد، وبعدها تقدمتا للدراسة العليا، دخلت تامارا قسم القانون الدولي الخاص، والذي انتميت إليه لإكمال دراستي، بعد تعرّفي إلى زميلتي قدمتني في إحدى المناسبات في محاضرة عميد الكلية في نظرية القانون وكان العميد مشرفاً على (لودميلا)، وهي بمثابة السكرتيرة في تلك المحاضرة وبعد الانتهاء من المحاضرة عرفتني زميلتي إليها.

تمعنت بلودميلا جلياً فوجدتها مليحة إلى حد كبير شقراء بوجنتين ورديتين وقامة رشيقة بامتلاء، كانت تتمتع بكاريزما محبوبة ويبدو عليها التواضع فلم أجد مانعاً من التعرّف وتعميق علاقتي بها، خصوصاً كنت بحاجة إلى المساعدة في اللغة الروسية وتصحيح أخطائي في كتابة رسالة الدكتوراه، في الواقع امتزجت المصلحة مع الاستلطاف في تلك العلاقة، التي أسميتها في البداية (البركانية) بعد تلك الليلة في المسرح أخذت علاقتنا تقوى وتتعمق إلى مديات كبيرة.

كانت الكلية التي انتميت إليها كلية القانون تقع في (سمولينسك)، ذلك المكان التاريخي المهم في تاريخ روسيا الشيوعية، فمن هذا الموقع بالذات انطلقت الجماهير العمالية والفلاحية مع جماهير الجنود بقيادة تروتسكي المخطط والقائد الأول للثورة الروسية والتي كان على رأسها (لينين)، وبعدها تحولت المباني القيصرية في (سمولسنك) إلى مقر

للقيادة البلشفية، وكانت في سني دراستي مقراً لفرع الحزب في لينينغراد التي خصصت إحدى البنايات التابعة للقيادة الحديثة لكلية القانون والتي كانت سابقاً مقراً لدراسة الطالبات في مدرسة الراهبات القيصرية.

يقع في مقابل الكلية بناء طويل ومرتفع السياج يعلو على قامة الرجل بعدة أمتار، كنت أتساءل لمن يعود ذلك البناء المليء بالحركة الدائبة دخولاً وخروجاً نساءً ورجالاً في مختلف أوقات النهار والليل.

وكان أولئك البشر بسمات تكاد أن تكون معبرة عن غضب وحقد صامت وقيل لي إنها حسب الإشاعات تخص المخابرات الروسية (KGB)، وكانت كليتنا وتلك البناية متواجهان ولكن شتان بين الأهداف، كانتا تقعان على شاطئ نهر النيفا العريض جداً.

وكان القسم الداخلي الذي تعيش فيه صديقتي بالقرب من الكلية وهي بناية كبيرة، كانت من ضمن البنايات الامبراطورية القيصرية بقاعاتها، والتي ضمت أكثر من عشرة طلاب يسكنون في كل منها بل يصل العدد أحياناً إلى عشرين طالباً، ولكن أضيف جناح صغير لطلبة الدراسات العليا تسكن في غرفه الصغيرة طالبتان في كل وحدة من الوحدات المبثوثة بانتظام في ذلك الجناح، مع كافتيريا لتغذية الطلبة، تلك المطاعم الصغيرة (كافتيريات) في جميع الأقسام الداخلية للطلبة الروس، وكان السكن في تلك المجمعات مجانياً لجميع طلبة الكليات العلمية والإنسانية ومن ضمنهم نحن الطلبة الأجانب.

وأخيراً تأبطت رزمة البذلة متوجهاً إلى محل بيع ورهن الملابس، وكنت في حالة من الحزن لمفارقتي تلك القطعة التي تدعى بذلة، وكم صاحبتني وصاحبتها في مناسبات مفرحة وحزينة ومهمة، وها آنذاك أوشك على مفارقتها ولا أعلم من سيرتديها بعدي، لا يعرف الإنسان

أهمية البذلة أو الرباط الذي يرتديه، ومن أهداه له، وهو منغمس في ارتدائه، ولكن حين يبيعه لحاجته للمال سيجعله يتفكر بدوران الدنيا وكيف يضطر الإنسان نظراً للحاجة الملحة للمال أن يفرّط ببذلة عزيزة عليه، والتي أهداه إياها والد أو والدة أو حبيب أو حبيبة، وهنا تتجلى لوعة الذكرى لفراق هذه الأشياء العزيزة.

كان مبلغ البذلة (150) روبلا، وهذا مبلغ يعتبر كبيراً في تلك السنوات من وجودنا في الاتحاد السوفيتي، لو علمنا أن راتب الطبيب كان لا يتجاوز الـ (90 روبلا)، وقدرت بأن هذا المبلغ مع الراتب الذي استلمته بعد عودتي سوف يتكفلان بإعاشة أخي القادم من لندن.

في اليوم الثاني خرجت مع (عول وكاميران) لاستقبال سليم في الميناء البحري الذي لا يبعد عن القسم الداخلي الذي أعيش فيه سوى مئات الأمتار، وقفنا نراقب الباخرة القادمة وهي تقترب بتؤدة نحو الميناء وانعكاسات الشمس على سطحها تولد أطيافاً مختلفة الألوان والأشكال للبشر والمعدات المنتشرة على سطحها، لمحت من بعيد شكل شقيقي ولوحت له بيدي فاستجاب ولوح لي هو الآخر، فرحت بمقدمه كثيراً بالرغم مما تسبب في فراقي المفاجئ لتلك الصبية التي منحتني لوقت قصير أجمل ما سعدت به في حياتي.

اصطحبته إلى نزلنا البعيد المليء بالطلبة والطالبات الروسيات والأجنبيات مما يلفت النظر لذلك الاختلاط بين الجنسين في دار واحدة، بل في غرف متجاورة للطلاب والطالبات وكم مرة حصل فيها اشتباه معي بين الغرف لأدخل بشكل مفاجئ وأنا ساهٍ عن دنياي، إلى الغرفة المجاورة لغرفتي فتستقبلني صرخات الفتيات المذعورات وكن شبه عاريات من دخول رجل بدون استئذان فأطلب العفو للخطأ غير المتعمد وسرعان ما أحصل عليه.

كان القسم الداخلي الذي عشت فيه مع عول وكاميران، يتكون من أربعة طوابق يعيش فيه حوالي 500 طالب وطالبة يحتل مساحة واسعة مربعة في الحي الأنيق الذي عشنا فيه، والذي تحيطه الأشجار من كل جانب، كما أنه تجاورَ مع مقبرة كبيرة يدفن فيها من يوصي بالدفن لأن الروس يفضلون حرق جثثهم بعد الموت في بناية تبعد عن المقبرة تدعى (كليماتوريا)، وكنا حين تشرق الشمس في الصيف نذهب مع صديقاتنا إلى تلك المقبرة الكثيفة الأشجار، والتي تزهو بخضرتها اليانعة لاكتساب بعض الدفء من الشمس المشرقة، والتي تظهر قليلاً في سماء لينينغراد.

وضعت برنامجاً لزيارة شقيقي للتجول ورؤية أجمل الأماكن التاريخية والطبيعية في تلك المدينة الرائعة والمشهورة عالمياً بتراثها الكبير، وتأريخها المعروف منذ أن بناها بطرس الأول أعظم قيصر حكم روسيا، كما استطعت توفير بعض البطاقات لزيارة المسارح الواقعة في المدينة والتي تكاد لا تتوفر في لندن، بالنظر لغلاء بطاقاتها ومنها مشاهدة بحيرة البجع في (المالي تياتر)، ومسرحية الأمير الصغير في مسرح آخر.

حدثني شقيقي عن جمال الرحلة التي استغرقت أربعة أيام في البحر ولقائه فتاة سويدية جميلة قضى معها بعض الوقت، واستطاع أن ينال منها ما يشتهيه وهو المعروف بزير النساء، وكم رقص معها في الليالي وتمتعا لثلاثة أيام بالجولة البحرية حتى مغادرتها في هلسنكي قبل وصوله روسيا، وأسفه على مغادرتها السريعة.

وضعت منهجاً لعدة أيام حاولت من خلاله أن أطلع أخي على معالم هذه المدينة التي أبهرت العالم ليس بجمالها فحسب، بل بما شاهدته من أحداث تاريخية مهمة في حياة روسيا والعالم، إنها مدينة لينينغراد التي كانت تسمى باسم بانيها قبل 300 عام بطرس الأكبر كانت تسمى (بطرسبرج) أي مدينة بطرس.

كان هذا القيصر هو باني تلك المدينة وصرف عليها أموالاً كثيرة لكي يضعها موضع المدافع والمهاجم أمام الجحافل السويدية، التي هددت روسيا في ذلك الوقت، والمدينة عبارة عن مستنقعات منتشرة في ذلك الفضاء الكبير اضطر بطرس أن ينزع الذهب من قباب الكنائس المنتشرة في بقاع روسيا الواسعة مما أثار ضده رجال الدين الإقطاع حتى بلغ الأمر أن ولي عهده تآمر عليه مع تلك القوى المتحالفة ضده، فاضطر إلى سجنه، كل ذلك من أجل إن يبني تلك المدينة الخالدة.

يعتز الروس بذلك القيصر بالرغم من قسوته وعجرفته إلا أنه قدم للروس الكثير في بناء روسيا وإقامة صرح المدينة (بطرسبرج)، أقام الروس وفاء لذلك القيصر تمثالاً رائعاً يقع إلى جانب فندق (أستوريا)، في ساحة كبيرة وهو يمتطي حصاناً يقف على قائمتيه الخلفيتين وهو في لباس فارس شامخ ينظر إلى أفق روسيا الواسع أمام محاولات المحتلين السويديين، وهذه المدينة يا أخي سليم، الذي كنت أحدثه عن تأريخها ونحن في طريقنا إلى زيارة أعظم صرح فيها، وما أكثر الصروح في هذه المدينة المنتشرة على 200 جزيرة تملك من التراث كثيرا، والذي يشرّف الروس، كانت هذه المدينة موقعاً لثورة البلاشفة التي قادها لينين في السابع من نوفمبر ليبني بلداً اشتراكياً كبيراً ممزقاً بذلك وحدة العالم الرأسمالي، ومنهياً سطوة وسلطة القياصرة وسميت هذه المدينة باسم ذلك القائد الفذ (لينينغراد) كما سميت باسم بطرس الكبير مؤسسها وبانيها.

هذه هي المدينة في بعض ملامحها وتسميتها ونحن سوف نذهب الآن إلى زيارة أكبر صرح فيها الذي كان المقر الشتوي للقياصرة، والذي تحول إلى متحف كبير ساعدت في إنشائه وتكبيره القيصرة (كاترينا الثانية)، التي جمعت واشترت التحف الأثرية واللوحات الفنية من كافة أنحاء العالم المعروف بحضاراته، حضارة الفراعنة وحضارة السومريين

والبابليين والحضارات الإسلامية المختلفة من أموية وعباسية وعثمانية، جامعة بذلك آلاف الرموز لتلك الحضارات لتعرض في متحف (الأرميتاج) الذي يحتوي على ألف قاعة وقاعة.

كان المتحف المشهور عالمياً أرمثاش والذي يُعد في مصاف متاحف لندن، برلين، واللوفر، أول الأماكن التي قررت أن نزورها مع شقيقي نظراً لأهمية هذا الصرح وعظمة ما يحوي من تحف نوادر ومن آثار محلية وعالمية.

كان أول ما يلفت النظر قبل دخول المتحف (الأرميتاج) بنايته الفخمة والواسعة، والتي بنيت بإشراف وتخطيط المهندسين المعماريين من إيطاليا، وجاءت كما يراها الزائر تتشابه مع البنايات الايطالية المعمرة التي بناها الرومان إبان عظمتهم، وكان مما يلفت النظر عشرات التماثيل العملاقة ذات الشكل والنسق الواحد وهي تحمل فوق رؤوسها رمزياً ذلك البناء الضخم معبرة عن قوة هائلة تشير إلى عظمة الامبراطورية القيصرية.

حدثت أخي عن أن الزيارة الواحدة لن تكفي مطلقاً لزيارة متحف يضم ألف قاعة بما تحتويه من آثار حضارية من الشرق والغرب تمتد إلى آلاف السنين، وأخبرته بأننا خلال سني الدراسة نظمت الجامعة لنا أكثر من ثلاثين زيارة (أكسكرشن) للتعرّف إلى الحضارات المبثوثة في تلك القاعات الكبيرة، ذكرت له قبل تجولنا حقيقة مهمة في تأريخ الثورة البلشفية، كان الثوار بقيادة تروتسكي دخلوا القصر الشتوي الذي هو متحف (الأرميتاج) بدون مقاومة تذكر، ولم يسلب أو يسرق أولئك العمال والجنود الجائعون والهاربون من صفوف الجيش المحارب في الحرب العالمية الأولى. لم يمدوا أيديهم لسرقة أية تحفة أو أثر من تلك الآثار الحضارية.

ولهذه الحقيقة أهمية تدل على نظافة الثورة والمساهمين فيها الذين وضعوا نصب أعينهم بناء دولة تتعم بالحرية والمساواة والتكافل الاجتماعي، والقضاء على ظلم الحكم الإقطاعي المتخلف، أولئك الكادحون الذين عانوا من مظالم وأزمات كثيرة في ظلال الحكم القيصري المتخلف من الحضارات الأوربية المتقدمة.

دخلنا المتحف العظيم الذي كان دخوله آنذاك بدون بدل نقدي ونحن نتلفت يمنة ويسرة، باحثين في تلك القاعات العالية والمليئة بالتحف الأثرية ونحن نتمعن قبل كل شيء في التحف المتدلية من أعالي القاعات، من الكريستال المطعم بأنواع الأحجار والزخارف التي تؤطر النوافذ الكبيرة والطويلة والممتدة من أعالي البناء حتى أرضيته، وتلك الألوان البهيجة للجدران مما يزين ويجمل الآثار التي تربض متحدثة عن حضارات عظيمة عرفتها البشرية قبل آلاف السنين وقبل أن تتمكن روسيا من بناء امبراطوريتها.

قلت لأخي لا نستطيع سوى أن نرى بعض الموجودات في هذا المتحف ففيه ما لا يغطى بعشرات الأيام من المشاهدة، ولنقتصر على حضاراتنا العراقية، السومرية، الأكدية، البابلية، الآشورية، فهنا يربض الثور المجنح باسطاً جناحيه ليحرس المتحف وكان في عنفوان الدولة الآشورية يحرس ممتلكاتها من غزو الطامعين.

وفي جانب آخر نرى سرجون الأكدي أو شبيهه ينظر إلينا نحن أبناء تلك الحضارة بعينيه الواسعتين معبراً عن عجبه بوجوده في روسيا، بدل المتحف العراقي شاكياً لنا ظلم الزمان حاكياً حكاية التخلف الذي جعل علماء الآثار الحرامية يسرقونه مع تماثيل وتحف أخرى يزينون بها متاحفهم بعيداً عن مراكز الحضارة العراقية التي أغنت حضارات العالم بعلمها وفنها ومبتكراتها المعروفة آنذاك.

وفي أثناء تلك الجولة لاحظت أخي وأنا أتمعن في ثنايا وخبايا تلك المعروضات العراقية أن أخي كان يكلم إحدى الفاتنات الروسيات وهي تبتسم لكلامه غير المفهوم، أشار لي أن أعينه على الترجمة، وكان أخي في كامل حلته من بذلة أنيقة ورباط حريري ونظارات يتحكم بها على عينيه بحركة أرستقراطية تجلب أنظار المتفرجين.

تقدمت إلى تلك الفاتنة وعرفتها إلى أخي القادم من لندن لزيارة (لينينغراد) وكان أخي معروفاً بغزواته النسائية أينما حل في أسفاره وتنقلاته، كنت مترجماً جيداً لغزل سليم وهو يحدث تلك المرأة واسمها (تانيا) فهي تستجيب لغزله، فالروسيات والروس عموماً معروفون بتواضعهم وروحهم المنفتحة للصداقة والتعارف.

استمر الحديث بين سليم وتانيا وأنا وسط معمعة ذلك الغزل اللطيف وقتاً طويلاً أخذنا بعيداً عن مشاهدة هذه الآثار الحضارية لبلدنا.

قلت له: ماذا تفعل يا أخي؟ النساء موجودات في كل مكان وأنا أعرف صديقتك (يونس) تلك الفتاة الجميلة وقبلها الألمانية (أيزا) فماذا دهاك؟ وأنت متحمس للتعرّف إلى فتيات هذا المتحف العظيم.

أجابني ساخراً: أي متحف أجمل من تلك التحفة البشرية الواقفة أمامنا وهي تبعث بموجاتها المغناطيسية الأنثوية التي تسحر كل من يملك عاطفة، بجمال عينيها ورشاقة جسدها ورقة وعذوبة كلامها.

قلت له: يا أخي أهكذا سريعاً تقع في الحب؟ ضحك وقال: دعنا نستمتع بكل ما تمنحه الدنيا لنا من عطايا وفي مقدمة تلك العطايا النساء الفاتنات.

بعد تجوالنا لعدة ساعات خرجنا واصطحبنا الفتاة الروسية الجميلة تانيا إلى أحد المطاعم القريبة في شارع نيفسكي التاريخي لتناول الغداء،

قضينا وقتاً مسلياً مع تانيا وأنا أقوم بالترجمة، ولكن نظرات الإعجاب بين أخي وصديقته الجديدة لا تحتاج إلى ترجمة، فكانا يتبادلان النظرات المعبرة مع ابتسامات مشجعة لإدامة تلك العلاقة الجديدة.

اتفق أخي مع تانيا على اللقاء في اليوم التالي وهي فرحة بذلك، حتى إنها وعدته بأن تخرج معه للنزهة الليلية على ضفاف نهر النيفا، الذي تتجمع على شاطئيه صبايا وشباب من كل الأجناس يحيون ليالي لينينغراد البيضاء.

في مساء ذلك اليوم الثاني من الزيارة تبرع صديقي كاميران لتقديم طبخته المشهورة لدينا (البرياني)، وكان صديقي المذكور من أقرب من عرفتهم إلى قلبي في تلك الفترة، وهنا سوف أتوقف مرات للحديث عن علاقتنا التي دامت سنين طويلة ذلك الكائن العجيب والغريب في عواطفه وميوله الإنسانية والاجتماعية والسياسية.

تبرع (عول) صديقي وشريكي في الغرفة التي نتقاسمها في نزل الطلبة بالمشروب لإحياء الليلة احتفاءً بأخي، أحضر لنا قنينة شمبانيا، وبعض قناني الفودكا والواين وكانت الشمبانيا منتشرة في أصقاع روسيا، ولا يزيد سعرها عن سعر قنينة الفودكا أي (3روبلات) التي لا تساوي 500 فلس عراقي، فما أرخصها وأسعدنا بالشمبانيا، جلسنا نحن الأربعة حول الطاولة وسط الغرفة، تلك الطاولة التي كنّا نستخدمها مرة لتناول الطعام ومرات لإقامة مثل ذلك الحفل وفي أغلب الأحيان كنا نستخدمها لغرض الدراسة والتحضير.

رفع عول الكردي الوفي كأساً ودعا لشرب نخب في صحة أخي سليم ورفعنا الكؤوس، وتعانقت كؤوسنا على الطريقة الروسية لتحدث صوتاً موسيقياً جميلاً يليق بكؤوس الكريستال التي كنا نحفظها لمثل تلك المناسبات خصوصاً عندما نستضيف صديقاتنا الروسيات.

أخذنا نتحدث ونثرثر في شتى المواضيع عن المدينة وعن أهلنا في العراق، وكان سليم يحدثنا عن حياته في لندن وعن صعوبة المعيشة وغلاء الأسعار مقارنة بأسعار المعيشة في روسيا، واستمر الحديث بعض الوقت وفجأة سمعنا طرقة خفيفة على باب الغرفة فأجبت الطارق بالدخول وكانت المفاجأة الغريبة حضور لودميلا غير المنتظر، فلم أكن قد أخبرتها بوصولي، كما كنت أحذرها من المجيء بدون إنذار.

رحبت بها وقدمتها إلى أخي سليم جلست معنا، وأنا في حالة تردد من استقبالها وبان ذلك على محياي وبرودة الاستقبال، التي جعلتها تطيل النظر في كل منا نحن الأصدقاء الثلاثة، متسائلة في نظراتها عما حدث ليكون استقبالي لها بهذا البرود، وهي التي تعودت على العناق في مثل تلك اللقاءات، كنت في حالة ذهول من وجودها وكأني أعرفها لأول مرة، تلك المرأة التي عاشرتها لمدة أربع سنوات، وكأنني لم أعرفها وأقضي معها أوقاتاً جميلة، كنت أصارع نفسي لإبداء بعض الود لها، وأنا أعلم سبب ذلك البرود الذي طغى على لقائنا.

سرحت بأفكاري لأستعيد شريط اللقاءات الحميمة بإيزيس، التي حلت محل هذه المرأة ومسحت بتلك السرعة جميع تلك الليالي الحارة والعناق، والوصال الجنسي مع هذه المرأة الطيبة القلب.

كنت منذ اللقاء الأول أعلمتها بأن علاقتنا لن تدوم إلى الأبد فليس بنيتي الزواج منها، ولكنها طلبت أن نبقى أصدقاء ما دمت مستمراً في الدراسة حتى نهاية إقامتي، لم أمانع باستمرار تلك العلاقة، ولكني ماذا سأفعل الآن ولم يبق لها في قلبي شيء يذكرني بالصداقة أو الحب أو الاشتهاء لمضاجعتها، هل حقاً أصبحت تلك الذكريات والحكايات التي كنا نتبادلها ونحن في سرير النوم، والسفرات المشتركة إلى المدن القريبة من لينينغراد، مدينة بوشكين، زيلينا گورسك، وغيرها من المناطق الخضراء وحياتنا المشتركة في (داچة) أصدقائنا في الصيف الماضي.

سرحت مع الذكريات مستعيداً لقائنا الحميمي الأول حين دعتني ليلة رأس السنة 1962 لعيد ميلادها الخامس والعشرين، والذي يصادف ليلة الأول من السنة الجديدة، فرحت لتلك الدعوة ممنياً نفسي بليلة من ليالي الحب والجنس مع غادة جميلة.

دخلت غرفتها الواقعة في الطابق الثاني من بناية القسم الداخلي التابع لكلية القانون، كانت تدرس في قسم نظرية القانون وتهيئ نفسها للحصول على شهادة الدكتوراه، اصطحبت معي قنينة كونيال فاخرة وزجاجة عطر تسمى (8 آذار) استقبلني عند الدخول مع لودميلا مجموعة من المحتفلين معها كانت نيلا وزوجها بيتر، وكان بمفرده صديقي في قسم القانون الدولي فاليري وأشخاص آخرون، قدمتني لهم وهي فرحة بحضوري، شربنا جميعاً كأساً من الفودكا احتفاءً بعيد ميلادها الخامس والعشرين، وبدأنا الرقص والطرب مع تناول كؤوس المشروبات المختلفة، حتى حلول الساعة الثانية عشر المعلنة عن نهاية عام حمل معه ما يمكن أن يجمعه من حياتنا، وحلول عام جديد يتفاءل الناس بحلوله ناسين أن سنة كاملة من حياتهم انسلخت بدون رجعة لا يمكن تعويضها أبداً.

كانت السهرة صاخبة على الطريقة الروسية تحمل في طياتها مظاهر الفرح والأنس الذي تخلفه في النفوس كؤوس الفودكا الروسية التي يبتلعها الروس لتصب في أفواههم كما تصب القربة في الحوض، وبهذه الطريقة الغريبة والتي اعتدنا عليها وهي إفراغ الكأس مرة واحدة دون ابطاء وإلا فشاربها بالتدريج يُعد جباناً رعديداً، أي قناعة في مثل تلك الطريقة الغريبة في شرب الخمرة؟

انتهت الحفلة تقريباً في الساعة الثانية صباحاً بعد أن تعب الجميع من الغناء والرقص وشرب الفودكا والكونال، وبدأوا للملمة أنفسهم

مرتدين معاطفهم الثقيلة لمواجهة برد روسيا في شهر كانون الثاني، الذي تبلغ فيه درجة الحرارة ما يقارب الـ 15–20 درجة تحت الصفر.

مرَّت تلك الذكرى وأنا ساهٍ عن الحضور ومنها ولم أستطع مجاملتها والطلب إليها بالبقاء حين قررت الخروج، حتى إنني لم أستطع اصطحابها إلى الباص القريب من القسم الداخلي، فقد كنت أصطحبها دائماً لأودعها عند باب الباص الذي يأخذها إلى قسمها الداخلي.

عجبت من أمري كما عجب لذلك كاميران وعبد الرحمن وأخي سليم من برودي بل فكروا بأنني قمت بطردها بذلك السلوك الغريب في علاقتنا وهما يعلمان سرّ العلاقة الحميمة بيني وبين لودميلا، فكم مرة استبقيتها معي في سريري لقضاء ليالٍ عديدة نتبادل فيها سكرات الغرام حتى ساعة متأخرة من الليل.

حسبت أنها كانت بداية الهجران لتلك المرأة الجميلة والتي حملت لي في قلبها كثيرا من الحب، ولكن ما حدث في (جايكا) موطن الحب الجديد أنساني زمناً من الوصال والعشرة الطويلة.

في اليوم الثالث اصطحبت أخي سليم إلى قلعة (بيتروبافلفسك) الصرح التاريخي الذي أعده بطرس الكبير مقراً لجنده، وكانت القلعة الممتدة الأطراف على نهر النيفا العريض تشكل المركز الأول لخطوط الدفاع الروسية أمام الجنود السويديين، كانت القلعة تحتوي على غرف كثيرة تكاد أن تكون عارية، وكان يزينها من الخارج برج ذهب يرتفع إلى أكثر من عشرين متراً، ومما يذكر بشأن ذلك البرج الذهبي الشاهق أن الحكومة خشيت عليه من الألمان الذين حاصروا لينينغراد لمدة (900 يوم) فطلبت من متسلقي الجبال أن يغطونه بقماش رمادي لإخفائه عن طائرات وعيون الألمان المتربصين خارج مدينة لينينغراد.

وبالفعل نجا كما نجت المدينة من السقوط في ربقة الألمان المحتلين

في الحرب العالمية الثانية، شرحت لسامي بعض الأمور التاريخية عن القلعة وكيف حولتها الحكومة القيصرية إلى سجن رهيب للمعارضين السياسيين للقيصرية، وكانت زنازينها تشبه زنازين سجن الباستيل الفرنسي، ويذكر أن العديد من الشخصيات الأدبية سجنت في هذه القلعة منهم (الكاتب دوستويفسكي) والروائي مكسيم كوركي صاحب رواية الأم والديسمبريين وهم من العسكر الذين تمردوا على القيصر، سجنوا في القلعة قبل إعدامهم، بعدها ذهبنا لزيارة السفينة التي أطلقت القذيفة الأولى في ثورة أكتوبر الاشتراكية معلنة بداية الثورة وهي البارجة (أفرورا) والتي كانت تقبع منذ عام 1917 في مرفئها الذي لا يبعد كثيراً عن قلعته (بيتروبافلفسك) على شاطئ نهر النيفا العريض، كانت السفينة تلمع تحت ضياء الشمس بلونها الرمادي الذي تكتسي به جميع السفن السوفيتية، وهي مجموعة ضخمة من الحديد تربض كوحش كاسر وسط ذلك النهر العريض والجميل لتذكر العالم بما قامت به من دور في الثورة البلشفية، وكانت القذيفة الوحيدة التي أطلقت يوم الثورة لتسقط على القصر الشتوي وبعدها حدثت الأحداث الجسيمة في روسيا.

كنا مساء ذلك اليوم على موعد مع صديقة سليم الجديدة تانيا قرب متحف (الأرميتاج) للتمتع بإحدى ليالي لينينغراد البيضاء، وجدناها في أبهى حلة تنتظرنا في الساعة الثامنة مساءً.

بعد القيام بالسلام وإجراءات المجاملة اقترح شقيقي أن يضيّفنا بدعوة عشاء في فندق (أستوريا) الشهير، فلم تمانع تانيا وسرنا سوية نحو ذك الفندق التاريخي وكان يبعد عن الأرميتاج مسافة قصيرة، في ذلك الشارع القصير يقع مبنى البحرية الروسية القديم بطراز بنائه التاريخي ذي الأعمدة العالية، الذي يميز فترة حكم القياصرة، وبعده بقليل يشاهد مبنى الكاتدرائية الضخم (كاتدرائية بطرس) وهي على نسق كاتدرائية بطرس في روما بعمدانها الشاهقة وتماثيل الملائكة

المبثوثة على جدرانها من الخارج وكانت من أهم الصروح الجميلة في مدينة لينينغراد.

قضينا وقتاً ممتعاً في تناول العشاء في قاعة الفندق الكبيرة وشربنا الشمبانيا والواين الفاخر الذي لا تجده إلا في مثل تلك الفنادق نظراً لغلاء ثمنه، بعدها توجهنا إلى كورنيش النيفا الواسع والذي يمتد عشرات الكيلومترات، وكان في تلك الليلة شأنه في الليالي البيضاء دائماً يضج بآلاف المحتفلين من روس وأجانب والكل في فرح دائم، وتجد من يرقص على عزف الموسيقيين المبثوثين في زوايا ذلك الكورنيش يعزفون ألحانا راقصة غربية وروسية.

وترى الغجر أيضا بملابسهم الملونة يعزفون موسيقاهم السريعة والجميلة مع رقص الساهرين على تلك الأنغام، وترى الكل مشغولا بالطرب والأنس والتمتع بليل لينينغراد الأبيض البهيج الذي يدعونا إلى المشاركة بالرقص والغناء لقضاء ليلة من ليالي العمر الجميلة.

وما أكثر ما قضيت مع أصدقائي من ليالٍ رائعة في السنين السابقة التي مرت بسرعة كالسحاب تاركة في نفسي ذكرى ما اكتنزته من حب لهذه الدنيا.

تركت أخي يسرح مع صديقته الجميلة تانيا يتفاهم معها بالإشارات العالمية، التي لا تحتاج إلى لغة كلغة الحب معروفة للعالم بدون كلام، فهنالك لغة العيون والنداءات الصادرة من قلوب المحبين يعبر عنها بالأحضان والقبل واجتياح أحدهم الآخر بدون كلمات تفصح عن عواطف جياشة.

ذهبت أتأمل ذلك النهر الجميل (النيفا) والذي تمر به السفن الكبيرة المتوجهة إلى الخليج الفنلندي (فينسكي زاليف)، عابرة الجسور المفتوحة في منتصف الليل، تسير تلك السفن متتابعة عبر الجسور في

صف جميل ورشيق معبراً عن عظمة الطبيعة الممثلة بذلك النهر العريض وعظمة الإنسان، الذي طوَّر واستخدم السفن الكبيرة لأغراضه التجارية والسياحية.

كان النهر عريضاً جداً يكاد أن يساوي مرتين عرض نهرنا الخالد (دجلة) كنت أستمتع دائماً بالتمشي على ضفافه، يذكرني بدجلة الذي فارقته والحنين يشدني موجه ولياليه النواسية الجميلة وليالي الجرداغ الرائعة.

بلغت نشوتي أقصاها وأنا استمتع بمظهر النهر وبالليل الأبيض وبالمدينة الخالدة فرحت أتغنى بذلك الجمال معبراً عنه بهذه الأبيات:

أليننغراد يا صرحاً	بطرف الشمس يكتحل
لياليك صباحاتٌ	بلا أنوار تشتعل
زمان العشق في واديك	يشبه طعمه العسل
تعب الحب في نهم	وفي نيفاك نغتسل

حاولت قدر ما أستطيع أن أُطلع شقيقي في هذه السفرة القصيرة، والتي امتدت عشرة أيام كنت معتقداً أنني سأقضيها مع منحة الدهر الذي لم أحلم بلقاء مثلها، أن يزور أهم الآثار الحضارية من فنية وتاريخية وطبيعية في هذه المدينة التي حباها الله كل النعم.

اشتريت بطاقتين في السوق السوداء بمبلغ كبير لحضور (مالي تياتر) المسرح الصغير، الذي كان في هذا الوقت يعرض باليه بحيرة البجع، للموسيقار الكبير جايكوفسكي، وحين أعلمته بما قمت به من حصولي على البطاقتين ضمني إلى صدره فرحاً بهذه المناسبة العزيزة، فلم نكن معه في بغداد بعيدين عن موسيقا بحيرة البجع، وفي كل مرة نزداد شغفاً بها وبمؤلفها جايكوفسكي، وجاءت الفرصة لمشاهدة ذلك الباليه الرائع، لم تكن المرة الأولى التي أشاهد فيها بحيرة البجع،

شاهدتها أول مرة في مسرح (البولشوي تياتر) في موسكو، وعاودت مشاهدتها هناك أيضا فقد كانت تسحرني وتنقلني إلى عوالم حالمة وأنا أرى تلك المخلوقات الإنسية وهي تقوم بالحركات الإيقاعية، وكانت الفتيات منهن بجعات حقيقيات يحاولن الطيران والهروب من النسر الكاسر الذي كان يهدد حياتهن.

كان سليم مسحورا بالمشاهد الاستعراضية والإيقاعية والمنسجمة تماماً مع الموسيقا، ولا سيما الفالس الجميل الذي تشترك بأدائه البطلة مع البطل، وهما في غاية الانسجام ساعة يلتحمان وحين يفترقان يؤديان الحركات بأقدامهما التي تتلوى كما تتلوى الأفاعي الكبيرة، بسرعة مدهشة مع حركات اليدين الطائرة والتي تكاد أن تحلق في عوالم غير بشرية.

أي سعادة تعطي مشاهدة ذلك الباليه، وأي جهود صادرة من المخرجين إلى الراقصين والكورس الموسيقي الكبير لنرى معجزة فنية تعرض أمامنا نحن الذين لم نكن نشاهد سوى شعارات المظاهرات ونحن نهتف بسقوط الحكام، وتلك الرايات الملونة في مواكب الحزن الكربلائية والنجفية، أي عالم متقدم تمثل تلك الباليه في الإخراج والأداء.

إنه الرقص الذي ينشّط العقل والروح ولا يدغدغ العواطف الجنسية التي تثير المشاهدين كما في الرقص الشرقي في ملاهينا البغدادية أو في الأفلام المصرية، إن رقص الباليه الإيقاعي ينقل الإنسان من حالته المتزمتة ليفتح أبواباً إلى عالم فسيح يرى حواري يرقصن ويرقصن، ليمثلن حكايات أسطورية على ذلك المسرح الروسي العريق.

وكنت أحاول أن يتطلع سليم على معالم المدينة التاريخية ففي أحد تلك الأيام ذهبنا إلى شارع (نيفسكي) التاريخي الذي بنيت عماراته ومعالمه الأثرية من قبل أكثر من مئتي عام.

ويقع في ذلك الشارع الذي سمي باسم نهر لينينغراد (النيفا) المعبد الإسحاقي الكبير الذي كان يخص الطائفة اليهودية كما ترى المخازن والبارات والمطاعم المبنية قديماً بالطراز الروسي تزين جدرانها الخارجية التماثيل والرسوم الجميلة.

حين كنا نسير في ذلك الشارع مساء ذلك اليوم حاصرتنا الأمطار الطوفانية، من المزن الصيفية المشهورة بها مدينة لينينغراد، وكنت لا أدري أين نختبئ هرباً من ذلك الطوفان المائي.

تذكرت العائلة التي عرفتني إليها صديقتي نيلا وزوجها بيتر، كانا يعيشان وسط ذلك الشارع في عمارة عتيقة يمتد بناؤها إلى أكثر من مئة عام، والتي كانت تتمتع بجدران مصفحة لا يخترقها الحر والبرد.

طرقت الباب على العائلة الصديقة فخرجت نيلا مرحبة ومتعجبة من تلك الزيارة المفاجئة بصحبة رجل غريب لم تتعرّف إليه من قبل، بعد عملية التعارف مع زوجها اعتذرت لعدم إخبارهما بالزيارة التي حدثت عفوياً بسبب الأمطار الغزيرة التي حاصرتنا وبللت ملابسنا حتى العظام.

أخذت المرأة ملابسنا لتجففها وقدمت لنا شراباً حاراً كان خليطاً من الشاي مع الكونيال الذي بعث الدفء سريعاً في أجسادنا.

بعدها فرشت الطاولة التي تتوسط الغرفة الثانية بشرشف أبيض مزين من أطرافه برسومات روسية جميلة تليق بهذا المنزل التاريخي، وضعت المرأة كل ما كان لديها من المشارب والمآكل، لحوم باردة مختلفة، نقانق، سمك بارد، مع قطع كبيرة من الدجاج. ووضعت زجاجة فودكا وزجاجة كونيال أرمن، رفعت المرأة نخباً بصحة الزائر، أخي سليم، وأخذنا نشرب ونأكل على الطريقة الروسية، الكأس الممتلئ تلو الاخر حتى أوشكنا أن نسكر من كثرة المشروب ولا سيما شقيقي الذي لم

يعتد على تلك الطريقة الروسية، التي لا يشبهها أية طرق في شرب الخمرة في عوالم الغرب والشرق.

كان مضيفانا في غاية الكرم والحبور وهما يحتفيان بنا كأننا أقرب الناس لديهم، تلك كانت إحدى الصفات الروسية في تكريم الضيوف، التي تدل على خلق كريم، قاربت الساعة منتصف الليل فاستأذنت بالخروج وحين كنا في الشارع.

سألني شقيقي جاداً: أخبرني يا حكيم، هل اتصلت بالجماعة سلفاً قبل اللقاء بهم أم إن الأمر كان عفوياً؟

قلت: لماذا تسأل مثل هذا السؤال؟ أجابني: إن مثل ذلك الكرم وتقديم وليمة كاملة بتلك السرعة العجيبة، لا نجد لها مثيلاً في بلد الإنكليز والفرنسيين.

قلت: والله أنا لم أتصل بهم وإنما حاصرنا المطر فخلق لنا ذلك الجو الممتع لدى نيلا وبيتر، تلك الليلة التي بقينا نتذكرها في أيام عيشنا المشترك في كمبردج مع شقيقي.

بعد انتهاء عشرة أيام من المرح والتجوال وزيارة أفضل المطاعم والمتاحف حان موعد السفر فذهبت أودعه في ميناء المدينة ليعود بحراً إلى لندن.

وأنا أودعه جلت في أفكاري وخيالاتي مستذكراً مراحل علاقتي بأخي، التي شابتها في أحيان كثيرة بعض مظاهر النفور والبرود، حتى هذا اللقاء الذي أعاد الحميمية لتلك العلاقة، ولكني لم أكن أتصور أن يقلب أخي الموظف الكبير في منظمة الصحة العالمية، ظهر المجن فيجافيني في زمن الحصار اللعين، وينسى علاقة الدم والإخوة والذكريات الجميلة المشتركة حين كنت مع عائلتي في أقسى الأيام من زمن الحصار، ولا يمد يد المساعدة المادية لنا، وأنا من كنت أقف إلى جانبه في الملمات.

أي قسوة من الدهر اللعين الذي جعل ذلك الأخ يبتعد هارباً مني، ويعلم علم اليقين بحاجتنا للغذاء والدواء في زمن عزّ فيه كل شيء، إنه الحصار الذي أعقب حرباً قاسية كدنا أن نفقد أرواحنا فيها، نظمت هذه الأبيات في تلك الظروف المأساوية، هذه الأبيات التي قلتها بحق إخواني الذين تخلَّوا عني في أحلك أيام البؤس التي مرت بنا :

حطَّ الحصار على ضلوعي كاحليه
فما وجدت وسيلة نحو الشهيق
وأدور في دنيا يلفعها الغمام
تضحُ في أجوائها نذر النعيق
وتظافر الزمن اللعين مع الجحود
فتلفتت عيناي نحو أخي الشقيق
يا ويح قلبي أمحلت دنياه
حام بدربه شبح العقوقِ
رحلت مودة عمرنا هدراً فقد أكلت
عراها رنَّة الذهب المحرم والبريق
هرعوا لجمع المال في سبق غريب
فأتى على أرواحهم لهب الحريق

وتسلَّل المرض الخبيث كجمرة، وبقيت أبحث عن بقايا أخي الشقيق.

عدت بعد توديع أخي إلى نزل الطلبة، وأنا مثقل بأفكار مربكة تحملني إلى خيبات أمل ويأس، فسفر أخي بعد تلك الجولات في المدينة الجميلة، وقرب سفري إلى وطني الذي احترق بحقد الفاشيين، ومازال

يئن تحت ضرباتهم وخيرة من أعرف من أصحابي يقبعون في سجون الحكام العسكريين.

كان وجود صديقيَّ معي في نزل الطلبة خفف ويخفف الكثير من معاناتي، وجدت كاميران وعبد الرحمن (عول) ينتظران عودتي، وهما يحضران لسهرة جديدة بغية التخفيف عن حزني الذي بدا واضحاً، وهما يعلمان أن موعد سفري بات قريباً بعد مناقشة أطروحتي التي حدد لها ما بين أسبوعين وثلاثة أسابيع.

إنها الأيام الأخيرة، تتصرم بسرعة في هذا البلد الذي عشت أجمل أيامي فيه وحصلت على الرعاية والاهتمام من قبل المسؤولين الأكاديميين والأصدقاء الروس، الذين أحاطوا بي كما تحيط العائلة بولدها الصغير، وأنسوني غربتي وتعبي في تعلم اللغة الروسية الصعبة.

جلست مع الصديقين الكرديين وما أغرب ما عرفت ولاقيت في حياتي من مصادفات جميلة بعد خروجي من مدينتي الضيقة الأفق والبائسة، التقيت وأنا في السنة الأولى في كلية الحقوق بأول صديق كردي امتدت صداقتي به فترة الكلية حتى خروجي من العراق للدراسة في الاتحاد السوفيتي كان ذلك الإنسان الطريف والجميل المحيا والأخلاق هو تحسين برواوي، الذي عرفني إلى مجموعة من الأكراد يدرسون في كليتنا (الحقوق) وفي المعاهد والكليات التابعة إلى جامعة بغداد ومنهم أمير حويزي، بابا طاهر، كمال قره داغي وآخرين، ومن كلية دار المعلمين العالية عز الدين رسول، كمال مظهر ونعمان بابان.

قضيت مع أولئك الأحباب أجمل الأوقات من سهر في منتديات ومقاهي وبارات بغداد ونشاط سياسي متنوع كالمشاركة في المظاهرات الوطنية كمظاهرات عام 1956، المؤيدة لنضال الشعب المصري وفي السفرات السياسية خصوصاً تلك السفرات، التي نظمناها لتحية

وتخليد عيد نوروز ذلك العيد المعبر عن الروح الثورية الكردية المنادية بحرية الشعب المقيد بأغلال الاستعمار وحكام العراق وتركيا وإيران.

كانت من أحلى سنوات عمري مع تلك النخبة من الأصدقاء وجمعتني الأيام بالصديقين، كاميران، وعبد الرحمن في جامعة لينينغراد، في نزل الطلبة وفي غرفة واحدة عشنا سوية لسنين عديدة نتشارك في كل شيء في السهر والعمل والتنزه في مرابع المدينة الفارهة والجميلة، وفي اقتناص الصديقات الروسيات، كانت صداقتي معهم امتداداً لتلك العلاقة التي بدأت في أوائل شبابي في مدينة بغداد.

كنت سعيد الحظ بلقاء كاميران، ذلك الكردي المرح الذي ينتمي إلى أسرة معروفة (قره داغي) كان والده (متصرفاً) للواء كركوك (محافظة) في الوقت الحاضر وكان كامي مرحاً قادراً على رواية النكتة، ولديه قدرات ومرونة لا تجدها عند أي إنسان عرفته؛ فهو سريع الانسجام مع الجو والمجتمع الذي يلتقي فيه سواء كان أنثوياً أو ذكرياً ومن مختلف الأجناس والقوميات.

وصلنا لينينغراد بعد سفرة ليلية في صبيحة يوم خريفي في تشرين الأول عام 1962 وقصدنا العنوان الذي كان بحوزتنا في جامعة لينينغراد، والتي وصلناها في صبيحة ذلك اليوم البهيج من خريف المدينة، وليس غريباً أن أصف الخريف بالبهجة، فقد عشت أجمل أيام عمري في خريف تلك المدينة وقصباتها وغاباتها، شاهدت الخريف الذهبي الذي تتلون فيه الأوراق بألوان الذهب الطاغي على بقية الألوان.

كانت الجامعة تقع على كورنيش النيفا بإطلالة رومانتيكية في مختلف فصول السنة الشتوية والربيعية والصيفية والخريفية، دخلنا قسم الأجانب ونحن نتلكأ في مشيتنا ولغتنا، وعلمنا من الفتاة الشقراء أن النزل الذي نتوجه إليه هو النزل رقم (6) ذلك النزل العتيق، لعل عمره يتجاوز المئة عام، وكانت غرفنا تقع في الطابق الخامس ومن

معالم ذلك النزل انعدام مصعد يوصلنا إلى ذلك الارتفاع من الطوابق الخمسة وبدرجات سلمه الطالعة فكم عانينا حتى وصولنا الغرف، من التعب والإرهاق بأحمالنا الثقيلة من الحقائب المليئة بملابسنا وحاجياتنا المختلفة.

كان وجود كامي يخفف من الغربة التي عشناها في أيامنا الأولى ونحن لا نعرف أحداً في المدينة ولم نتعرّف إلى معالمها الكبيرة المنتشرة بين أكثر من 300 جزيرة، وكنا متوجسين وخائفين من ذلك الوجود الممتد والذي لا نعرف ما يخبئه لنا بعد وجودنا وعيشنا في موسكو لمدة سنة كاملة تعرّفنا فيها إلى معالمها المختلفة.

بعد مرور عدة أيام من الضياع في لينينغراد بدأنا نتلمس طريقنا في الجامعة ونزل الطلبة، كان أول ما قمنا به من تأهيل وتطبيع في خطواتنا ما حصل في ليلة الأحد في قاعة الرقص التي تقع في الطابق الأول من النزل، دخلنا هذا العالم ونحن ندير رؤوسنا بين الراقصين من روس وأجانب لعلنا نقتنص فرصة مراقصة إحدى الشقراوات.

تم ذلك لحكيم ولم يتقدم كامي خطوة واحدة في مجال الرقص والتعرّف والانسجام مع النساء حتى زواجه من أولـگا، وهذا ما سأفصله في ثنايا الأوراق القادمة.

تقدمت بطلب مراقصة فتاة شقراء (مربربة) الجسم دون امتلاء كامل، وهذا ما كنت وما زلت أفضله في النساء فلست ممن يميل إلى الضعيفات، والتي يطلق عليهن تسميات مختلفة، رشيقة، رقيقة، خفيفة... إلخ من تسميات.

كانت الفتاة هي من شجعني بابتسامة عذبة ولم ترفض طلبي، رقصنا الرقصة الأولى ثم الثانية وتعددت رقصات التانكو والفالس ونحن ندور وأزداد قرباً منها.

افترقت عنها بعد تعرّفي إلى نساء أخريات يختلفن عنها فكن طبيعيات حتى في ممارسة الجنس.

كانت تجربة غريبة ظلت ساخنة في أعماقي لفترة طويلة أحاول أن أجد لها تفسيراً، حتى قرأت قصة لكاتب روسي (پاما) البئر... يتحدث فيها عن بعض البغايا في نزل البغاء في موسكو، وكيف كانت تلك النسوة لا يشبعن من ممارسة الجنس مع المترددين على تلك الدار بالرغم من كثرتهم. ولكن لا أستطيع القول إنها كانت ظاهرة روسية بل هي ظاهرة إنسانية لا نعرفها نحن أبناء المدن الشرقية المتخلفة، والتي لا تعطي المرأة حقها في كل شيء حتى في الممارسات الجنسية واللواتي قد تكن راغبات في الاستزادة منها كما يفعل الرجال عندنا.

انتقل كاميران إلى نزل جديد تابع لكلية الآداب رقم (10) وانتقلت إلى قسم جديد يخص طلبة الدراسات العليا لا يبعد كثيراً عن القسم الداخلي لصديقي، فكنا نتزاور كثيراً واكتشفت في إحدى الزيارات لكاميران تعرّفه إلى العديد من الفتيات الجميلات ولعل أهمهن كانت (موزا) التي كانت قريبة جداً منه، ولكني عرفت ونحن نرقص ونشرب بأن تلك الفتيات يتعاملن مع كامي كواحد منهن وأخ لهن، ولا يتعاملن معه من موطن الفحولة الرجالية مما حز في نفسي وأنبته على جبنه، فلم يجد جواباً وكأنه خلق ليتآخى مع النساء، كما سأكتشف بعد زواجه من (أولگا) تم تعارفي مع صديقي عبد الرحمن (عول)، الذي شاركته العيش في غرفة واحدة في القسم الداخلي رقم (4) عن طريق كاميران زميله في كلية الآداب، وكانت المناسبة التي جمعتنا بالصديقين بذلك القرب والعيش المشترك لأكثر من ثلاث سنوات، ما حدث في القسم الداخلي لطلبة الدراسات العليا المجاور لذلك النزل الطلابي.

كان أحد العراقيين ممن يدرسون اللغة الروسية واحد من أكثر من عشر طلاب يشتركون مع الآخرين من أجانب وروس في ذلك النزل

الجديد، وكان ذلك الشخص معوّج السلوك الاجتماعي ويحمل أفكاراً غريبة من الأخلاق والسلوك المتحرر للمجتمع الروسي، كان يتجسس على فتاة متزوجة تعيش معنا وزوجها في نفس الطابق، واتهمها بعلاقة غرامية مع شخص روسي آخر فعلت أصوات الروس بعد أن أوصل الوشاية إلى مسؤول القسم الداخلي وعرف زوجها بذلك.

بدأ الروس يتعاملون معنا بشكل سيء بعد هذه الحادثة مما دفعنا جميعاً إلى ترك القسم والانتقال إلى نزل رقم (4) ابتعاداً عن ذلك الشخص السيئ. وأذكر الاتهامات التي قيلت له للتخلص منه فقد اتهم بسماع صوت أمريكا وشككوا بعلاقته بالأمريكان، إلا أنني دافعت عنه أمام قسم الأجانب لعلمي بأنه ينتمي للحزب الشيوعي، وقد بقي لوحده هناك يزدريه الجميع وانفصل عن كياننا الطلابي.

لم أر في حياتي شخصاً بغيضاً كذلك الشخص الذي يدعي الكثير من الأمور وهو لا يملك منها شيئاً وخصوصاً في مجالات الثقافة.

كانت هذه الحادثة سبباً للتعرّف بعبد الرحمن، ذلك الصديق الذي وضعه القدر في طريقي لنعيش بوئام وحميمية وصفاء منسجمين ومتعاونين في كل الأمور، حتى في الأمور النسائية تفاهمنا معه على فسح المجال أحدنا للآخر حين يستضيف كل منا صديقته لإخلاء الغرفة.

وكان ذلك الأمر مهماً جداً لعدم حصولنا على مجال آخر لنختلي بصديقاتنا، وفي بعض الأحيان كان (عول) يبقى ساهراً معنا وصديقتي لودميلا، وينام باكراً فاسحاً المجال لنا لتكملة السهرة كما نريد.

كانت لنا جولات كثيرة مع عبد الرحمن خصوصاً بعد زواج كامي وخروجه من الغرفة وعيشه مع زوجته في المدينة الخضراء (زيلينو گورسك)، ولهذا الزواج قصة سأرويها في الصفحات التالية.

مرَّت الأيام العشرة لزيارة أخي سليم ولم أستطع زيارة صديقي محمد، علمت بأنه عاد من مدينة براغ متوعكاً، وكنت سابقاً أعرف بجولاته في تلك المدينة المليئة بالجميلات الحبيبات، فما الذي حصل له ليعود متوعكاً من هناك.

أقلقتني تلك الفكرة فتوجهت في مساء أحد أيام تموز الزاهية في المدينة الباسمة (لينينغراد)، وكنت في طريقي أستعيد شريط الذكريات الطويل الذي يمتد إلى بغداد عام 1961، حين التقيته مع صديقي رشدي العامل، كنت خارجاً من المقهى البرازيلي، المقر المعروف للمثقّفين العراقيين من اليساريين والليبراليين والذي يتموضع في منتصف ذلك الشارع التاريخي الساحر، شارع الرشيد الذي تحكي كل بلاطة وكل بناية وكل عمود من أعمدته الممتدة من بدايته في باب المعظم إلى نهايته في الباب الشرقي.

تحكي تلك الكيانات الصامتة عن أحداث مرَّت وتمر فيه كل سنة وكل شهر وكل يوم، فهو الشارع الذي كنا نتظاهر فيه ضد الحكومات الرجعية، وهو المقر الذي كنا نلتقي في مقاهيه وسينماته، روكسي، ركس، سينما الحمراء مقهى المربعة والمقهى البرازيلي، المقهى السويسري، مقهى الرشيد، مقهى حسن عجمي ومقهى المربعة، كل تلك المحلات كانت تزهو بالصبايا العراقيات غير المحجبات، وهنَّ يتمايلن ويتخايلن بملابسهن الزاهية وسط عالم يضج بالصبا والجمال في تلك السنوات الحافلة بالنشاطات الاجتماعية والثقافية والسياسية.

فكم عرف الشارع المظاهرات المليونية بعد ثورة تموز وهي تحيي وتشيد بالثورة ومنجزاتها، كانت الأعلام الملونة ترفرف فوق رؤوس المتظاهرين من الشباب اليساري والديمقراطي وهم يستعرضون باندفاع معبرين عن موالاتهم للثورة وزعيمها بقيادة الحزب الشيوعي.

كنا نحب ذلك الشارع الخالد ونتواجد في محلات السلوى والتنزه في كل يوم وليلة. فهو المركز للعاصمة الحبيبة بغداد.

التقيت في ذلك الشارع لأول مرة مع محمد. الذي قدمه لي رشدي العامل، الشاعر الحر والمثقّف الفوضوي بل يمكنني القول المثقّف البوهيمي، العاشق للعراق، صديقه الحميم الذي لا يستطيع مفارقته ليلاً ونهاراً، كنت قد تعرّفت إلى رشدي خلال عملنا الثقافي في اتحاد الطلبة بعد ثورة تموز 1958 لأول مرة.

وفي المرة الثانية وجدته مع المئات من الموقوفين خلف السدة يعاني من اضطهاد الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي كان يؤيده بكل قوة ولكن تراجع الزعيم عن حلفه مع اليسار جعله يتنكر لحلفائه اليساريين الذين دعموه وثبّتوا سلطته.

كنت أعمل في ذلك الوقت محامياً في (لجنة معاونة العدالة) وكانت مهمتنا الدفاع عن أصدقائنا ورفاقنا أمام المحاكم العرفية، فتوكلت عن رشدي في تلك الزيارة لموقف خلف السدة، الذي كان مقراً سابقاً للشرطة السيارة في زمن العهد البائد، وهو يكاد أن يكون قاعات طويلة كالقاعات الطوال للجياد. يسكنه العشرات من الموقوفين يتمددون على أرضيته الإسمنتية الباردة.

عرفت محمد في ذلك اللقاء بشارع الرشيد وكانت تلك المعرفة الأولى لشاب جميل، قال لي صديقي إنه أحد الأدباء اللامعين في الوسط الأدبي العراقي ودعاني رشدي إلى أمسية في نادي المثقّفين، الذي يقع في الكرادة ويؤمه المثقّفون اليساريون والديمقراطيون، كان محمد مدعواً لإلقاء إحدى أقاصيصه في تلك الأمسية.

ذهبت إلى النادي الذي لم أتردد عليه لوجودي الدائم في الأماسي في (الجرداغ) الواقع في شارع (أبو نواس) والذي أستنشق فيه عبير

دجلة وعبير الحرية الكاملة مع أصدقائي، كانت أمسياتنا تمتد إلى ساعات الصباح الأولى ونحن نتسامر ونغني ونتريض ونقوم بمختلف الفعاليات بكل حرية ونشاط.

كان النادي في تلك الليلة مكتظاً بالعشرات من المثقّفين العراقيين. وكانت تقدم فيه المشروبات الروحية بأسعار مناسبة يختلف عن أسعار البارات والفنادق ولذلك تجده مكتظاً بالمثقّفين (المفاليس) لشرب الخمرة الرخيصة مستمتعين برفقة جميلة تأخذهم إلى مختلف النقاشات السياسية والاجتماعية وأحاديث الحب المنطلق حديثاً مع انطلاقة الثورة.

اعتلى محمد المنصة والابتسامة تحلّي محيَّاه ويفتر ثغره عن صف من الأسنان البيضاء اللامعة وعيناه الكبيرتان تبرقان بالثقة بالنفس، حيَّانا وحيّا الثورة التي أتاحت له وللأدباء العراقيين حرية الكتابة التي كانت محرمة وتؤدي بالمثقّف إلى السجن إن عبَّر عن نفسه وأفكاره الديمقراطية والاشتراكية.

كانت القصة وهي تحكي بأسلوب رشيق وسلس، تدور أحداثها عن (عكد النصارى) عن قصة غرام مسيحية ومسلم، وكان يتحدث عن المعاناة التي وقع فيها العاشقان لاختلاف ديانتهم وتعنّت عوائلهم الرجعية التي لم تكن تجيز زواج المسيحي من مسلمة وبالعكس المسلم من مسيحية.

قرأ القصة وهو ينتقل مع أحداثها صعوداً فنزولاً واضعاً اللقاءات الحميمية المختلة من قبل العاشقين بأسلوب يثير فينا مختلف العواطف المكبوتة لدى كل منّا، والتي لم يخلُ أي واحد من حب محرم في ظل ظروف قاسية لا تنسجم وتطلعات المثقّف الذي يطمح إلى حرية كاملة في علاقاته الغرامية، في ظل ظروف تسود فيها المحرمات الثلاث؛ الدين والحب والسياسة.

استطاع محمد بأسلوب جميل أن ينقلنا إلى عوالمه الحيَّة بين عاشقين لم يستطيعا أن يصلا إلى قمة حبهما والذي انتهى بانتحار الفتاة المسكينة.

صفقنا كثيراً للكاتب (محمد كامل) ذلك الشاب الذي لم يتجاوز عمره أربعة وعشرين عاماً، وكانت أمسية من الأماسي الكثيرة التي تقام في ذلك النادي الجميل الذي تمتد حديقته بعشبها الأخضر مسافة كبيرة تستوعب العشرات منا نحن المثقّفون العراقيون. ذلك النادي دمرته الأيادي الفاشية، بل هدمت جدرانه المتواضعة لتنتقم منه لإيوائه المثقّفين اليساريين؛ فأي حقد ملأ قلوب أولئك القتلة الذين قتلوا وسجنوا رواد ذلك النادي بأماسيه الثقافية الجميلة.

أخذت الصور تتداعى أمامي وأنا في الباص متوجهاً لزيارة صديقي الذي امتدت صداقتنا أكثر من خمسين عاماً كانت المرة الثانية التي التقيته فيها في نزل الطلبة الأجانب في (الجريومشكي) في موسكو، فكنا جالسين نتسلى بعد يومٍ قاسٍ من تعلم اللغة الروسية الشاقة والصعبة جداً حين دخل علينا ذلك الشاب الجميل وهو يقتحم جلستنا، التقيناه بكل ترحاب واستمرت العلاقة تتطور مع تطور وجودنا في موسكو ونحن نتعلم اللغة الروسية لمدة سنة كاملة.

كان التحاق محمد بنا في نزل الطلبة لدراسة اللغة الروسية حدثاً مهماً، حرك الرجل المياه الراكدة التي استغرقت حياتنا في روتين مبرمج، دراسة من الصباح حتى المساء بعدها التحضير لدرس اليوم التالي، وهكذا كانت تمر الأيام ثقيلة ومملّة خصوصاً ما كنا نعانيه من دراسة لغة غريبة عنا.

وأذكر على سبيل الطرفة ما حدث لي مع إحدى الفتيات التي تعرّفت إليها في موسكو (لوسا) وكنَّا بجنب أحد المحلات التي تبيع

الدجاج، وكانت هنالك رسوم توضيحية تشير إلى ديك كبير جميل الريش منتفخ الأوداج سألتني ما هو الديك باللغة الروسية؟ تأملت طويلاً، لعدم معرفتي اسم الديك باللغة الروسية أجبتها: إنه زوج الدجاجة لمعرفتي اسم الدجاجة، ضحكت كثيراً وبقيت هذه الذكريات متقدة في ذاكرتي أنقلها للأصدقاء كطرفة على صعوبة اللغة التي كنَّا ندرسها.

كانت أمسياتنا قد تغيرت بعد دخول محمد إلى مجتمعنا الصغير خصوصاً في ليالي العطل الأسبوعية، كنا نشتري قناني الفودكا مع مزاتها ونجلس نستمع إلى الموسيقا والأغاني العربية خصوصاً أغاني السيدة فيروز، اشتريت بالمبلغ المخصص للملابس (راديوگرام) ماركة ريگا، وكنت حاملاً معي من العراق أسطوانات الأغاني العراقية للمغنيين ناظم الغزالي، عفيفة إسكندر، زهور حسين مع أسطوانات أخرى لمغنيين عرب، فريد الأطرش، أم كلثوم، عبد الوهاب والسيدة فيروز، وكنَّا في تلك الأمسيات الشتوية نحيط بذلك الكرام للاستماع لأغانينا المفضلة ونحن في غاية الشوق للوطن خصوصاً عندما تلعب الخمرة في رؤوسنا لتعيدنا إلى الحزن السرمدي الذي يلاحقنا أينما نرحل.

كانت بداية معرفتي للأفكار الجديدة من خلال تلك اللقاءات الجارية في غرفتي مع محمد وسامي، ذلك الصديق الثاني الذي دخل حياتي مجدداً بهيئته الجديدة تختلف عما عهدت فيه من سخرية وحذلقة لا أحبها، فقد تغير وسوف أرى مراحل تغيره نحو الأفضل، وبعدها السقوط المريع الذي انتزعه من عالم الصدق والبراءة حين عاش في المغرب.

انتزعتني أفكار محمد الوجودية وحديثه السلس خارج القفل المغلق الذي جمَّد فكري بالتعاليم الإيديولوجية الماركسية، وهي تغلف المخ بأفكار بعيدة كل البعد عن عالم الحرية المتوفر في الفكر الوجودي.

كان الفكر الوجودي محرمٌ علينا في العراق خشية أن يستلبنا من الفقر المدفع للتعاليم والأفكار النضالية، التي لا تركّز إلا في مواضيع محدودة لا تسمح للفكر الجديد بتخريب التعاليم التي نشأنا عليها، والتي تجعل كل ما ينتزعنا من عالم النضال (تابو) فالفرفشة غير مسموح بها إلا في حدود، والاطلاع على الوجودية وما يرتبط بها نزوع نحو التفسخ الخلقي والابتعاد عن الأصول النضالية في بلد يعيش في ظل نظامٍ ظالمٍ يجب التحصن كثيراً لتقوية شخصية وفكر المناضلين لمقاومة الانحلال البرجوازي، والدين ممنوع لأنه يخدرنا ويبعدنا عن موطن الكفاح الجماهيري والنساء تأخذنا إلى عالم الرذيلة، علينا أن نبقى ندور في فكر محدد يحصننا من كل تلك النوازل التي تخرب فكرنا وعملنا في سبيل قضية الشعب.

كانت البداية في إحدى الليالي الباردة ونحن متجمعون حول طاولة الفودكا، حين طرح محمد موضوع الفيلسوف الفرنسي (سارتر)، والذي كان معروفاً عالمياً أديبا وفيلسوفا وجوديا، وكنا نتصور ونؤمن بأن الوجودية هي فلسفة الانحلال الخلقي والحرية المطلقة التي تقود إلى تدمير شخصية الإنسان وتدمير الفكر النضالي كلياً.

تحدث محمد عن نضال سارتر في سبيل قضيتين مهمتين عالمياً وفرنسياً، هما قضية الجزائر العربية المناضلة من أجل استقلالها ضد الاستعمار الفرنسي، وقيادة المثقّفين والجماهير الفرنسية ضد الحكومة الفرنسية وأعمالها الإجرامية ضد الشعب الجزائري والمذابح التي يرتكبها يومياً الجيش الفرنسي والفرقة الأجنبية.

وكانت مقالاته الثورية ضد الاحتلال الفرنسي تحرّض الشعب الفرنسي لإسقاط الحكومة ومنح الاستقلال للشعب المقهور والمناضل في سبيل الحرية.

كنت لأول مرة أتعرّف إلى سارتر والتزامه بتلك الوطنية التي تؤكد على التزام المثقّف الوجودي إلى جانب قضايا الحرية والنضال، ضد الاستبداد والاستعباد الرأسمالي في فرنسا والغرب البرجوازي.

بدأ هذا الخرق المهم لأفكاري يخلصني تدريجياً من ذلك الطوق القاتل الذي حدد عقلي، وجعلني أدور في دوامة مريرة من نظريات تمنع علينا النور الذي يبدد ظلام الفكر الجامد، ويعطيني الحرية في تفسير الظواهر الاجتماعية والسياسية من منطلق جديد كسر الاحتكار الفكري الماركسي، الذي لا يفهم سوى قوالب جامدة لا تتعدى النضال والعمل ضد البرجوازية، وكأننا ندور في حلبة ضيقة لا تفهم من العالم سوى الكفاح كأن العالم محدد بطبقتين البرجوازية والعمالية ويجب علينا أن نحشد جهودنا.

وحيثما كنا وأينما نحل أن نكافح ضد البرجوازية لإسقاطها وتسليم السلطة للبروليتاريا، أما سبل العيش بحرية ومعرفة عوالم الثقافة المتنوعة والاختلاط بذلك الجو المدهش الذي يتعدى حدود وخطوات خادعة، ليدخلنا في عالم الفن والطرب والجنس عالم المرأة الجميل، وما يدخله من بهجة تخلق الإبداع لدى البشر وتنتزع منهم الإيديولوجية الجامدة التي تحدد مجال حياتهم وتطمرهم أحياء باسم الكفاح ضد البرجوازية.

بدأت في هذه المرحلة المهمة من حياتي قراءة سارتر، وأول كتاب كان دروب الحرية تلك الدروب التي قادتني لفهم الكفاح الحقيقي ضد الاحتلال النازي لفرنسا، والذي لا يمنع الإنسان من حرية التعامل مع المرأة وفهم حياتها والانطلاقة الجنسية التي تقضي على الجمود الشخصي العقائدي والاجتماعي، تحدثت عن الجنس وممارسته بحرية كاملة بدون أن يدنس المرء نفسه ويغوص بالتحلل الأخلاقي كما كنا نفهم ذلك في بلدنا المسكين.

حررتني الأفكار الوجودية بفضل محمد وما جلبه من كتب متنوعة لسارتر، سيمون دي بوفوار، وكامو. وكنت أقرأ أحياناً حتى الصباح وبدأت أقرأ أيضا الآداب العالمية وفي مقدمتها الأدب الروسي الرائع، تولستوي، دوستويفسكي، بوشكين، ليرمنتوف وغيرهم الكثير من المؤلفين الروس، وكان فكري الجديد هو النور الذي جعل فهمي لذلك الأدب أوسع اتقاداً وإدراكاً وفهماً جديداً للحياة للدخول إلى عوالم وردية مشرقة، منحتني القدرة على فهم الحياة في الغرب والتعلم من تجارب إنسانية كبيرة خرقت تلك الأفكار العتيقة التي كنت أدور فيها كبغل الناعور لا ينظر يمنة أو يسرة.

فهمت أن الحرية لا تعني التحلل من الأخلاق والالتزام بقضايا الإنسان ونضاله من أجل العيش السليم والفكر النيّر بل العكس، تعلم الالتزام بقضايا الإنسان المناضل ضد الاستغلال والعبودية، من أجل بناء مجتمع متطور يملك فيه الفرد حريته الإنسانية المقّيدة بالقانون وحريات الآخرين.

كان لنا مع محمد وسامي جولات في مجال الثقافة والفكر والأدب وعرفني في إحدى المرات على الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي، الذي كان لاجئاً في روسيا وزرنا الشاعر عدة مرات، ودخلنا معه في نقاشات عديدة تدور حول أمور الوطن وانتكاس ثورة تموز وما يجري، ذلك إلى الردة عن أفكار الثورة وقوانينها الجديدة لتحرير المرأة والإصلاح الزراعي، وغيرها من القوانين، وكنت أستعير الكتب من الشاعر الواحد تلو الآخر، قرأت الحي اللاتيني للكاتب اللبناني سهيل إدريس، وقرأت العديد من الكتاب المقدمين المصريين، وكان لهذه الكتب واللقاءات دور كبير في تطور إمكانياتي الفكرية والتحليلية للظواهر الاجتماعية، التي كنا نراقبها ونحن في مفترق طرق خطيرة لم نكن

ندرك ما يحيط بنا سوى تطبيق التعليمات الصادرة لنا من قبل قادة الحزب المحدودين أكل الدهر عليها وشرب.

وكانوا يقادون من قبل قادة المركز في الاتحاد السوفيتي والذي سنرى كيف أدى إلى كوارث في بلدي العراق نتيجة الأخطاء الكبيرة بسبب تدخل الأخ الأكبر في شؤوننا.

كنا نعيش في تلك السنة الأولى لوجودنا في موسكو حياة جنسية بائسة، فقد حرَّم علينا الروس اصطحاب النساء إلى نزل الطلبة، وهذا السلوك غير مفهوم فقد كنا نرى إخواننا من الطلبة العراقيين والأجانب في جامعة موسكو يتصرفون بحرية كبيرة ويصادقون من يشاؤون من الفتيات ويمارسون الجنس بكل حرية إلا نحن الطلبة الدارسون للّغة الروسية، فقد حرَّموا علينا هذا الامتياز المهم والخطير في حياتنا نحن من مكان يعاني الحرمان في بلده، ويرى الحرية الجنسية في هذا البلد ويتحسر على عدم استطاعته الوصول إلى المتعة الجنسية حتى بالطرق التي كانت معروفة لدينا في العراق عن طريق زيارة دور البغاء وممارسة الجنس العابر، والذي يستعبدنا ولا يحررنا من الحرمان الجنسي.

كانت لنا حصص الغزوات البسيطة في ذلك العام الذي كان مليئاً بالتعلم واقتباس المعرفة والتعرّف إلى النظريات العالمية التي كنّا محرومين منها، ولكننا بقينا نفتقر إلى الحرية الجنسية إلا في حالات نادرة.

دخلت غرفة صديقي محمد لأول مرة بعد عودتي من مصيف (جايكا)، كنت منشغلاً مع ضيفي لمدة عشرة أيام، كان محمد جالساً في غرفته خلف تلك المنضدة الصغيرة صديقته الدائمة في نزل الكتابة، كنا نعمل ساعاتٍ طويلة في القراءة والكتابة، كان عمله اليومي في مجال الأدب ساعاتٍ طويلة وتلك هي ممارسته اليومية، الذي يعتبرها أساسا للوصول إلى كتابة رواية أو قصة مثيرة بعد ذلك الجهد اليومي الذي يتراكم لينتج عملاً مهماً يستطيع الفخر به.

قال لي تعال يا صديقي وانظر ما كتبت منذ ساعات وأنا جالس خلف الطاولة وفي يدي قلمي المعهود، تطلعت فوجدت ثلاث كلمات لا غير لا تعبر عن أية فكرة أو جملة عبقرية كما كان يصوَّر لي عمله في هذا المجال، هذا ما أنتجته خلال هذه الساعات الماضية. فتصور في أي حالٍ أعيش.

كان الإعياء والعصبية تبدو على ملامح وجهه ذلك الوجه الصبوح المبتسم على الدوام، هربت منه الابتسامة وحل محلها الوجوم والشرود إلى عوالم لم يفصح لي عنها، استطعت أن أفهم وضعه غير الطبيعي. قال لي انظر يا صديقي إلى أين وصلت بعد هذه السنين، كنت أعمل لأكون كاتباً عالمياً في مصاف سارتر أو همنجواي، ولكني أرى نفسي وقد انحدرت قواي المعنوية وأصبحت في حال يشفق عليّ الصديق والعدو.

عرفت أنه يمر في حالة كآبة شديدة حاولت أن أعيده إلى عالمنا الضاج بالمرح والجدل الفلسفي والأدبي ولكن دون جدوى، كان الرجل يشرد بعيداً عني لينصرف إلى عوالمه الداخلية.

أفزعني وضعه فطلبت منه أن ينتقل معي إلى بيت الطلبة الذي أعيش فيه وفي غرفتي بالذات؛ فقد انتقل كاميران إلى دار زوجته في (زيلينا گورسك) كان في صراع قوي مع نفسه، يحاول أن يستعيد ملكاته العقلية وقدراته الأدبية ليعود إلى عمله اليومي المثمر، استجاب إلى طلبي ولكنه أجّل الانتقال إلى يوم آخر للملمة نفسه وتصفية أموره في نزل الطلبة، تركته والحزن عليه يخترق أحشائي كأنه ضربة خنجر. كنت في غرفتي حين أنفرد بنفسي بعد تلك التجربة العاصفة في حياتي أقوم بإخراج المنشفة التي كنت أستخدمها على شاطئ البحر الأسود، كانت تلك المنشفة صديقتي في الأيام الماضية أخرجها من المخبأ وأتصفحها وأشمها مسترجعاً تلك الروائح الزكية، التي علقت بها من جسد المرأة الطري والدافئ أي عطر كان يملأها.

تلك المنشفة كان عطراً أنثوياً مثيراً أعذب من عطر الياسمين والقرنفل والروز، بل كل هذه العطور تمتزج ولا ترقى إلى عطر تلك المرأة الجميلة التي وضعها القدر في طريقي، ولا أدري هل كان ذلك عقاباً أم كان مكافأة؟ كنت أعبر خلال ذلك العطر الممزوج بعطر البحر وأغرق في تخيلات تأخذني إلى تلك الأيام القصيرة التي عشتها وأنا أحلم.

دخل (عول) فرآني أتشمم تلك المنشفة. عجب لأمري وأخذ يتساءل عن السر في الموضوع، لم أكن قد أعلمته عن صديقتي الجديدة. قلت له إن هذه المنشفة وعطرها النادر تنقلني إلى عالم (إيزيس)، وأيامنا الجميلة التي بالرغم من قصرها كانت أحلى ما عشته في الاتحاد السوفيتي، وحين طرح سؤاله عن مصير تلك العلاقة وأين هي صديقتي. عجزت عن الإجابة، تاركاً الأمر للأيام علَّي أحظى برؤيتها مرة أخرى إذا أشفق القدر من جديد.

كان صديقي الكردي عبد الرحمن إنساناً رقيقاً وظريفاً، عشت معه أحلى سنوات الدراسة، كنا نقضي الأماسي في عطل نهاية الأسبوع في مرح ورقص يمتد حتى الصباح، وتنتهي الليلة بأحضان صديقاتنا واستكمال السهرة بممارسة دافئة مع تلك النسوة.

كنا في الصيف نعيش الأيام والليالي البيضاء في متعة جميلة، نخرج في الصباح إلى شاطئ (الخليج الفنلندي) ونستأجر زورقاً ونذهب مع مياه الخليج الباردة، كنت أجيد التجديف فأذهب بعبد الرحمن بعيداً عن الشاطئ ولم يكن يخاف الغرق بالرغم من عدم إجادته للسباحة.

كان يقول لي: ما دمت معك فلن أخشى شيئاً. ارتبطنا بمحبة عميقة سقتها أيام العمل والطرب بأحلى الذكريات الجميلة على مدى ثلاث سنوات، وفي عودتنا للشاطئ كان هنالك (كشك) صغير لبيع البيرة

بكؤوس كبيرة من ذلك (الإناء) الخشبي الذي يشبه برميلاً ضخماً، موضوعاً على عربة خشبية يجرها حصان، كنا نشرب كأسين كبيرين وكأننا نشرب ماء الكوثر.

كان التعب وحرارة الجو يجعلان من تلك البيرة أفضل مشروب في العالم، بالرغم من رداءة البيرة الروسية والتي لا تشبه البيرة الإنكليزية أو الجيكية، لكن المتعة التي نحصل عليها في تلك اللحظات لا تعادلها متعة أي شراب آخر.

وكنا في المساء نخرج مع صديقاتنا إلى كورنيش نهر النيفا لنلتحق بمئات الصبايا والشباب الروس والأجانب في ليالي لينينغراد البيضاء منطلقين بالرقص والغناء الجماعي والفردي مع الحشود المحتفلة في كل ليلة من تلك الليالي، كانت أغنية لينينغراد قد حفظناها، ونرددها مع الشباب المنطلق بأجمل الأصوات بقول كلمات الأغنية:

أيتها المدينة الرابضة على نهر النيفا

يا مدينتي يا فخر الشباب اللينينغرادي

اسمعيني جئت أغنيك أجمل الأغاني

كانت مصدر حبي وفخري واشتياقي

وستبقيني مصدراً للحب لجميع أبنائك

كنا نعيش في عوالم مسحورة لا نفكر بالمستقبل فنحن طارئون على تلك المدينة الجميلة، وناسها الطيبون وطرب شبابها والأنس والعرس الدائم الذي تعيشه المدينة في كل ليلة من لياليها البيضاء.

لم نكن نعلم ما يخبئه لنا القدر في عراقنا البائس الذي تتحكم به ذئاب الزعماء العسكريين، تقتل وتدمر كل ما هو جميل في مدننا المظلومة، لم أكن أفكر لحظة واحدة أن القدر الظالم سوف يريني مرارة

نهاية صديقي عبد الرحمن بعد عدة سنوات وهو في أعلى مركز أكاديمي، أستاذ مادة الأدب الروسي، وكان عطاؤه مستمراً حتى انتهى نهاية مؤلمة وحزينة في مدينة رائعة (السليمانية)، بحادث سيارة مأساوي أنهت حياته وهو في عز العطاء، وكان هارباً من الموت الغادر في بغداد التي استحلها الإرهابيون ليموت في بلده، بعد فترة قصيرة ذبح الإرهابيون زوجته الجميلة (فالا) وهي تسعى إلى مغادرة البلد إلى مدينتها لينينغراد .

رثيته من قلبي المفجوع بقصيدة نشرتها المجلة الكردية الصادرة في السليمانية جاء في هذه القصيدة:

يا وحشة الدنيا بما حمل البلاء
وتزاحمُ الأرزاء بثَّتها تباريح المساء
يا لعنة الدهر الذي حرم الأحبة من لقاء
خطف المنون العالم النحرير في عزّ العطاء
عجباً ملاك الموت كيف خطفت عنوان النقاء
(عولٌ) صديق العمر هل حقاً تلحفتَ العراء
في وحشة اللحد المقيت يغوص جسمك في سراب
لكن روحك لن يلامسها الظلام تنير لنا الغياب
لا لن تغيب بزحمة الموت الرهيب فأنت باقٍ في اللباب
إني أراك كما رأيتك في الليالي البيض حباً شامخاً فوق السحاب
إني أراك وبهجة الدنيا على (النيفا) وأسراب النساء
والدبكة الحسناء وهي تهزنا طرباً ونمرح في الضياء
صخب الشباب ولهونا والمنشدين مواكباً تشدو بألحان السماء
ذهبوا وما أبقى لنا الموت الرهيب سوى العذاب

أعطيت كردستان ما في قلبك المملوء حباً دون خوفٍ وارتياب
أفرغت روحك في حميًّا العلم تخدم فيه قوما راعهم طول الغياب
وجعلت كردستان قبلة ما كتبت وغبت عنها كالشهاب
ولسوف تبقى خالداً كالنجم يسطع نوره فوق الهضاب
(رحمن) سوف أظل في حزني يمزقني اغتراب

مرت آخر الأيام المتبقية لي بعد مناقشة أطروحتي في عذاب كبير، كنت في حيرة من أمري أجتر آلامي مع مرور كل يوم بعد تلك السنوات المضيئة، التي قضيتها في تلك المدينة الرائعة، كانت الأخبار القادمة من بغداد تخترقني بعنف كل يوم، وأبقى أدور مع أفكاري المشتتة في كل اتجاه علّي أجد منفذاً ينقذني مما ينتظرني في مدينتي البائسة.

كانت الأخبار القادمة من العراق تتحدث عن استمرار الحكام العسكريين في اضطهاد رفاقي وأصدقائي من اليساريين والشيوعيين، ويقبع معظمهم في السجون بعد انقلاب 8 شباط الذي قتل الآلاف منهم ومن تبقى كان موئله السجن.

علمت بأن الدولة لا تعترف بخريجي الاتحاد السوفيتي، وقامت كعادة من سبقها من أنظمة دكتاتورية بتسييس الشهادة العلمية، معتبرة جميع الخريجين وكانت أعدادهم بالمئات أعضاء في الحزب الشيوعي، قد يكون في ذلك صحة إن البعض ممن درس في روسيا من الشيوعيين، ولكن ما علاقة العلم بالفكر والسياسة، كان بعض الأصدقاء ممن سبقني إلى بغداد يشجعونني على السفر للجزائر والعمل هناك بدون وجل واضطهاد، لحاجة الجزائر الخارجة لتوها من ربقة الاستعمار الفرنسي إلى أساتذة عرب يدرسون في جامعاتها الحديثة.

كنت في اضطراب وتفكر عميقين لا أنام ليلي، ولا أعرف ما أعمل في نهاري، ولكن كنت لا أرغب في السفر إلى أي بلد عدا العراق الذي لم

يفارقني بكل ما اختزنته من ذكريات حلوة ومرة، فالوطن عزيز مهما تعرض لاضطهاد أبناؤه، وكانت دموع والدتي وأخواتي تدعوني للعودة السريعة.

كنت في ذلك الحال المؤلم عندما التحق صديقي محمد بنا، ليعيش وسطنا وهو يعاني من اكتئاب شديد، وآلام ومعاناة من ذلك المرض النفسي المدمر، كنا مع عبد الرحمن نحتفل به في أول ليلة من وجوده معنا، وكنا في خضم نقاش عن أوضاعنا وأوضاع البلد البائسة، ونحن نحتسي كؤوس الفودكا.

كان لتلك الكؤوس أثر مباشر في تخفيف معاناتنا فهي الملجأ الذي نهرب إليه حين نفرح وحين نرقص وحين يلفنا الحزن، سمعت دقات على الباب فأجبت الطارق بالتفضل بالدخول، ولم أكن أعلم من سوف يدخل، كانت المفاجأة العجيبة والجميلة إيزيس بلحمها ودمها والضوء الذي يحيط بها وهي تقتحم غرفتنا.

دخلت والدموع تجري من مآقيها واحتضنتني والكلمات الجميلة ذات اللدغة بحرف السين تغمر كلماتها الساحرة، لماذا تركتني على تلك الصورة الغريبة وأنا في وسط عرسٍ جميل في لقاءاتنا ووصالنا اليومي في منتجع جايكا، كيف سمحت لنفسك بتركي دون أن تعلمني بقرار سفرك المفاجئ.

قالت: مرت بي ساعات معذبة وأنا أدور وسط ذلك الجو شاعرة بوحدة تخترق أحشائي وتدمرني فلم أذق طعم النوم ولم أفرح بعد مغادرتك، ولجأت إلى صديقك العراقي قاسم، أستعلم منه عنك، وما حصل لك لتترك المنتجع بتلك السرعة وبدون إعلام أحد حتى المسؤولين، في الإدارة لم يملكوا جواباً لأسئلتي وما حصل لك.

كانت أياماً قاسية لعنت فيها القدر الذي فتح لي باب المساعدة،

وأغلقها بتلك السرعة؛ فلم يدم لقاؤنا وحبنا العنيف سوى خمسة أيام فقط، أهذا هو منطق القدر يا حبيبي ورحت أتقلب على نار تكوي جسمي وأحشائي، وأقلب أفكاري تارة أقول إن حادثاً مريعاً حصل لأحد أفراد عائلته، وتارة أخرى أقول إنه هرب مني، أنا الذي سقيته أجمل كؤوس الحب في ذلك الوقت القصير.

أية قسوة امتلكتها لتتركني أتقلب بتلك الأفكار المؤذية، حتى إن رفاقي باتوا في حيرة من أمري، فقد اختلف سلوكي بعد سفرك، فابتعدت عن ليالي السمر الجميلة ورفقة جماعتي من الكوبيين، وكانوا يتساءلون ما الذي جرى حتى أبتعد عنهم وأنزوي في غرفتي، يتآكلني القلق عن فراقك المفاجئ وغير المتوقع.

حصلت على العنوان من صديقك وأول عمل أقوم به بعد وصولي لينينغراد هو المجيء إلى نزل الطلبة الذي تقطن فيه، وها أنا ذا أمامك يا حبيبي مصدقة بلقائي معك، ذهبت أفكاري بعيداً، فلم أصدق أنني سأجدك وأستعيد بعض بهجة تلك الأيام الجميلة.

دخلت إيزيس ودخل النور معها ليضفي على تلك الغرفة من ذلك الإشراق الذي لفها، وذلك النور المتقد الصادر من عيونها السوداء، كان جمالها صاعقاً جعل صديقاي غير مصدقين بدخول تلك الغادة على غير موعد، وبذلك الجمال والفتنة التي غمرت الجميع بألوان المحبة والبهجة، لم أكن مصدقاً وهي تجلس بجنبي أنها إيزيس بشحمها ولحمها، وبكل حلاوتها ودفء جسدها تجلس إلى جنبي، ماسكة يدي المشتعلة بحرارة يدها، خشيت أني فقدتها ولن أراها مجدداً بعد ذلك الفراق المؤلم.

امتدت جلستنا ساعات طويلة وتحول النقاش عن آلام بلادنا إلى رقص وفرفشة صعدت بأمزجتنا إلى عوالم جديدة كلها نور وجمال وحب.

حين انتهت تلك الجلسة العجيبة، وغير المنتظرة اتفقنا على اللقاء

في اليوم التالي للتعويض عن أيام جايكا الساحرة، دخلت من جديد في عالم الحب الجميل الذي نقلني من أفكاري الهلنستية عن المستقبل الغامض لأيامي في بلدي الذي تجتاحه الذئاب الفاشية، لأعود من جديد إلى عالم تلك المرأة الساحرة لما تبقى لي من أيام قليلة في مدينة لينينغراد.

عدت بعد مرافقتها لموقف الباص القريب من نزل الطلاب، فوجدت صديقاي في غاية الدهشة، استقبلاني بالتبريكات والتهاني لهذه التحفة التي كما يدعيان لم يشاهدا مثيلاً لها، ليس في جمالها الخارجي بل لشخصيتها المتواضعة وخفتها وسرعة تكيفها مع الجو العراقي، قال محمد إنك محظوظ بهذه الفتاة وكان لا يعلم بحزني ومعاناتي في فراقها.

في صبيحة اليوم التالي استيقظنا مع عول على صراخ محمد الهستيري وهو يطلب النجدة بصوت غريب، أمسكت به متسائلاً ما الذي يحدث لك؟

قال: إنهم يهاجموني، ألا تراهم يحيطون بنا من كل الجوانب؟

كان في حال هياج كامل، لجأت إلى مسؤول القسم لاستخدام سيارة إسعاف، كانت حركات وصراخ صديقي تدل على انهيار عصبي كامل، من البداية حسبته حلم بكابوس ولكنه كان كابوسا حقيقيا في صحوته، رافقته إلى مستشفى الأمراض النفسية بسيارة الإسعاف، بعد أن تلقى حقنة مهدئة جعلته يسكن ويهدأ، تلقانا في المستشفى طبيب دمث الأخلاق لا تسقط الابتسامة من فمه، تكلم معه بلغة بسيطة لتهدئته وبأن الموضوع لا يستحق الخوف، فهي حال طارئة.

أخذ صديقي بعدها إلى غرفة الفحص وبقيت في الانتظار أضرب أخماساً بأسداس، كنت في حال فزع شديد من وضع محمد ذلك الأديب الذي كنت آمل في صعوده إلى خانة الأدباء الكبيرة، وأنا أراه ينهار

أمامي ويفقد قدرته على التفكير والكتابة. أخبرني الطبيب ألكسندر، بأن صديقي يعاني من انهيار عصبي شديد ولا بدّ من إدخاله المشفى لبعض الوقت للقيام بعلاجه بالأدوية والمعالجة النفسية، كنت أعلم بأن ما يعاني منه صديقي خطير، ولا بدّ من الاستجابة لرأي الطبيب الاختصاصي.

جلست معه لأطمئنه بأن حالته ليست خطيرة وسوف يعالج ليومين أو ثلاث ويعود إلى صفوفنا معافى لنسترد حياتنا الطلابية المرحة المليئة بالحب والنساء، خرجت من المستشفى وأنا في غاية الحزن لحال صديقي النفسية وكنت أعلم بأن وضعه العقلي يحتاج إلى فترة طويلة، ليسترجع قدراته الطبيعية في التفكير ويعود إلى عمله الأدبي في كتابة القصص، وأنا كنت أشك في قدرته على احتلال مركز أدبي كبير في عالم الأدب.

وكنت أعتقد جازماً أن سبب انهياره يعود إلى عجزه في الوصول إلى مرحلة متقدمة، وهو الذي كان يهيئ نفسه لاحتلال مركز مرموق في عالم الرواية والقصة العربية، كان عجزه هو السبب الرئيس في حصول ذلك الانهيار العصبي.

ركبت الباص وأنا أغوص في ذكرياتي وأيامي السابقة مع صديقي والليالي الصاخبة التي عشناها في مدينة لينينغراد، تلك الليالي والأيام الممتدة إلى سنين طويلة، رحت أسترجع بعض الذكريات المهمة عن علاقتنا والنقاشات التي كنَّا نخوضها إلى حد الخصام، ثم نعود من جديد أصدقاء لا يفرقنا الخلاف الفكري.

كان محمد يمتلئ بالنشاط والحيوية ويتميز بغزواته النسائية وإن كانت قليلة، لكنه نجح عدة مرات في اكتساب صداقة بعض الجميلات الروسيات خصوصاً ناتاشا الجميلة ذات الكاريزما المتميزة عن جميع صديقاتها، وكان في أحاديثه يملك زمام الجلسة ويتميز بضحكة عفوية

عالية أثارت في إحدى المرات أحد زملائنا الطلبة في زواج كاميران، وكان سكراناً فاعتدى عليه أحد المدعوين بالضرب بدون مبرر، وحين سألته عن السبب قال إن هذا الشخص استفزني بضحكته العالية وكأن العراقيين اعتادوا على الحزن والبكاء بدل الضحك والفرفشة، فأي مهزلة نعيشها نحن أبناء ذلك البلد المسكين.

لا أنسى ما حل بنا بعد نكبة 8 شباط في العراق حين استطاع الفاشيون من البعثيين والرجعيين السيطرة على الحكم وإصدار رئيس الجمهورية بيان رقم 13 بإبادة الشيوعيين أينما وجدوا؛ فكيف انقلبت حياتنا من البهجة والعمل الخلّاق إلى الهم والحزن العميق، كنت قبل يوم من حدوث انقلاب 8 شباط 1963 مع صديقتي لودميلا نقضي وقتاً ممتعاً، ذهبنا معاً إلى (مالي تياتر) لمشاهدة (كسارة البندق) ذلك الباليه الجميل لمؤلفه الموسيقي الكبير جايكوفسكي.

كنا نحلق مع رقصات الراقصين الرشيقة التي تضفي جواً لا يوصف من النشوة والسمو الروحي لتلك الحركات المنسجمة مع موسيقا جايكوفسكي، لم أكن معتاداً آنذاك على سماع الموسيقا والباليه والأوبرا، ولكن ذلك الرقص الإيقاعي الجميل جعلني أتعلق وأعيش أجواء من العشق العميق لذلك الرقص والموسيقا التي نقلتني إلى عوالم من الصفاء والبهجة لم أجربها من قبل، فلم أكن أعرف سوى النشوة الجنسية بعيداً عن عالم الرقص والفن الراقي.

استيقظت في يوم 8 شباط على صراخ زملائي الطلبة فخرجت من الغرفة متسائلاً ما الذي يحدث، كان الجميع في حالة هستيريا عصبية أفزعتني وكانوا جميعا يتحدثون معاً بصوت عالٍ لم أفهم منه أي شيء في البداية، ولكن عرفت أن حدثاً كبيراً حصل في بلادي طلبت منهم الهدوء وإخباري بالذي أثارهم، أجابني رزاق: إنه الانقلاب الفاشي

الذي كنَّا نتوقعه يقوده البعث والرجعية العراقية وها هم يقودون ذئابهم لقتل أصدقائنا ورفاقنا بموجب بيان رقم 13، زلزلني الحدث بعد تلك الليلة الممتعة مع صديقتي وإذا بالأمور تنقلب إلى أقصى حالات البؤس والحزن على ما جرى ويجري في وطني المنكوب.

كانت العاصفة الدموية التي هبت على العراق عاتية ومدمرة مهد لها واشترك فيها غلاة الرجعية ورجال الدين من شيعة وسنة، وكان دافعهم كما يدَّعون استعادة أعمدة الدين، التي قضت عليها ثورة تموز بقيادة قاسم واشتراك الحزب الشيوعي، وكانت وراء تلك الحملة الدموية في ذلك الانقلاب الفاشي، دول عظمى هزت كيانها وهددت مصالحها ثورة تموز بما أصدرته من قوانين تقدمية كقانون الأحوال الشخصية، والإصلاح الزراعي وقانون الأحزاب والجمعيات والاتحادات المهنية، والقانون المهم الذي استدعى تآمر الأمريكان والإنكليز قانون رقم (80) الذي أصدره قاسم القاضي باستعادة أراضي العراق من استثمارات الشركات النفطية التي استباحت واستغلت بموجب امتيازاتها جميع الأراضي العراقية، وجاء القانون ليحرمها من مصادر مهمة للثروة النفطية فكان الانقلاب ثمرة كل أولئك الأعداء، إن ما يحز في النفس ويبقى جرحاً نازفاً نعاني منه نحن الوطنيون اشتراك الزعيم العربي عبد الناصر في تلك المؤامرة المجرمة، وتزويد المناصرين بالسلاح وتوجيه إذاعاته ليدعم الزمرة الفاشية جنباً إلى جنب مع السفارة الأمريكية التي كانت تدير عملية الانقلاب بتوجيه إذاعة للمتآمرين تدلهم على بيوت الشيوعيين والوطنيين لقتلهم. كنت وما زلت أحب وأحترم ذكرى عبد الناصر، بالرغم من دوره الكبير في إنجاح انقلاب 8 شباط.

ولكني لم أستطع ولن يستطيع أي عربي أن ينسى الدور القومي للزعيم عبد الناصر في محاربة الاستعمار الإنكليزي بما حققه مع الشعب المصري في ضرب المصالح الاستعمارية فقد حقق جلاء القوات

الإنكليزية، وأمم قناة السويس تلك الضربة التي أدهشت العالم بأجمعه لجرأتها وتحديها الدول العظمى الإنكليزية والفرنسية، وقام ببناء السد العالي بعدما وجهت له أمريكا طعنة غادرة بسحب عرض التمويل وقام بإسناده ودعمه لبناء السد صديق العرب الاتحاد السوفيتي.

وكان عبد الناصر في خمسينات القرن العشرين منارة للنضال العربي ضد الاستعمار والرجعية العربية. لعب الزعيم العربي الكبير دوراً هاماً في بناء وتكوين كتلة عدم الانحياز مع الزعماء العالميين نهرو، تيتو، سوكارنو، وغيره من زعماء العالم الوطنيين الذين قادوا النضال ضد الامبريالية وكان لتلك الكتلة الجديدة في العالم دور مهم في دعم نضال الشعوب وفي التخفيف من غلواء الاستعمار في التعامل مع شعوب العالم الخاضعة للنفوذ الامبريالي.

قام الانقلابيون في 8 شباط بحملة دموية رهيبة ضد الشيوعيين واليساريين والتقدميين العراقيين، فقد قتلوا وأعدموا المئات وملأوا السجون بالمثقّفين والأساتذة الأكاديميين والفنانين ومختلف فئات الشعب المخلصة للثورة والزعيم عبد الكريم قاسم.

كانت لتلك المجازر الدموية ردود فعل في صفوف الوطنيين العراقيين والأحزاب التقدمية في العالم، وكنا نحن الطلبة الموجودون في الاتحاد السوفيتي في مقدمة من ناهض الانقلاب وعملنا ما نستطيع لإيقاف تلك الحملة وعزل الانقلابيين عن صفوف الشعب العراقي والقوى التقدمية العربية.

كانت للحملة العالمية لإنقاذ العراق من أوزار الحكم الفاشي الجديد أثر كبير في تحشيد قوى مهمة وفعَّالة لإيقاف المجازر وكانت تقود تلك الحملة روابط الطلاب العراقيين في الخارج، وفي مقدمة هذه الروابط، رابطة الطلبة العراقيين في بريطانيا بقيادة كوكبة نبيلة من أبناء العراق

المخلصين، يقودهم قائد مقدام كرس حياته للعراق – خالد أحمد زكي – وكان معه شباب ثوار هادي مرزة، نعمت النقيب، يوسف وآخرون.

كان الدور الذي لعبه خالد أحمد زكي مميزاً فهو الذي أوصل وأقنع الفيلسوف البريطاني المشهور (برتراند رسل) ذلك العملاق الذي احتل مركز الصدارة لدى المثقّفين البريطانيين ومثقّفي العالم، وكان خالد سكرتيره الخاص، جسد البطل خالد من خلال موقع (رسل) موقعاً هاماً، والذي نشر رسائل مهمة يدين فيها الانقلابيين وجرائمهم وسار المجتمع البريطاني المثقّف خلف تلك الندوات وأصدرت الصحف البريطانية كجريدة التايمز والكارديان وغيرها من الصحف نداءات مهمة تطلب من الرأي العام العالمي الوقوف وقفة جادة لوقف الحكم الفاشي في العراق وإيقاف القتل والسجن والتعذيب لآلاف العراقيين.

كان للرأي العام البريطاني بقيادة (رسل) أثر فعال لإثارة الحركات التقدمية والعمالية في العالم الغربي للوقوف إلى جانب الشعب العراقي في محنته الكبيرة، ولا يمكن نكران الدور الكبير لذلك الشاب الجميل الطلعة ذي الشخصية المتواضعة والقوية ، خالد أحمد زكي، الذي نذر نفسه لأجل العراق، تعرّفت إليه في عام 1963 خلال الحملات الكبيرة لمناصرة العراق في مدينة لندن وفي مقر جمعية الطلبة العراقيين، وكان ذلك الرجل المتواضع والدبلوماسي ذو الشخصية المحببة التي تتغلغل في نفوس الآخرين بطراوة حديثه وقدرته على الإقناع وما يحمل من مبادئ سامية لخدمة بلده.

كان مسكوناً بحب العراق إلى درجة التضحية بحياته كما حصل بعدئذ في قتاله ضد النظام الفاشي في الأهوار، كان خالد ثورياً حقيقياً مؤمناً بالثورة على طريقة جيفارا، الذي احتلت أفكاره نفوس الثوريين في مختلف بقاع العالم بعد نجاح ثورة كوبا. ذلك الثوري النادر المثال،

جيفارا، من آمن بالثورات المحلية في دول خاضعة للاستعمار والرجعية لإسقاط النظام الاستعماري العالمي، وكان خالد من أبرز المؤمنين بأفكار الثورة النابعة من الداخل، ومن المناطق الريفية كما حصل في كوبا.

فلا غرابة أن يعود خالد أحمد زكي ليقود مع بعض الرفاق الخارجين على صفوف الحزب الشيوعي المتغير في مسيرته أو المنتقل من تيار يساري إلى يميني، ولم يقدّم للعراق وهو الحزب الجماهيري ما يستحق العراق من خدمة في طريق النضال ضد الرجعية والاستعمار، بل كان خاضعاً لتوجيه الشقيق الأكبر الحزب الشيوعي السوفيتي الذي تسبب في تدمير كيانه وعظمة الحزب الشيوعي العراقي.

كان خالد ورفاقه المؤمنون بالثورة تمردوا في الأهوار معلنيها ثورة على حكم الجنرالات الفاشي، واستطاعوا أن يصمدوا لفترة قصيرة في مقاومة الجيوش الجرارة للحكم العارفي وطيرانه، ويحتلوا أماكن مهمة في الهور لكن موقف الحزب الشيوعي العراقي الذي وقف معارضاً لتلك الثورة المباركة والتي كان من الممكن دعمها واستمرارها لو احتضنها الحزب، إلا أن الموقف السوفيتي كان معارضاً لأفكار جيفارا الثورية، فقد كان الحزب السوفيتي جامداً يتعفن في فكره بعد أن تحول قادته إلى أباطرة يحكمون امبراطورية كبيرة، ولا يهمهم سوى ديمومة حكمهم وعدم إثارة الرأسمالية العالمية ضدهم مدعين بحذرهم من الانجرار إلى حرب نووية مدمرة للعالم.

كانت تلك خطيئة كبيرة من أخطاء الحزب الشيوعي العراقي الذي تخلى عن الثوار اليساريين في الأهوار، وهم يقودون ثورة مهمة في تأريخ العراق تشبه ثورة زيد ابن علي على الخلفاء الأمويين.

لم يدر بخلدي أن يكون ذلك الشاب الجميل والأنيق خالد أحمد زكي ذلك المملوء بالدفء الإنساني صاحب النكتة والحديث الطلي وهو

يرتدي البزة الإنكليزية الأنيقة ويعيش في مجتمع لندن الراقي، ذلك الشاب ذو الفكر النيّر أن يترك كل تلك الحياة المرفهة والجميلة وسط نساء لندن ومجتمعها الراقي، وهو الحاصل على أعلى درجات العلم أن يعود إلى العراق ليقود ثورة في عمق الأهوار في سبيل بلده والإطاحة بالحكم الفاشي الذي كلكل سنين طويلة على رقاب العراقيين.

من كان يعتقد بأن شخصا كخالد منعما ومرتاحا في حياته ينتمي إلى عائلة برجوازية يتخلى عن كل تلك المكانة والمصالح البرجوازية ليرتمي في أثواب الثورة ويقود من الأهوار العراقية انتفاضة عارمة حيث العيش السقيم للفلاحين المساكين وسط الجاموس وحرارة الجو ولسعات البعوض الكثيف والحرمان من أبسط مقومات الحياة.

كان ذلك الشاب خالد مجسداً حقيقياً للكائن الحي والشريف الذي أراد تطبيق فكره الثوري في بلدنا وانطلاقا من أفقر بؤرة وأشقاها من الأهوار العراقية، ولكن الموت كان له بالمرصاد فلم يستطع كغيره من الشباب العراقي الثوري الذي مات وهو يهتف بحياة العراق والعراقيين في سجون الزمرة الفاشية الحاكمة أولئك الشباب الذين لو أتيحت لهم قيادة حكيمة لانتموا لثورة كثورة خالد وجماعته لتحرير البلد من ربقة أعوان الاستعمار والرجعية، بدلاً عن البيانات السياسية لدعم الحاكم باسم (التضامن مع الحكم الوطني) كما حصل مع مختلف حكام العراق من قاسم حتى صدام حسين.

تم اغتيال خالد في 7 حزيران 1968 هو ورفاقه من الثوار والأنكى من كل ما حدث أن خالد أحمد زكي لم يُذكر، ولم يُقام له نصب أو يكتب شارع باسمه تخليداً له بل كتبت ورفعت مقامات لا تستحق التخليد لقادة نكبوا العراق واستهتروا بقدراته.

لم أر من كرس بعض الصفحات لذلك الإنسان الثوري النبيل سوى

الكاتب السوري وليس العراقي، حيدر حيدر في روايته (وليمة لأعشاب البحر) الذي خلد ثورة أولئك النفر من العراقيين بقيادة خالد أحمد زكي، فلعله يخرج من سوف ينتفض من العراقيين ليكتب أو يتذكر البطل خالد ليحتل مكانه المرموق في تأريخ العراق.

كانت الصرخة المدوية التي خرجت من العراق، أنقذوا الشعب العراقي من الهجمة البربرية على أبناء هذا الشعب الأبرار ومقدساته، تلك الصرخة التي تلقفها الطلاب العراقيون في العواصم الأوربية وحملوا مشاعل الحملة الكبيرة، والتي ساهم فيها عدا الجماهير الأوربية خيرة الشخصيات السياسية والفنية والأوربية في العالم، بيكاسو، وسائر ممثلي الفن والأدب الفرنسي (برتراند درسل) الفيلسوف البريطاني الذي كانت قيادته للحملة ذات تأثير إيجابي في إيقاف القتل الهمجي الذي تعرض له شعبنا، إيليا إيزنبرغ الكاتب السوفيتي الكبير وشخصيات سياسية وفنية في مختلف بقاع العالم ساهمت في حملة دعم الشعب العراقي.

تشكلت في ذلك الوقت العصيب لجنة الدفاع عن الشعب العراقي من أبرز الشخصيات العراقية السياسية والأدبية والفنية في مختلف الدول الأوربية، كان الجواهري شاعر العرب الأكبر على رأس تلك اللجنة، وشارك فيها السياسي الوطني المخضرم رئيس جماعة الأهالي الوطنية في أعوام الثلاثينات عبد الفتاح إبراهيم وفيصل السامر الوزير والمؤرخ المشهور، صلاح خالص السياسي والمؤرخ، وغيرهم من كبار الشخصيات العراقية التي تنادت لإنقاذ شعبنا من الموت الزؤام الذي أحاق به في ذلك الانقلاب المشؤم.

كنا نحن الطلبة في لينينغراد وبقيادة لجنة من حكيم ومحمد وكاميران وأحمد قد شكلنا لجاناً فرعية تزور مختلف الشخصيات

السياسية والدينية والفنية من شعراء ورسامين ورجال دين مسلمين، وحصلنا على إدانتهم واستنكارهم ببرقيات معبرة عن التضامن الحقيقي مع الشعب العراقي.

دعينا لحضور اجتماع مهم في جامعة موسكو للطلبة العراقيين، سافرنا مع محمد إلى موسكو لحضور ذلك الاجتماع وكان محمد في ذلك الوقت من أنشط الطلبة في دعم قضية العراق وتحشيد الرأي العام إلى جانب شعبنا، وبالمناسبة فقد قتل ابن عم والده مرافع الزعيم المعروف عبد الكريم قاسم، الضابط اليساري المعروف وصفي طاهر مما أثر كثيراً في نشاط محمد في العمل من أجل حماية شعبنا من القتل والتدمير.

حضرنا الاجتماع الجماهيري في القاعة الكبرى في جامعة موسكو، وفوجئنا بحضور قيادة لجنة الدفاع عن الشعب العراقي وصعود ذلك الشخص الرشيق ذو الشعر الأبيض المهيب بطلعته عبد الفتاح إبراهيم، وقف على خشبة المسرح وقوبل بالتصفيق الحاد من قبلنا، فكان معروفاً لدى العراقيين بوطنيته وأفكاره الاشتراكية فهو قائد أول مجموعة ديمقراطية وطنية في العراق في ثلاثينات القرن العشرين يعاونه في تلك المجموعة شخصيات وطنية مهمة، عبد القادر إسماعيل، كامل الجادرجي، حسين جميل، حكمت سليمان، محمد حديد.

وقاد الرجل حزب الاتحاد بعد إجازة الأحزاب عام 1946 وكان ذا فكر نيّر قدَّم في المجال الثقافي والسياسي أفضل الكتب التي ما زال أثرها يمتلك قلوب العراقيين، فهو صاحب على طريق (الهند) والماركسية وعلم الاجتماع، وكتب ومقالات كثيرة.

تحدث الرجل بعد أن أدان الانقلاب الفاشي عن خارطة طريق للقضاء على الرجعية والفاشية في العراق وصولاً للنظام الديمقراطي،

مؤكداً على ضرورة جمع القوى الخيّرة في جبهة وطنية تقود الشعب العراقي نحو النصر المؤكد.

قوبلت كلمته وأفكاره بالتصفيق والتأييد من قبل جماهيرنا وتدور الأيام والسنين فألتقي بالرجل في تسعينات القرن العشرين بشكل دائم في كل جمعة في داره أو داري وكان في عمر التسعين وهو لا يزال يحمل شعلته الوطنية التي أنارت دربه ودربنا بما يملكه من أفكار تقدمية، وبقيت إلى جواره صديقاً مخلصاً حتى وفاته عام 2003 بعد الاحتلال الإجرامي لوطننا الحر وقد نعيته بعد وفاته بقصيدة أذكر منها هذه الأبيات:

بغداد تنعاك يا فتاح

بغداد تنعاك يا فتاح باكية ... وموكب الحزن يطوى الدرب في ألم
قرنٌ من الوصل يسرى في عروقكما ... سقيتها سكراً من حبك النغم
عشقت دجلة يسرى في مرابعها ... أعطتك زهو سنين الخصب والحلم
أبا سنان وقلبى يلتوى ألماً ... لفقد من عظَّم الإنسان بالكلم
منحت من روحك الثكلى بنى وطنى ... حباً وفكراً بهياً ثابت القدم
حاربت في قوة أمية القلم ... في قلب مجتمع يشكو من السقم
وكنت تدعو بأعلى صوتك العرم ... قوماً أناخت عليهم ظلمة العدم
هُبوا لمسك زمام العلم والعلم ... في دولة حرة تسعى إلى القمم
وكنت تدعو لرفع الظلم بالكلم ... في عالم عادل خال من الجرم
أبا سنان وقرنٌ في مسيرتكم ... أغنيتم شعبنا المقهور بالحكم
بدأت دربك تدعو القوم بالحسن ... لرفع إرث قرون الجهل والبكم
وكان ما أفرزته الهند تجربةً ... خلدتها في كتاب عالى القيم

ورحت تدعو بإخلاص بنى وطنى لنيل حرية من دون سفك دم
لكن قوماً غلاظ القلب والسحن قد حطموا ما بنت كفَّاك في الرقم
داسوا على جمرات الفكر (بالجزم) ما استوعبوا أبداً حرية القلم
فكبّلوا الشعب بالأصفاد يدفعهم جوعٌ غريزىّ للتقتيل في نهم
فعوقوا نبتةً في عزّ نهضتها لكان في زهوها فيض من الكرم
أبا سنان ولم تقعدك نازلةٌ سقتك تلك الرزايا عزم معتصم
قاومت كل عهود الحكم في جلد فما انحنيت أمام الجند والطغم
كم حاولوا حرفكم عن نيل مطلبكم فعبَّدوا دربكم بالمال والنعم
فلقد قطعت عهوداً كلها مثلٌ لم تستجب لعروض الخائب القزم
يا منهل العلم يا تاجاً على القمم منحت نورك للأعراب والعجم
وكنت في سعيك المنشود ملتزماً أن تخدم الجمع لا تفريق في الأمم
واليوم نمت قرير العين منتشياً جسدت أنقى ضمير شامخ القيم

كنت على موعد مع إيزيس مساء اليوم الذي أدخلنا فيه صديقي محمد في مستشفى الأمراض النفسية، وكان مكان اللقاء ساحة الأرميتاج، جاءت في الموعد المحدد وراقبتها من بعيد وهي تسيرُ واثقة من نفسها شعلة من نور تفيض على المكان جمالاً أخاذاً.

احتضنتني كعادتها وتبادلنا القبلات على الوجنات ولاحظت معالم الحزن المرتسمة على وجهي، فقالت متسائلة ماذا حصل يا صديقي لتحزن؟ حاولت التخلص من سؤالها لرغبتي في قضاء وقت هانئ معها بدون منغصات تسلب فرحتنا، أصرَّت على معرفة السبب فقلت لها سوف أحكي لكِ بعد أن نجلس في المطعم فلدينا وقت كاف للحديث في مختلف المواضيع.

اخترت المطعم الواقع في الطابق الأرضي من فندق أستوريا التاريخي، أخبرتها باختياري الموقع لأننا كنا نقضي مع الصديق المذكور محمد أجمل الأوقات مسترجعين في خيالاتنا كيف كان رواد هذا المكان من النبلاء الروس يقضون أوقاتهم في المرح واللهو في هذا الفندق العتيد، كنا نطلب الكونياك الأرمني مع (الأيكرا) السوداء وأحياناً كنا نبتدئ جلساتنا بشرب الشمبانيا وننهيها بالفودكا أو الكونياك.

كانت هنالك نادلة جميلة اسمها تامارا من يقوم بخدمتنا وكانت رشيقة الجسد بامتلاء تتمايل مكوراتها وهي تتبختر ما بين الساهرين فتثير فينا كل الرغبات الممنوعة لجمال عجيزتها وما تثيره في النفوس من شهوات متوقدة.

قال لي صديقي محمد إني على استعداد أن أدفع راتبي كاملاً وكان (90 روبل) وليس آلاف الدولارات مقابل أن أرى تامارا وهي تتعرى أمامي، ضحكنا من رغبة صديقي الممتلئة بالرغبة الجنسية متصوراً نفسه أحد النبلاء القياصرة وهم يستمتعون بأجساد الفاتنات الروسيات.

كان دخولنا مع صديقتي بمثابة قنبلة أثارت الشباب الساهرين في المطعم تحولت عشرات العيون نحو الفاتنة التي تسير بجنبي بنظرات الإعجاب بل تتجاوز الإعجاب إلى درجة الاشتهاء لتلك الصبية الفاتنة، لم أشعر بعقارب الغيرة تنهشني بل شعرت بالزهو وأنا أرى أجمل فاتنة عرفتها في حياتي تحتضن يدي وهي مبتسمة تسير بدون أن تلتفت إلى تلك العيون المترقبة والمعجبة بجمال إيزيس المثير.

جلسنا وجاءت تامارا لتسلم علينا وتأخذ طلباتنا، قلت لها: اختاري أنت ما يعجب رفيقتي في الجلسة. قالت: أنا محتارة أمام هذا الجمال وما يترتب على استضافته وليكن الافتتاح بكأس من الشمبانيا لبعث الدفء في النفوس الشابة المستمتعة بالحياة الجميلة.

شربنا الكأس الأول ولم أكن في حالتي الطبيعية فالحزن ملأني ألماً منذ الصباح وأنا أصطحب صديقي إلى مستشفى الأمراض النفسية، كانت نظرات عينيها السوداوين تتساءل عن سبب حزني، وهي التي تملأ الدنيا فرحاً أينما تحل، قلت لها يا صديقتي أصبت اليوم بطعنة مؤلمة لما جرى لصديقي محمد من انهيار عصبي لا تعرف نتائجه.

حدثتها عن محمد وكيف كان لقاؤنا الأول واستمرت لقاءاتنا وحياتنا المشتركة في معاهد اللغة وبيوت الطلبة في موسكو ولينينغراد، وعن آمالي في موهبة محمد الأدبية، ذلك القاص المتميز بين الشباب العراقيين، حدثتها عن تطلعاته الأدبية وطموحه في أن يكون (سارتر) العرب وهو الوجودي الملتزم كالتزام سارتر بقضايا الإنسانية.

حدثتها عن العقدة النفسية التي لازمته طيلة حياته والتي كانت تنفجر بكاءً حزيناً حين يولع في ازدراد كؤوس الخمرة، حتى بلغ السيل الذي في إحدى الليالي العاصفة التي عشناها في لينينغراد.

حكيت لها العديد من المغامرات التي قمنا بها مع محمد مع الصبايا في لينينغراد وعن لياليا الصاخبة في غرفة نزل الطلبة (رقم 4 ورقم 6)، وحكيت لها مشاعرنا المحترقة بوطيس المعركة الفاشية التي فرضها علينا أزلام أمريكا في العراق.

كانت تستمع لحديثي ولون بشرتها وانفعالاتها تتغير صعوداً ونزولاً مع حكايتي المؤلمة، تفجرت الدموع من عينيها الجميلتين وهي تشاركني لوعتي في مرض صديقي وفي معاناتي من الوضع المأساوي الذي يلف وطني الحبيب، سرعان ما غيرت الموضوع لتشارك الجلسة، التي كنت آمل فيها أن أسرق بعض ساعات السعادة من الزمن القاسي الذي لم يترك لي سوى أيام قليلة أقضيها برفقة غادتي الحميمة.

خرجنا من المطعم ونحن في قمة النشوة من الخمرة وسعادة اللقاء

أوصلتها إلى نزل الطلبة واتفقنا على اليوم التالي لقضاء ما نستطيع سرقته من الزمن الجميل، كنت مندمجاً في ساعات الصباح الأولى مع ما كتبت في أطروحتي، وأنا أنفخ سطورها استعداداً لمناقشتها أمام مجلس الكلية في الأيام القادمة، كان الجو بارداً وفي حالات البرودة التي تبدأ منذ تشرين الأول أبقى حبيس غرفتي متفرغاً للقراءة والكتابة هرباً من تساقط الثلوج التي تغمر كل شبر في مدينة لينينغراد.

وأنا في حال الانسجام مع سطور الأطروحة سمعت طرقاً على الباب، أذنت للطارق بالدخول وكان (كاميران) صديقي وشريكي في الغرفة الذي بدأ يتغيب عن المبيت معنا لأسباب كنت أجهلها.

بعد تبادل العناق وكلمات المجاملة والتي كان يجيدها ذلك الإنسان الرقيق الذي يذوب في شخص من يقابل ويصبح جزءاً منه يكرر ما يقوله الآخر ويتبناه وكأن الرأي والفكر يعود له لا للطرف الآخر.

فاجأني برغبته بالزواج من صديقته (أولـگا)، والتي لم أتعرّف إليها حتى تلك اللحظة كما استغربت منه عمق العلاقة التي أوصلته إلى طلب الزواج علماً بأنه كان خائباً دائماً في علاقاته مع النساء.

قال إن طلبه رُفض من قبل المجلس البلدي بصدور قرار يمنع العراقيين من الزواج من روسيات الا بموافقة السفارة، وكنَّا في ذلك الوقت في حالة خصام وعداء مع السلطات العراقية بعد انقلاب 8 شباط 1963.

طلب مني التدخل لمساعدته في إكمال مراسيم الزواج الرسمية، وكنت في علاقة ودية مع أحد الموظفين البارزين في إدارة الجامعة (سيفا) ذي النفوذ القوي في الإدارة.

اصطحبت صديقي لإدارة الجامعة وشرحت ظروف العراقيين وعلاقتهم السلبية مع السفارة العراقية التي اشترطت موافقتها على

الزواج من الروسيات، اقتنع الرجل بعدالة موقفنا وزودنا بكتاب مهم يشرح فيه ظروفنا القاسية ومعادات السلطة العراقية لنا، اقتنعت إدارة الزواج المدنية بكتاب الرجل وتمت الموافقة على زواج صاحبي من صديقته التي تعرّفت إليها في مراسيم الزواج.

كانت أولگا فتاة غير طبيعية بنظراتها الشاردة تدل على اضطراب نفسي وشعرها المنكوش وملابسها الغريبة تدل على شخصية لا يمكن أن أعدّها سوية. واتضح ذلك باللقاءات التي تمت بعد الزواج، والذي كنت صاحب اليد الطويلة في إنجازه وفي القيام بترتيب الحفل الساهر وإدارة الحفلة حتى نهايتها.

بدأت لقاءاتي مع صديقي كاميران تتضاءل مع الأيام فقد انتقل إلى مدينتها (زيلينو گورسك) وكان من النادر أن يزورنا في نزل الطلبة، وفي إحدى تلك اللقاءات حدثني عن زوجته حديثاً أثار في نفسي الكثير من الظنون بتلك المرأة، قال إننا لا نمارس الجنس فقد تعاهدنا على المحافظة على عذريتنا لتبقى شعلة الحب متقدة على مدى الأيام فممارسة الجنس تضعف العلاقات الروحية بين الزوج وزوجته.

كان ذلك المنطق مثيراً وغريباً، ما معنى أن يعيش المرء مع زوجته بدون جنس، والذي يؤدي إلى إنجاب الأطفال ولكني لم أستطع التدخل، فالقضية شخصية وصديقنا كما عهدته من قبل يتهرب من العلاقات مع الفتيات في الكلية ونزل الطلبة، لعله كان يخشى الوصال الجنسي أو أن هناك أسبابا أخرى أجهلها، لكن ما حصل أن صاحبي بعد زواجه بسنوات طويلة، لم ينجب طفلاً مما جعلني أعتقد بعدم ممارسة الجنس مع تلك الزوجة، التي أقل ما يقال عنها إنها معتوهة، استمرت علاقتي بكاميران فقد كان الرجل ودوداً ولطيف المعشر لسنوات طويلة، وكنا على وفاق في الفكر والهوايات ولا سيما في اتفاقنا معه ومع محمد في العودة إلى الوطن، والخدمة فيه مهما كانت الظروف والصعوبات التي تواجهنا.

كنَّا في لقاءاتنا الليلية الطويلة نخوض نقاشات حادة تصل إلى حد الخصام حول ظروف العراق، والأخطاء التي اقترفتها الأحزاب الوطنية لكن تلك النقاشات لم تؤثر في علاقاتنا، وكان هدفنا الوحيد أن نبقي على صمودنا وحبنا للوطن وتعاهدنا مراراً على ذلك، وكأننا نخشى أن نفرّط بإخلاصنا لوطنيتنا في ظروف الهجمة الشرسة التي تعرضت لها القوى الوطنية واليسار بشكل خاص.

ولم تمض إلا أيام قليلة على زواج صديقي كاميران وحفاوتنا الكبيرة به حتى حصل ما كنت أتوقعه، خرج من غرفتنا المشتركة ولم يعد إلينا، ولم أره فيما بقى من الأيام، وبلغ به الأمر حداً أنه لم يحضر مناقشة أطروحتي ولم يكلف نفسه عناء القدوم لتوديعي.

هذا هو كاميران حين يألف إلى أحد أو جماعة أو حزب فهو يذوب فيه وينسى الباقي من حواليه من رفاق قدامى وأصدقاء تعاهد معهم على وعود مهمة تتلخص في العمل لخدمة الوطن وتقديم ما يستطيع من التضحيات في هذا السبيل.

ذاب كاميران في شخصية أولگا زوجته ولم يعرف بعد الزواج خلاً أو صديقاً سواها، وعاش معها في مدينة تدعى (زيلينو گورسك) ولم أره إلا في العراق حين عاد بدونها ودخل عليّ في داري بدون إذن، استعاد الألفة الأولى وكأننا لم نفترق لعدة سنوات.

تقلب صديقي العزيز الذي أحببته كثيراً وما زلت أحبه فهو لن يحظى مني سوى بالحب الذي هو أهلٌ له، ولكنه مع أسفي تقلب في حياته من اليسار إلى اليمين ومن فكرٍ متطرف إلى فكرٍ متطرف آخر.

انتقل صدقي من الحزب الشيوعي وفكره الذي يعتمد الثورة حينذاك إلى حزب قومي كردي (الديمقراطي الكردستاني)، وعمل في جريدته وانتظم في صفوفه حين أعلنت الثورة عام 1974 على حكومة

البعث، وحين فشلت الثورة لخيانة من دعمها من الإيرانيين والأمريكان عاد كاميران إلى العراق لينخرط في صفوف حزب البعث ويعمل في مجلة (آفاق عربية) كواحد من أفضل المحررين فيها، واستمر في تعاونه مع حزب البعث، ذي الأفكار الفاشية الذي بانت نواياه في أواخر السبعينات في اضطهاد اليسار وقمع الأحزاب الأخرى المتعاونة معه في جبهة واحدة، وبقي كامي يعمل في المجلة حتى مغادرته إلى لندن لينقلب إلى متعاون مع الأمريكان ويتبنى الفكر الليبرالي الغربي.

عمل في جريدة الحياة محرراً، وكان يدافع عن الفكر الليبرالي بل بلغ به الأمر حداً للدفاع عن مصالح إسرائيل وحقها في البقاء، لائماً العرب على معاداتهم لهذه الدولة الديمقراطية وزار إسرائيل مرات عديدة.

وعمل أيضا في خدمة الولايات المتحدة حين أدار في براغ محطة (العراق الحر) لفترة ليست بالقصيرة، ودخل العراق مع الجيش الأمريكي متبنياً الأفكار التي ينسب لها (تحرير العراق).

نسي صديقي كامي وأصدقائي الآخرين، سامي، محمد وغيره ممن تعاهدنا سوية في لياليا الصاخبة على تجنيد قوانا لخدمة بلدنا، لم يفِ أي منهم بتلك العهود التي قطعناها على أنفسنا ولم يذكروا العراقَ والعراقيين أيام محنتهم في الحروب التي توالت على العراق ودمرت وقتلت أبناءه وأصدقاءهم خصوصاً صديقي سامي، الذي ترك العراق مبكراً ليعمل بعيداً عنه ناسياً كل شيء عن العراق وأصدقائه في العراق، فقد قطع هو وكامي جذورهم البعيدة التي أصابها المرض لسلوكهم غير السوي إزاء بلدهم وقومهم.

كنت في حزن عميق لسلوك أصدقائي وأنا أعاني في وطني من ويلات الحروب الثلاث، وسني الحصار التي أتت كالنار على شبابنا

وأطفالنا وشيوخنا وكنا في مجاعة دائمة، ولم يذكرنا أي من أولئك الأحباب السابقين، نظمت قصيدة (إلى غرباء) معبراً عن مرارة عواطفي إزاء أولئك الأصدقاء:

يا أدعياء العلم طال هروبكم عن موطن في العلم كان الأعلاما
عشتم جميعاً في النعيم بغربة قُطعت جذوركمُ فصرتُم شرذما
أرخصتم أيد تصدى أديمها للغاصبين ومن تعدى عالحمى
ونسيتمُ في ظل عزّ زائف وطناً أجاركمُ سنيناً وأطعما
هل تفخرون بعالم متقدم والعربُ صرعى علم غرب آثما
ما قيمة العلم مرفوعاً بلا خلق يُعلى علينا ذئاباً تحرس الغنما

مرت بي أيام عصيبة، في أواخر إقامتي في مدينة لينينغراد، كان المرض يأخذ بأنفاسي ويشل حركتي، بعد دخول محمد مستشفى الأمراض النفسية هاجمتني الحمى التي بلغت حوالي 40 درجة مما استدعى حضور الأطباء لمعرفة سبب ارتفاع درجة الحرارة، كانت الحرارة مصاحبة لالتهاب اللوزتين الحاد وفي نفس الوقت صاحبتها أنفلونزا وافدة، حاولوا نقلي إلى المستشفى ولكني رفضت، كنت أكره الأطباء والمستشفيات منذ طفولتي منذ أن أُصبت بمرض التيفوئيد الذي عانيت منه كثيراً.

كنت وأنا في حال إعياء من الحمى أعاني من توتر نفسي شديد لما يحيط بي من ظروف متناقضة أورثتني الكآبة لقرب سفري إلى العراق، وأخرى أصعد بمشاعري وعواطفي لأصل القمة من خلال اللقاءات الحميمة مع إيزيس، واستمرت هذه المشاعر المتناقضة متداخلة مع المرض العضوي لتهلكني وتجعلني طريح الفراش لا أقوى على التفكير السليم.

كنت وأنا أعاني من الوجع العضوي والنفسي مسكوناً بالأفكار الهلنستية التي تصيبني من آن لآخر بدوار شديد وأنا نهب تلك الأفكار، وسمعت طرقاً على باب غرفتي، أذنت للطارق بالدخول متصوراً أنه أحد أصدقائي العراقيين وكانت المفاجأة دخول لودميلا بشحمها ودمها ولحمها.

لا أعرف من أخبرها بمرضي، لعله صديقي عول كان دخولها وأنا في ذلك المأزق الحرج من مرض إلى أفكار متلاطمة حاملة معها كل بؤس الحياة لم أتوقع زيارتها بعد تلك القطيعة، كان ذلك الحضور مدعاة لزيادة الأوجاع النفسية، نظرت إلى وجهها ذلك الوجه المورّد والباسم، قد اختفت منه علائم الفرح وذبلت العينان وترملّت الوجنتان، كان منظرها يثير الألم والشفقة في نفسي.

جلست أمامي وهي تحاول أن تجد موضوعاً للحديث لمواصلة الجلسة، ولكنها كانت تتعثر بعد جملتين أو أكثر، عجبت للقدر الذي جعل ذلك اللقاء مشبعاً بالبرود بعد أن كانت لقاءاتنا تمور بالحميمية والعواطف المتأججة ذهبت أفكاري بعيداً إلى لقاءاتنا، وحياتنا المشتركة لمدة أربع سنوات مستعرضاً ما كنا نقوم به في الليالي الشتائية الباردة، ونحن يدفئ أحدنا الآخر في فراش واحد نتقلب في حمى الجنس حتى ساعات متأخرة من الليل.

مرت تلك الذكريات في لحظات وجودها بجنبي وأنا ساهمٌ مفكرٌ، كيف نُسيت تلك الليالي والسفرات إلى المدن القريبة من لينينغراد شتاءً وصيفاً، ربيعاً وخريفاً، ونحن نتجول في غابات الصنوبر والبتولا نستنشق هواء الريف المحمَّل بكل عطور الأشجار متماسكين لا نريد الافتراق عن بعضنا، كنا نعيش أياماً ربيعية خالدة.

كيف ذهبت كل تلك الذكريات هباءً، ولم يبق منها ما يذكرني

بصديقتي لودميلا، كيف استطاعت إيزيس أن تحتل مكانها وتطرد كل ما كان في قلبي من عواطف إزاء هذه المرأة الطيبة، التي لم تطلب مني يوماً أن أتزوجها أو أن أعيش معها، كل ما طلبته أن نبقى أصدقاء حتى موعد مغادرتي لينينغراد متوجهاً إلى وطني.

في تلك الساعة وأنا غارق في تأملاتي وذكرياتي وقلبي يقرصني من الداخل سمعت طرقاً على الباب، دخلت إيزيس بدون أن أتوقع مجيئها، وتوجهت بدون تردد نحوي وأنا طريح الفراش، أمسكت يدي الحارة وأخذت تقبلها بشغف وهي لم تبدِ أي اهتمام للمرأة الجالسة في الغرفة.

قالت: كنت في زيارة صديقنا محمد الراقد في مستشفى الأمراض النفسية وطلب مني أن أزورك بعد علمه بمرضك ناسياً مرضه، وها أنا الآن بين يديك لعلي أن أخفف مما تعاني منه.

قامت لودميلا لتخرج من الغرفة ومن حياتي إلى الأبد، وقالت كلمتين: (الآن عرفت سبب بعدك عني)، خرجت دامعة العينين تجر أذيالها مكللة بالخيبة، لكأنها تقول كيف استطاعت هذه المرأة أن تنزع من قلبك كل تلك العواطف والذكريات المتقدة عبر السنوات الأربعة التي عرفتك فيها، وأحببتك وأخلصت لك معرضة نفسي لأنواع الانتقادات من قبل زملائي الطلبة وإدارة الكلية.

كيف تنسى بهذه السرعة الأيام الخوالي، التي كانت زادي في غيابك، أثار هذا الموقف الأشجان في نفسي وصرت أصارع دواخلي المتوجعة والتي زادت من ثقل مرضي، ولكن حضور إيزيس كان البلسم الذي يشفي كل الأمراض.

مرَّت الأيام الأخيرة متسارعة، وقبل موعد السفر القريب استطعت أن أحظى ببعض الأيام الجميلة مع صديقتي الفاتنة، بقيت في تلك الأيام الحاسمة من حياتي في حالة صراع عنيف هل أخبرها بقرب

موعد الفراق؟ أم أظل أعيش تلك الساعات والأيام القليلة أغترف اللذة والسعادة بقربها، بالرغم من قرب الفراق الطويل، كنت في أغلب الساعات البعيدة عنها أعاني من لوعة أفكار البعاد ولكن رؤيتها كانت تزيل عني كل الصراعات العقيمة.

كنا متلازمين لا نفترق عن بعضنا لكأن هاجساً يحتل قلبي وقلبها ينبئها وينبئني بقرب الفراق، لكننا كلينا لم نضع في حسباننا أن الفراق قادمٌ، وكانت السويعات القليلة التي نقضيها معاً تدفئ قلبي الذي علته برودة البعد سلفاً وأنا في سبيلي إلى مستقبل غامض أفضل ما فيه قد يكون السجن حين وصولي.

دعوتها إلى مشاهدة فيلم الحرب والسلام المأخوذ من رواية تولستوي الشهيرة، والتي تروي تأريخ فترة مهمة من التأريخ الروسي والتي ترتبط بفترة احتلال نابليون لروسيا عام 1812، وما عاناه الشعب الروسي من ويلات الاحتلال، ومن خلال تلك الأحداث الدامية يحدثنا تولستوي عن حب ناتاشا لبطلها الأسطوري العقيد إيفان، وكانت حياتها تكتوي بالأحداث التي مرَّت عليها وهي تارة عاشقة راقصة، وأخرى حزينة تندب حبيبها .

كنت جالسا متلازما مع إيزيس في مقعدي، كنا كأننا جزء من ذلك الفلم الذي تتراءى لنا أحداثه، ولا سيما في (البال) الأول لناتاشا وهي تبلغ سن النضوج في تلك القاعة القيصرية المهيبة، المزينة بأجمل الثريات التي تنور الحفل الكبير، والذي تملؤه أجمل الفتيات الروسيات مع زينة شباب العوائل الأرستقراطية والبرجوازية.

ذلك المهرجان من البدلات النسائية التي ترفرف مع أنغام الموسيقا الراقصة والشبان يحتضنون الصبايا في إيقاع رقص متوائم مع عذوبة الموسيقا الحية، التي تعزف من قبل الأوركسترا الكبيرة في القاعة.

لكن رقصة الفالس الجميل وناتاشا تجربه مع بطلها الشاب اليافع لأول مرة، أثارت فينا ذكريات الفالس الذي رقصناه معاً في منتجع جايكا، وكنا نحلق في عوالم وردية لا تمت بصلة إلى عالم البشر، ندور وندور في الأفلاك الرومانسية التي تحيط بنا ونحن في أول أيام ذلك اللقاء الحميم، الذي تمخضت عنه هذه الذكرى العطرة والحية على مدى الأيام.

كنت أحتضن يدها الصغيرة والدافئة وأستمتع بقربها، وأنا أهيم في عالم تولستوي وكأنه يعبّر عن قصتي مع إيزيس في ذلك الفيلم الرائع.

كانت ساعات خالدة ونحن ماضون مع القصة في عالم الحب الرومانسي، الذي عاشته ناتاشا منذ بلوغها سن النضوج حتى مقتل حبيبها، وكأن تولستوي يريد أن يقول لنا: ها هي نهاية ذلك الحب كما هي نهاية كل حب أو علاقة، لا بدّ لها من أن تنتهي بلوعة التراجيديا الإنسانية لتمتلئ قلوبنا بالحزن مكان تلك النشوة والعناق والحب.

كنا مسحورين بالأجواء الاحتفالية الروسية وفخامة العروض في قاعات الرقص وفي بيوت الإقطاعيين والبرجوازيين وأدهشنا تولستوي ببطولة الشعب الروسي وهو يكافح احتلال نابليون لموسكو، وكان من أروع اللقطات المثيرة حرق المدينة، عاصمة الامبراطورية الروسية أمام تقدم القوات الفرنسية، تلك العاصمة التي كانت محل أطماع نابليون لقباب كنائسها الذهبية، وهو يُمني النفس باحتلال أسطوري لأقوى امبراطورية امتنعت عن غزوه.

لكن تضحية الروس بمدينتهم الحبيبة وحرمان نابليون من ثمرات غزوه كانت ضربة معلّمٍ أطاحت بمطامح ذلك الغازي وما ترتب بعد ذلك من خوف جنوده وسط سطوة كاسحة من الجنرال الجليد، وهم في حسرة وبؤس من الخسارة التي فجعوا بها جارين ذل وعار

الانسحاب من وهاد روسيا الثلجية، بعد تلك الآمال التي كانوا يجترونها وهم في الطريق الطويل لاحتلال موسكو.

كانت مقاومة الشعب الروسي وهو يقاتل بأسلوب الأنصار مستخدماً تكتيك الهجوم الكر والفر لعب دوراً مهماً في سقوط مطامح نابليون، وفشله في السيطرة على روسيا، وكانت تلك أولى الضربات التي أدت إلى اندحار جيوش نابليون وهزائمه التي تلت تلك الحرب وخسر بها عرشه وامبراطوريته التي بناها على احتلال الدول الأوربية.

خرجنا من السينما وكنا لا نزال في نشوة الفيلم يحضن أحدنا الآخر لا نريد أن نفترق راغبين في الذوبان أحدنا في الآخر، قبل أن تذيبنا لوعة الفراق القادم.

وصل صديقي سامي إلى لينينغراد لزيارة صديقنا الراقد في مستشفى الأمراض النفسية محمد، ذهبنا سوية لزيارته فوجدناه في حالٍ أفضل بكثير من السابق وكان الطبيب المعالج حاضراً، حدثنا عن المرض وتطوره وكيف قام بمعالجته نفسياً قبل استخدام العلاج الكيمياوي وكان كلامه مريحاً ومطمئناً، قال لنا إن صديقكم سيخرج قريباً معافى.

استضفت سامي تلك الليلة في غرفتي بنزل الطلبة، وكانت فرصة لنا لاستذكار ما مر بنا خلال تلك السنوات التي عشناها في روسيا، منذ السنة التمهيدية لدراسة اللغة الروسية، تهيأنا لسهرة طويلة تخللها تحضير الطعام والمشروبات وفي المقدمة الفودكا، كانت الأحاديث تحمل في طياتها الحزن وتبكيت الضمير من قبل صديقي.

حدثني وهو يعترف بصدق عن تصرفاته الجنسية التي أقل ما قال عنها إنها مرذولة ومدانة، كان بالرغم من علاقاته مع النساء الروسيات أقام علاقة مع زوجة أحد الأصدقاء العراقيين، وكانت مغرمة به، بادلها

الغرام بدون حذر أو احترام لأصول الزمالة والصداقة، وكانت في علاقاتها الجنسية الفاضحة تريد أن تخبر الدنيا كلها بتلك العلاقة.

أثار هذا السلوك من قبله وزوجة العراقي مختلف المشاعر المعبرة عن السخط والغضب إزاء ذلك السلوك غير السوي، وبلغ الأمر حداً إلى حصول معركة بين سامي وزميلنا العراقي استخدمت فيها جميع أنواع الضرب والأدوات الحادة، والمؤلم في العملية أن جميع العراقيين في الجامعة علموا بتلك الفضيحة، وأدانوا صديقي الذي تمادى كثيراً في العلاقة مع تلك المرأة.

كان سامي يحدثني وهو في غاية الحزن والألم لارتكابه مثل ذلك السلوك الذي يخلو من أي تبرير، فلم يكن بحاجة إلى مصادقة زوجة عراقي وهو المعروف بعلاقاته النسائية مع العديد من الروسيات، استرسل في حديثه المليء بالمرارة معتذراً لي وكأني أنا القاضي الذي سيغفر له أو يحكمه بالإدانة، لكنه كان بحاجة إلى ذلك الاعتراف ليخفف من جريمته.

وأخبرني عن زواجه بامرأة روسية جميلة أنجب منها ولداً عوَّضه عن أخطائه وسلوكه السابق، كانت فالا زوجته التي تعرّفت إليها لاحقاً من النساء الفاضلات واللاتي يملكن القدرة على عطاء كثير، قد غمرته بعواطفها وحبها الكبير والذي أورثه آلام الخطايا السابقة مما اقترف من إساءات إلى العديد من النساء، خصوصاً تلك المرأة العراقية.

كان سامي يكاد أن يكون صديقي الأول في علاقتي الحميمة مع نخبة من الأصدقاء، واستمرت العلاقة في تطورٍ ولاسيما بعد عودتنا إلى الوطن وعملنا سوية في المجال الأكاديمي، كنت له الصديق الوحيد المخلص وكان في سلوكه مثالياً إلى درجة التبتل في تلك العلاقة التي استمرت عشر سنوات حتى سفري إلى طرفة في المغرب.

كان قد حصل لي على موافقة الجامعة في التدريس هناك وطلب مني في إحدى رسائله، أن ألتحق به للظروف الجيدة والمواتية في العمل في المغرب العربي.

التحقت به بعد طردي من الجامعة ولكن ما أشقى ما لاقيت من هذه (اللاكن)، فقد وجدت صديقي المخلص قد تحول إنساناً آخر، غير ذلك الإنسان الذي تطهَّر من شوائب الماضي، ليعود أتعس مما كان عليه في السابق.

خرجت من المغرب وارتاح صديقي لذلك الخروج الذي خفف من معاناته، وها هي السنين مرت وتجاوزت الثلاثين عاماً وهو في صمته لا يتصل بنا بالرغم من المحن التي مرَّت علينا، خلال الحروب الثلاثة التي دمرت العراق وقتلت أبناءه، وهو قد أصابه البكم متنكراً لتلك العلاقة الجميلة التي جمعتني وإياه طيلة سنين طويلة متناسياً ما قمت به من خدمات لأجله وكأنه أخ لم تلده أمي، كتبت هذه الأبيات معبراً عن ألمي لفقدي أقرب صديق كان يزين حياتي:

أسفي على من كنت أحسبه صديق
قد كنت في ظني نقياً كالعقيق
أيام كنت فتىً رقيق
تحنو وتعطف حين يحتاج الصديق
عشنا ربيع العمر أغلبه على ودّ عميق
واليوم في عصف الحوادث لا أرى ذاك الصديق
فبريق عينيك انطفى
لم يبق فيه غير أصداء الطريق
يا لعنة الدهر الذي جعل المحبة والإخوة كالظلال بلا بريق

في أحد تلك الأيام النادرة التي مرَّت في حياتي، دعوت محبوبتي إلى سفرة خارج مدينة لينينغراد إلى مدينة بوشكين، التي تصطبغ بألوان الخريف الزاهية وهي تحمل أوراق القيقب، والتي تدعى باللغة الروسية (كلون)، كنت ومنذ أيام تفتح وعيي بالحياة أحب فصل الخريف لارتباطه بالحزن السرمدي الذي ملكنا منذ طفولتنا ونحن نلطم على الصدور حزناً على الحسين بن علي عليه السلام، وترسخ الحزن في نفسي وأنا أعاني الوحدة و الغربة في مدينة لا تعرّف من الحياة سوى الحزن، فالفرح يكاد أن يكون محرماً في المدينة.

وازداد تعلقي بالخريف وأنا أعيش فرحة أشجار القيقب في غابات موسكو ولينينغراد، تلك الأوراق المتساقطة بكثافة والتي تصحو كأنها تريد أن تقول للدنيا: ها أنذا أغنيكم وأظللكم بألواني الزاهية الجميلة قبل الوداع يا بني البشر.

ركبنا القطار في العاشرة صباحاً وكان الطريق بهيجاً على غير عادته في شهر أكتوبر، وقد يكون سر البهجة صادراً من دواخلي لوجود تلك الغادة الحبيبة بجانبي، كنت أرى كل شيء جميلا حولي، ركاب القطار وهم يتحدثون بأصواتهم العالية على عادة الروس حين يلتقون في المحلات العامة، وأرى جمال الطبيعة في أعناق وجذوع أشجار البتولا البيضاء، والتي تساقطت أوراقها وبقيت مجرد أعمدة تعانق السماء بجمال بياضها الناصع في ذلك الصبح الجميل.

بلغنا مبكرين مدينة بوشكين التاريخية، وسميت هذه المدينة باسم شاعر روسيا العظيم بوشكين بعد نجاح ثورة أكتوبر، نظراً لما قدمه الشاعر الكبير لروسيا من خدمات جليلة في المجال الثقافي والشعري فهو الشاعر الروسي الأول، وهو من جدد في اللغة الروسية كثيراً.

وكان الشاعر مكروهاً من قبل النظام القيصري لمواقفه المؤيدة للشعب

الروسي خصوصاً بعد إصداره روايته (ابنة الضابط)، التي تحدث فيها عن ثورة الفلاحين في روسيا مما أثار السلطة القيصرية ضده، ولكن لسمعته الأدبية الكبيرة لم تتخذ السلطات إجراءات قسرية ضده، بل حاول القيصر احتواءه فضمه إلى البلاط وهو في سن السابعة والثلاثين، وخلال إقامته مع القيصر في البلاط قتل في مبارزة مع أحد ضباط البلاط، ويقال إنها كانت مؤامرة للتخلص من ذلك الشاعر العظيم.

كانت مدينة بوشكين تدعى سابقاً باسم القرية القيصرية والتي أنشأتها (كاترينا الثانية)، وبنت قصرها الفخم فيها وكانت القيصرة معروفة بممارسة غزواتها الجنسية في تلك القرية، كانت من آن لآخر تبدل عشاقها وكانت شبقة جنسياً.

ويقال إنها حين تمل من أحد العشاق تعمل على إخفائه بطريقة ما، الاغتيال أو الإبعاد إلى سيبيريا المنفى المعروف للسجناء والثوار في ذلك الوقت.

دخلنا المدينة ونحن في غاية النشوة وكأننا ندخل جنة من جنان الخلد، كانت الأشجار في غاية الروعة، وهي تزهو في أنفاسها الأخيرة في خريف ذلك العام وشجرة القيقب، قبل أن تذهب إلى سبات الشتاء تضخ ما لديها من قوة الحياة في أوراقها الخماسية، التي تشبه إلى حد كبير أوراق العنب، وتتكون تلك الأوراق الزاهية من جميع ألوان الحياة المعروفة، الأخضر، الأصفر، الأحمر، ولكن اللون الطاغي عليها هو اللون الذهبي، ولذلك سمي خريف لينينغراد بالخريف الذهبي نسبة إلى أوراق القيقب الذهبية.

نحن إذن وسط الغابات الذهبية الزاهية مع العزيزة، متلازمان يداً بيد لكأننا على علم بأن هذه الفرصة والساعة لن تتكرر، نريد لها أن تدوم مدى الدهر ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ.

سرنا وسط أكداس الأوراق المتساقطة وهي تزين الطريق محولة إياه من لونه الرمادي إلى اللون الذهبي الزاهي، ونحن في غاية السعادة للفرصة الذهبية في السير وسط غابة أسطورية لا تتكرر في عالمنا المرئي.

كنت أردد وأنا أسير إلى جنب صديقتي كلمات الشاعر العظيم (الخيام)

أمشي الهوينا إن هذا الثرى من أعين ساحرة الاحورار

متصوراً فعلاً أن الأوراق المتساقطة الجميلة والمتداخلة الألوان، بأنها أعين بشرية بصورة أوراق شجرة القيقب الجميلة، كنا نسير وننثر الأوراق على رؤوسنا بفرح كبير وكأننا في عرس طبيعي زاده ورق تلك الشجرة العظيمة، وأوراقها الذهبية ولعل كندا التي تملك من هذه الشجرة الملايين جعلت شعارها المرسوم على علمها ورقة القيقب الزاهية.

بلغنا مقر الامبراطورة كاترينا الثانية، وكان قد أعيد ترميمه حديثاً بعد أن عاث النازيون به تدميراً وسرقوا آثاره ولوحاته الجميلة إبان حصار لينينغراد أو في الحرب العالمية الثانية.

أعيدت زخرفة القصر إلى حالها القديمة، كما أعاد الروس بعض المقتنيات المسروقة، وكان ما أثار انتباهنا العربة (الزحافة) القيصرية المعمولة من الذهب والتي تجرها ثلاثة أحصنة، وهي تنهب الأرض نهباً وسط جليد روسيا في شتاءاتها البيضاء السحرية.

تصورت نفسي مع إيزيس جالسين متماسكين سكارى في تلك العربة، وأحصنة القيصر تجرها وأنا أتدفأ بقرب المحبوبة الجميلة، لكأننا نطير في الفضاء في حلم أسطوري من أحلام الربيع الشبابية ونحن وسط ذلك الجمال البهي، تجولنا في القصر وحسدنا القيصرة

على ما نعمت به من متع مع عشاقها، خصوصاً ما شاهدناه في غرف النوم وتلك الملاءات الملونة التي تغطي الأسرّة الذهبية المثيرة وصور الجدران الملائكية والأسقف المرسومة من قبل كبار الفنانين الروس لتجمّل ليالي القيصرة صاحبة الذوق الرفيع والمعروفة باقتنائها، ليس العشاق فحسب، بل أجمل وأثمن التحف والآثار الفنية والتاريخية. فهي من جمع المقتنيات الكبيرة المعروضة في متحف الأرميتاج الشهير.

كان الوقت يمر بدون أن نشعر به وكنا في غاية الانشراح والسعادة، ولكن الزمن يدور ويدور وتمضي الساعات والأيام، ونجد أنفسنا في غربة ووحدة مؤلمة نعيش على حلم الذكريات، وحاضرنا علقم، كتبت قصيدة عن خريف لينينغراد وما تمتعت به من أيام في ظلال ذلك الخريف وها هي بعض الأبيات:

ويعيدني شجن الخريف لمربع ... أمضيت فيه شبابي المختالا
هو جنة الدنيا وعيدٌ دائمٌ ... قد كان يوماً مرتعاً ووصالاً
أنا كنت في (لينينغراد) صباً عاشقاً ... فكراً يطاول عنفه الشلالا
عُلّقت في شبك الحسان متيماً ... وشربت من رشفاتهن زلالا
وتفتحت للوجد كل مشاعري ... وازداد حبي للحياة كمالا
ولكم تشَّرب في غليلي منظرٌ ... لتمايل الغيد الرهاف دلالا
كان الخريف عناقه متفرداً ... وازدان في قرب القيَّان جمالا
حسن الطبيعة والروابي في العلا ... موجات حب تلهب الآمالا
لبست وريقات الخريف رداءها ... أطيافها السكرى تفيض دلالا
فتشكلت من كل لونٍ فاتنٍ ... ألوان حب تبعث الموّالا
لكن لوناً واحداً متميزاً ... حياً مهيباً لم يصبه كلالا

ذهبٌ يكللها بنور غامر شغل البقاع تعجباً وكمالا
أضفى على الغابات مجداً ساحراً شعَّت سناه كمن يروم وصالا
لن تلقى زهواً في الربيع معبراً كزهاء ألوان الخريف كمالا
تتماوج الألوان في إشراقها في بهجة مشبوبة تتعالى
هى متعة للمغرمين ونشوةً صوفية ترقى إلى النجم البعيد مثالا
جلنا طيوفاً في ربوع تحومها كالحالمين يحفهم إجلالا
عشق الطبيعة في دمى أنشودةٌ ألقٌ بروحى من عشقت (نوالا)

كانت ساعاتي الأخيرة – 48 ساعة – بعد رحلتي الطويلة في روسيا، التي امتدت 6 سنوات مليئة بالتناقضات، ما بين أفكار سوداء تهزني بعنف وأنا أستعد لمغادرة المدينة الجميلة وبين لقائي الحميم مع صديقتي الفاتنة، التي أمضيت معها آخر السويعات وأنا سكران من كؤوس الحب التي رشفتها .

لم أخبر أحداً بموعد سفري سوى شخصين قريبين مني، عول وابن عمي عادل، ولا بدّ لي من الحديث قليلاً عن هذا العادل الصديق والقريب والشريك أكثر من أربعين عاماً في كل ما عشته ولاقيته من حب وسعادة وبؤس وشقاء.

كان عادل فتىً صغيراً عندما غادرت الوطن، ولم تكن تربطني به سوى رابطة المجاملة لقرابته وعلاقتي القوية بعائلته، فلم أكن أتبادل معه سوى السلام والأسئلة التقليدية عن الصحة والدراسة.... إلخ. من المجاملات المرعية في مجتمعنا .

وحين وصوله مدينة لينينغراد للدراسة، تمتنت ونمت علاقتنا الصداقية والحميمية، فكان رفيقي في العديد من المغامرات العاطفية في نزل الطلبة والسفرات التي قمنا بها إلى ضواحي المدينة.

أذكر جيداً سفرتي معه وصديقنا الروماني (ميخايا) إلى مدينة (زيلينا كورسك) في شهر أيار عام 1964 وكانت في انتظارنا صديقتي الروسية (لودميلا).

كان الجو معتدلاً وجميلاً والسماء زرقاء صافية والخليج الفنلندي وشاطئه يبعثان البهجة في النفوس، وكنا في ملابس السباحة نمارسها بالرغم من برودة ماء الخليج الذي ذاب جليده قبل شهر من تلك الرحلة، وكنا بعد السباحة نعود إلى الساحل لنرتاح قليلاً متمددين على تلك الرمال الدافئة التي تغذينا بالدفء وكانت إلى جانبي امرأة تمنحني دفئاً إضافياً، فقد كنا نخبئ نفسينا تحت البطانية وكانت يدي تجوش في جسدها الناعم وصالاً إلى المنطقة المحرمة وأنا في غاية المتعة والإثارة.

كان عادل يراقب تلك الحركات، وهو باسم يحسدنا على ممارستنا الألعاب الجنسية المثيرة، وكأننا منفردان بعيدان عن البشر المحيطين بنا، والذين لم يراقبوا ما نقوم به عدا عيون عادل وملاحظة صديقي الروماني ميخايا، وكانت لنا ليالٍ ولقاءات كثيرة مع ذلك العادل الجميل، الذي يختلف بخلقته وجمال وجهه وطول شعره الأسود عن جميع أقاربي، كان وجهه مستطيلاً يشبه الوجوه الإيطالية الجميلة مع عينين كبيرتين مجرورتين كالعيون اليابانية، ورموش طويلة سوداء، وكان يتميز برشاقته.

كان عادل وما زال محبوب النساء فلديه جاذبية قاتلة سقطت ضحية لها العديد من النساء، ومنهن صديقته الألمانية وصديقاته في المتعة الجنسية، هندية، إنكليزية، إيرلندية، ونساء أخريات، كان زير نساء من الدرجة الرفيعة حتى سقوطه في براثن شقيقة زوجتي، التي التقاها معي في مدينة كمبردج البريطانية، وتزوج منها منجباً ولدا

وبنتين، وما زال مع محبوبته من الحياة المرفهة في مدينة أبو ظبي، لكن أجمل ما أحفظ له من ذكرى، تلك الليلة العاصفة التي أمضيناها سوية في غرفتي في نزل الطلاب، وكانت إيزيس ثالثتنا، شربنا سوية الرم الكوبي القوي، وطمعنا بمذاقه ونحن نكرع الكؤوس الواحدة تلو الأخرى لا نعلم بما سيخلفه فينا.

كنا في غاية البهجة، تارة نرقص وأخرى أحضن صديقتي، وأغرق معها في قبلة طويلة بدون حذر من وجود عادل معنا، حتى بلغنا أوج الإثارة الجنسية بعد منتصف الليل قدتها إلى الفراش بدون تردد، لم أرعَ من وجود عادل معنا، وغرقت وإياها في بحر من العسل، أرتشف منه ما أستطيع من جمال جسدها التقاني ومن شفتيها المكتنزتين، نزولاً إلى الموضع الذي أحبه البشر، والذي أغوى ويغوي أغنى الرجال.

كانت تناديني بغنج وصوتها الدافئ يثيرني وتأوهاتها تحرقني، طلبت مرة أخرى أن أزيل ذلك المانع الذي يدعى غشاء البكارة، لكنني امتنعت عن الدخول فيها، لعلي كما فكرت في السابق، كنت أحفظ بكارتها لعلي أتزوجها ونذهب إلى مدينتي وفي ليلة الدخلة أخرج ومعي المنديل الأبيض المليء بدماء البكارة، لتعلنه والدتي على الناس ويقوم الجميع بالهتاف والهلاهيل، تلك العادة الرذيلة التي اغتصبت آلاف الصبايا في عراقنا وشرقنا المتخلف، الذي أردى متعة ولذة المرأة بعد ليلة الاغتصاب المريرة.

راودتني تلك الأفكار عدة مرات، ولكني كنت مصمماً على عدم الزواج من تلك الوردة خوفاً عليها من الذبول في وطني الذي تذبل فيه آلاف الورود يومياً، لقساوة مجتمعنا المتخلف الذي يطارد المرأة لاغتصابها، وليس الاستمتاع معها في عمل الجنس الجميل الذي ترغب فيه المرأة أكثر من الرجل، لم أعرف بعد تلك الليلة وصحوتي في اليوم

التالي، أن عادل كان شريكنا في الغرفة فقد كنت منوماً بوجود صديقتي معي، التي أخذتني من عالم الواقع إلى عوالمها السحرية، كان عادل يضحك ويذكرني بتأوهاتي وصرخاتي وأنا أمارس الجنس غير عابئ بوجوده، ولم تكن هي الأخرى مهتمة لذلك الوجود.

كان لتلك الليلة الرائعة صدى في نفسي فكتبت قصدية كرستها لتخليد أجمل ليلة في حياتي وهذه بعض الأبيات منها:

ليلة خالدة

أتذكر عادل لقانا الحميم وعرش الجمال يبث سناً
وكنت أطوف على الجانحين يروَّى كيانى بعطر الندى
أشم جذور الأنوثة فيه وأرشف من شفتيه اللمى
وأنت رفيقى بتلك الحياة حلمنا بعالم يدنى المنـا
وكنت أروم دخول المزار ولكن عيناً هناك ترى
فقالت قريبك جنب المزار فكيف بكم تعتلى المشتهى
هنالك عادل في وسطنا يشم العطور بروح الصبا
خطفت من الحب أحلى وصال ولم أرعوى حين يحلو الهوى
دخلت الجنان بعرف الغزاة وروحى سكرى لفرط الهنا
ثملت بحب عزيز المنال ملكت الجمال وسحر الدنـا

كان اليوم الأخير يحمل في طياته عذاباتي، كمن أخبروه إنه آخر يوم له في الحياة، بعد أن أكل مرض السرطان أحشاءه وبقي في آخر أنفاسه، ولكن نوراً كان يرفرف في نهاية النفق، ليمنحه بعض السويعات الأخيرة من الحب العاصف، في تلك اللحظة كان يردد هذا البيت (جاءت معذبتي في غيهب الغسق).

كان وهو ينازع آلامه، ينتظرها وقلبه يدق بعنف لآخر ساعات مع الحبيبة، دقت الباب فقفز كالملدوغ ليفتح لها، احتضنها منذ لامست قدماها أرض الغرفة العارية إلا من الشوق والحب الدافئ التي منحته إيزيس.

عندما لامست شفته شفتيها أحس بشيء ندي مليء باللذة، لكنه كان أكبر من ذلك بكثير، شيء يشبه ما كان يفعله وهو صغير عندما كان يركض فوق حصانه الخشبي بحثاً عن حبيبته التي سرقتها الغيمة السوداء، امرأة مصنوعة من خرافاته الداخلية وأنوار مدينة بغداد، في فجر ربيعي يصعب القبض عليه، يتحسس جسدها الناعم المتكون من أمطار الخريف المنعشة، ومن أوراق القيقب بألوانه الذهبية.

في النهاية يلتهم تلك الشفتين في قبلة شهية تمتد حتى نهاية العمر، مدّ يده ليحتضنها فشعر بجسدها طفولياً، وكأنه يكتشفه للمرة الأولى، وكان زغبه الخفيف الذي ينبت في الأماكن الحميمية مثل ريش فرخ الطير.

كان كل شيء فيها من شمع ونور، وكأن لم تلمسها سوى اليد التي شكلت ذلك الجسد في خفاء مبهم على مدى تسعة أشهر في بطن أمها الفرنسية.

كان يقاوم جنونه كي لا يتحول إلى نيزك حارق، ولا شيء يوقف جنونه إلى درجة يصبح مثل الحيوانات الخرافية التي تفترس أنثاها بعد أن تشبع غريزتها المشتعلة.

لم يكن يهمه أن يشبع منها؛ فالبقاء جائعاً من امرأة يضمن استمرار الحب، كان فقط سينتهي أن يترك جسده يلف جسدها حتى يُصبحا شعلة واحدة، عندما وصلت إلى سرته وانحدرت إلى الأسفل

شعر بالحرائق تنشب في كامل جسده بقوة، وتتسرب إلى دمه، لم يسمع سوى نداءات تأتي من أعماقه تدفعه للغوص فيها عميقاً.

لم يبق فيه شيء من المقاومة سوى أن يترك لهذا الجسد الذي قتلته الكآبة وحولته إلى حطب يابس وقاسٍ.

فجأة أحبته امرأة لا يعرف أبداً أية صدفة قادتها نحوه ولا أية سماءٍ سرقتها من تفاح الجنة، ومن ألونها الزاهية لترميها بقوة على صدره، من أية غيمةٍ تكون ذلك الجسد الذي أصبح يلفه كلياً، في التحام يشبه التحام ملكة النحل على ذكرها قبل أن تخنقه بقوة غريزتها.

أية أنثى هذه التي زرعت في كيان متهالك روحاً أخرى لم يكن ينتظرها، هو الذي تعود على أصوات الخوف وتكسرات الموت الخفي، الذي زرعوه فيه منذ سنوات طويلة، جاء حسها نقياً وشفافاً، خذني... خذني نحوك لم أعد قادرة على تحمل هذا الجنون لوحدي.

كانت تقول بكل انفعال يهزها، ويغزوني عبقه أشتهي أن أقفز إلى قلبك، فقط لأطل عليك، وأقول لك لو تدري كم أحبك، اختطفني إلى مدينة بغداد لأختبئ في عينيك، لقد أصبت بعدواك ولم أعد قادرة على تفاديك إلا بالرحيل.

كانت وهي تتفوه بهذه الكلمات بعد أن لعبت الخمرة في رأسها تخفي في دواخلها نية الهجران القريب، لكأنها هجست نيتي في الهجران الأبدي والذي سوف يُبقي تلك الموجة العاتية من ذلك الحب الذي عصف بكل ما كنت أكثر من ذكريات، عن الليالي الجميلة والمضاجعات واللقاءات الحميمة لتبقى هي وحدها متربعة على قلبي.

إن الحب دائماً عمره قصير، كانت وستبقى تلك الكتلة النيرة تتراءى لي من بين الغيوم السوداء التي أحاطت بعراقي الحبيب لتنور حياتي،

فهي كانت زادي في كل الأيام السوداء التي عشتها في ظلام بغداد الدامس، في سنيني الأولى حتى لقائي بزوجتي الحبيبة التي ملأت حياتي نوراً وحباً، لا زال دفؤه يغمر جسدي وروحي.

كانت تلك الليلة الأخيرة أوحت لي بقصيدة أقتبس منها هذه الأبيات:

إلى فاتنة مرت يوماً في حياتي

لم أنسها يوماً ولم أتنازل ... ويظل قلبى في الهوى يتساءل
كانت هوىً متألقاً يغزو الفضا ... وأتت لها كل النفوس تهلَّل
حوريةٌ غزت القلوب بسحرها ... فتمايل القلب الرهيف يغازل
سرى المتيمُ يستطيب عذوبة ... من مرتع الشفتين شهداً ينهل
روّى العناقُ تضاريساً مهدمةً ... فأصبح الجسد المهدودُ يبتهل
يا غادةً أمطرت روحى عذوبتها ... فيها استفاق حنين القلب يكتحل
من طرفها شعَّت الأنوار صارخةً ... تلون الجو فاشتاقت لها القبل
تعلقت روحى الثكلى بخافقها ... فأنتج الحب من أحلامنا حُلل
عبقت شجيرات الجمال بعطرها ... وأستأنس الورد مشغوفاً بها ثمل
دخلت عالمها والحزن يملكنى ... فراح عنى خزين الهم يرتحل
من دفئها اشتدت الأشواق ساخنةً ... أجول في جسد حىّ فلا أصل
أعطت فأغنت حياتى سحر أغنية ... فأشرق القلب حباً زاده الأمل
يا لعنة الدهر ما أبقى لنا حُلماً ... فضام يومى وأدمى قلبى الطلل
أفرغت كأسى وبتّ الليل منفعلاً ... أصبّر النفس علَّ الجرح يندمل